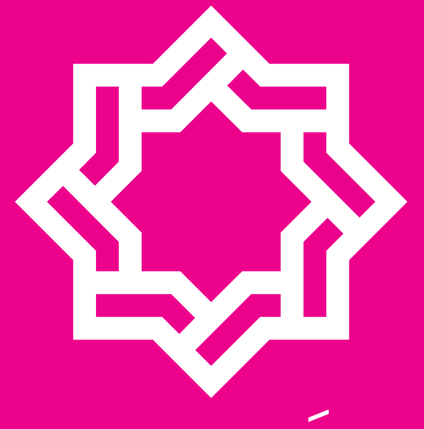


مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ

مُحَمَّد بن مُحَمَّد الأَسْطَل

اسم الكتاب

من عاش على شيء مات عليه

المؤلف

محمد بن محمد الأسطل

عدد الصفحات

١٦٠

النـــاشـــر

طيبة للنشر والتوزيع

٤٥ شارع حيدر حلوان القاهرة

٠١٠٠١٣٩٠٢٩٣ - ٠٢/ ٢٩٧٣٣٢٦٦

E-Mail: Tibaadv@yahoo.com

؟؟؟؟؟؟ / ٢٠١٢



مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ
مَاتَ عَلَيْهِ



الافْتِتَاحِيَّةُ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين، أَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِين، وأَشْكُرُهُ شُكْرَ الحَامِدِين، وَأَشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ وَرَسولُهُ، أَمَّا بَعْد:

فَهَذه سِيَاحةٌ إيمانيةٌ في رِحَابِ سُنَّةٍ إلهية تَصِلُ مَحْيَاكَ بِخِتَامِك، وَدُنياكَ بِآخِرَتِك، فَقَد بَانَ لي بعد تأملٍ وَأَناة؛ أنَّ المَوْتَ هو مُلَخَّصُ الحَيَاة، وأنَّ خاتمةَ العبدِ ما هي إلا صورةٌ مُطابِقَةٌ لِكَامل حَياته، وكأنَّ أيَّامَهُ كُلَّها اختُزِلَت في مَشْهدِ مَماتِهِ؛ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الدُّنْيا مَمَرَّ الآخرةِ، وأُنْمُوذَجَهَا الذي يَدُلُّ عليها، فَأَهلُ الصلاحِ اليوم هم أهلُ الفلاحِ غدًا، وأهلُ الفجورِ اليوم هم أهلُ الثُّبُورِ غدًا، وقد أَوْجَزَ ابنُ كثير هذا المشهدَ بِكَلِمَةٍ رائدةٍ، بَثَّهَا عَبْرَ قاعدةٍ وفائدةٍ، قَال فِيهَا:

إِنَّ اللهَ الكَرِيمَ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ!!

وَأَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ يومَ القِيَامَة عَلَيْهِ!!

وَبِهَذَا تُدْرِكُ أَنَّ الخَواتِيم خاضعةٌ لِسُنَنٍ إلهيَّةٍ تُقَرِّرُهَا، وقوانين رَبَّانِيَّةٍ تُنَظِّمُهَا، وأَنَّهُ يُمكِنُ لِلعَبْدِ المُطَّلِعِ عَليهَا؛ أن يصنعَ بِيَدِهِ خاتمته التي يُحِبُّهَا، وهذا ما طَالَهُ بحثُنَا، وَشَمِلَهُ كتابُنا.

وما سَطَرْتُ كتابي إلا لِهَذا الكَمِّ الهَائِلِ من الخواتيمِ الطَّالِحَةِ، السيئة الفاضحة، التي تجعلُ المَرءَ يَحْتَاطُ لِنَفْسِهِ، ويُعنَى بِسِيرَتِهِ وسَرِيرتِهِ؛ لئلا نُخْذَلَ عند المَوت، قَبلَ الإنابةِ والتَّوبِ؛ فَإِنَّ الخُذلان ثُلْمَةٌ لا تُسَدُّ، ومُصيبةٌ لا تُجبر، فَلزِمَ الوَجَلُ والحَذَر؛ عسى أن نَنْجُو يوم يُنفخ في الصُّور، ويُبعث مَن في القبور، ويظهرُ الخَفِيُّ والمَستُور.

وَقد جَعَلْتُ الكتابَ في مباحث خمسة، تَضَمَّنَت بيانَ السُنَّةِ الإلهيَّةِ في الخاتمة، بِأَدلَّةٍ من القرآن والسنة، وأن اللواحق ميراثُ السَّوابق، وكذا بيانَ أن من عاش على الطاعة أو المعصية مات عليها، ثم عن الخاتمةِ الصَّامِتَةِ وسِرِّهَا، وخَتَمْتُ بِكَيفِيَّةِ صناعة الخواتيم الزاهرة، والميتات الفَاخِرة.

وقد أكثرت فيه من القصص الواقعية، والإشارات الإيمانية، وطُفْتُ من خِلالِهِمَا في ميدانِ

الطَّاعات بِأَلمع الأعمالِ الصَّالحات التي تُصْنَعُ منها الخواتيمُ الفاضلة، ومررت في ساحة المنكرات بِأَخْطَرِ الخطيئات التي تَتَكَوَّنُ منها مادةُ الخواتيم السَّافِلة، حتى يكون الكتابُ جولةً كاملةً تَرْبِطُ النَّظَرِيَّةَ بِالعَمَل، والمُشْكِلَةَ بالعلاجِ والحَلِّ.

واللهَ أسألُ أن ينفعني وإيَّاكَ بِهَذَا الكتاب، وأن يجعلَهُ حُجَّةً لنا لا علينا يوم المَآب.

وهذا ما أَنْجزَ الكاتبُ تأليفَهُ وترتيبَهُ، وجَمْعَهُ وتبويبَهُ، فَإن أحسنَ فَهَذَا مَحْضُ فَضلِ الله عليه، وإن زَلَّ؛ فَالزَّلَلُ مَنسوبٌ إليه، وأعوذ بالله أن أذكركم به، وَإِنِّي مِنهُ بَراءٌ براء، وأستنصَحكم بقول العلامة الحريري في خاتمة المُلحَةِ:

فَانظُرْ إليها نَظَرَ المُستَحسِنِ ... وأحسِنِ الظَّنَّ بها وحَسِّنِ

وإنْ تَجِدْ عَيباً فَسُدَّ الخَلَلا ... فَجَلَّ مَنْ لا فيهِ عَيبٌ وَعَلا[1]

رَاجِي عَفْوَ الله وَرَحْمَتَه

مُحَمَّد بنِ مُحَمَّد الأَسْطَل

فلسطين – قطاع غزة – خان يونس

جوال رقم: ٠٠٩٧٢-٥٩٩٦٣٦٥٠٠

بريد إلكتروني: mastal2010@hotmail.com



(١) ملحة الإعراب (١/ ١٦).



المبحث الأول

الخَوَاتِيْمُ مِيْرَاثُ السَّوَابِقِ



الخَواتِيمُ مِيرَاثُ السَّوابِقِ

انْطلَقَ سائِقُ الباص بِتِسعَةٍ من المُدَرِّسَات، وبعد أن قطع بِهِنَّ مسافةً كبيرةً طَلَبْنَ منه أن يجعل لهُنَّ من رَوائع الأغاني ما يُزيل عنهن الملل، فأجابهن إلى طلبهن!

فقامت مُدَرِّسَةٌ منهن تُدعى «أم محمد» تصدح في سَمْعِهِ قائلةً: يا فلان، اتق الله، أنا لا أريد الأغاني، لا أحب أن أسمعَ الحرام، ولا أريد أن أُغضبَ الله!

فَرَدَّ عليها السائق بِقَسوَةٍ: وماذا تُريدين مني أن أصنع؟ هذه رغبة كُلِّ المُدَرِّسَات، وما أنت إلا واحدة!

فَبَدَأَ المُسَجِّلُ يغني، والمُدَرِّسَاتُ يتراقَصْن في مَقَاعدهن، وَكَأَنَّ أم محمد ما قالت شيئًا يُعتبَر!

وفي لحظةٍ واحدة غَارَ الجَبَّارُ جلَّ جلاله في عليائه، فأمر ملك الموت أن يقبض الأرواح، وما بين غفلةِ عَينٍ وانتباهتها غَفِلَ السائقُ؛ فانحرفت السيارة، فاصطدمت بأخرى حتى وصلت إلى سيارةٍ كبيرةٍ لِتَسحَقَهَا سحقًا، حتى قَطَّعَت الأشلاء إربًا إِربًا!!

هذه تفاصيل قالها سائق الباص بِنَفسِهِ للشيخ إبراهيم الزيات الذي رَوى الحكاية كاملة بِقَولِهِ:

كنت على مقرُبَةٍ من الحادث، ومعي ستة شباب، حيث كنا نسكن أيام دراستنا الجامعية، فَوَصَلْنَا إلى مكان الحادث، فاتصل الشبابُ فورًا على الإسعاف لِيَأْتِي.

وَبَدَأْتُ أَتَجَوَّلُ بين الأشلاء!!

يا للهول!! والله الذي لا إله غيره، تَجِدُ امرأةً رأسها هنا، وَأَنفُهَا هناك، جسمها هنا، وقدمها في الطرف الآخر، والمصيبة أن معظم النساء قد تكشفت عوراتهن، وما بَقِيت واحدةٌ منهن على قيد الحياة!

وبينما أنا أتفقدهن واحدةً واحدة عثرت بالسائق، وإذا بِدِمَائِهِ تخرج من فَمِهِ كأنها نافورة، فناديت الشباب الذين معي؛ لنلقنه الشهادة؛ علَّ الله أن ينقذه بنا، ثم طَبَّبْتُهُ، وضربت على

صدره ضَربًا خفيفًا، وقلتُ: يَا أَخِي، قل لا إله إلا الله! فَبَكَى تلقائيًا!

قلت له: هل هناك من أحياء؟

قال: لا أعلم، ما أذكر إلا أن السيارة ألقت بي، لكنك سَتَجِدُ شَابةً صالحةً، إن وَصَلْتَهَا أَقْرِئْهَا مني السَّلام، واطلب منها أن تدعو لي بأن يغفر الله ذنبي؛ فأنا السبب!! -ثم أخبر الشيخ بِصَوتٍ متقطع بما ذُكِرَ فِي أَوَّلِ القِصَّة-.

وقبل أن أُفارِقَ السائق رجوته مرارًا أن يردد معي كلمة التوحيد، فَلَمْ يردد!

فَجَاوزْتُهُ أبحثُ عن الشابة الصالحة، وإذ أنا بِأُخْتٍ معرية تمامًا فَغَطَّيْنَاهَا، وإذا هي في آخر رمق، فقلت لها: قولي: لا إله إلا الله، فإنكِ في وَضْعِ لا يعلمه إلا الله!

قالت: أُغْرُب عن وجهي، انْقَلِع، وما تَكَلَّمَت، فقرأ الشباب عندها شيئًا من القرآن، لكنها ماتت ولم تَقُل خَيْرًا.

فتركتها ومشيت، وفي قلبي اللوعة من هذه الخاتمة الشَّنِيعة، حتى وصلنا إلى شَابَّةٍ على بُعد [٩ أمتار تقريبًا] من الباص، فتاةٌ كَأَنَّ اللهَ تعالى لَفَّهَا بِعَبَاءةٍ فأنزلها بِهَذِهِ الرعاية، فما رأينا منها بَياضًا ولا سَوادًا، فَعَلِمْتُ أنها التي شَوَّقَنِي السائق لِمَعرفةِ خبرها!

فأخذ الشباب يكبرون ويهللون ويذكرون الله!!

من حفظ هذه الفتاة من بين [٩ فتيات]؟

هذه الوحيدة التي حفظها الله، هذه الوحيدة التي يفرح الإنسان بها!!

فاقتربت منها ووضعت يدي على رأسها؛ لأرى حيةً هي أم مَيِّتَة من خلال حرارتها، وإذ بها حية، فقلت لها: يا أمة الله، قُولي لا إله إلا الله!

فأخذت تبكي بِشِدَّةٍ قائلة: ارفع يدك عني، يا فلان اتق الله، أَهَكَذَا تستبيحُ جسدي؛ لأني مسكينة ضعيفة؟!!

فقلت لها: يا أختي إنكِ تموتين!

فقالت: والله إن الموت أهون علي من خيانة زوجي، ارفع يدك عني!

هذه كلماتها -والله- لم أَدْرِ ما أقول حينها؟

لكني وضعت يدي مرة أخرى، فَانْتَفَضَت قائلةً: يا أخي أبشرك، أنا على خير، لكن لا تضع يدك على جسمي!

فَأَخَذْتُ أُذَكِّرَهَا بِالله، وهي لا تَفْتُرُ عن قَولِ: سبحان الله، والحمد لله!!

في هذه اللحظات وصل الإسعاف، فَوَقَفَ المسعفون مع الشباب والكل يتساءل: كيف خرجت هذه محفوظةً؟!

فقلت لهم: والله ما حركتها، هكذا نزلت!

فاقترب رجال الإسعاف لِحَمْلِهَا، فقالت: يِرْحَم وَالدِيك، لا يقربني منكم أحد، ماذا أقول لربي إذا مس أحدكم جسدي بالحرام؟!

فقالوا لها: إنك تموتين، ولابد من سرعة العلاج قبل موتك!

قالت: والله إن الموت أرحم!! ثم أُغْمِيَ عليهَا؛ فَحَمَلْنَاهَا، وَأَخَذَ الشَّبابُ يقرأون شَيئًا من القرآن!

فَوَصلْنَا المستشفى وَكَانت قَد أَفاقت وهي تُرَدِّد: اللهم إنك تعلم أني ضعيفة، اللهم ارحمني، لا إله إلا الله.

وبعد أن عاينها الطبيب قال لنا: إن نَجَتْ المرأةُ فَتِلْكَ مِنَّةٌ من الله تعالى؛ فَإِنَّ الكسور تكاد تكون عامة لكل الجسم -فلا تنسوا أن الباص قذف بها من مسافةٍ بعيدةٍ إلى الأرض بِكُلِّ قُوَّتِه-

فَجِئْنَا نُذَكِّرُهَا بالله، فقالت: إن استطعتم أن تستقدموا زوجي أبا محمد فافعلوا!

فاتصلنا به، وجاء وتنفسُها يضيق، ونبضات قلبها تسرع، وذلك في تمام الساعة التاسعة صباحًا، وهو يردد: أين العفيفة الطاهرة؟ أين المصلية الصائمة القائمة؟!

ثم توجه بالخطاب لنا: والله ثم والله ما كانت تَخْلُدُ إِلَى النَّومِ إلا بعد أن تُصَلِّيَ لله مَا شاءَ لها أن تُصَلِّي، فاقْتَرَبْتُ منه وَصَبَّرْتُهُ بالله، ويعلم الله أني بِحَاجةٍ إلى من يُصَبِّرُنِي!!

ثم جاء زوجته وسلم عليها وَرَدَّت السَّلام، في مشهدٍ يجعل أصحاب القلوب تتحرك، مشهدٌ من أروع ما رأيت في حياتي!

ثم نَظَرَتْ إليه وقالت: اُقْرُبْ يا أبا محمد أودعك، فَضَمَّهَا إلى صدره وقال لها: أبشري

زوجتي، إنكِ على الخير!

قالت له: لا تظن أني أخافُ من الموت، لكن أوصيك بأولادي الصغار، فإن سألوا عني فأخبرهم أَنِّي أنتظرهم بِعَونِ اللهِ فِي الجَنَّةِ!!

يا أبا محمد سامحني، يعلم الله أني ما قَبِلْتُ من أحدٍ أن يَمَسَّ جَسدي منهم، أخشى أن أموت وأنت عليَّ غَاضِبٌ!!

فَضَمَّهَا إليه ثانيةً وهو يقول: إِنَّكِ الطاهرة العفيفة، لا عليكِ!

فقالت: اللهم يا رب السماوات أسألك يا إلهي أن تحسن خاتمتي، وأن ترعى أولادي، فَلَيْسَ في الدنيا عندي أغلى منهم، ثُمَّ ضمها الثالثة وهو يبكي حتى أبكانا، وهو يقول: الله يعلم أنك تصومين وتقومين، وإِنِّي أشهد لك بالجنة إن شاء الله تعالى!

ثم قالت: يا أبا محمد أرى أناسًا يُقْبِلُونَ عليَّ، أرى وجوهًا ليست بوجُوهِ إنسٍ ولا جَانّ، لا تحرمني لذة الجنة!

وأخذت تبكي بكاءً عظيمًا وهي تقول: اللهم اغفر لي وارحمني، اللهم إنك تعلم أني ما عصيت، يا رب عُهدتي الأولاد، لا إله إلا الله.. حتى فاضت روحها، رحمة الله تعالى عليها!!

إخوتاه..

أرأيتم كيف خَرَجَتْ أُمُّ محمد بِلَا إله إلا الله؟

أرأيتم كيف ماتت مشتاقة إلى ربها؟!

كم بينها وبين زميلاتها؟ فتاةٌ تَسُبُّنَا، وثانيةٌ تَسَبُّ إلهنا وخالقنا، وثالثةٌ تبصق في وجوهنا، حتى خرجت الأرواح ملعونة لَمَّا ماتت على غير لا إله إلا الله!!

كم من لسان سَيَتَعَثَّرُ عند خروج الروح إلى الله؟!

رسالة القصة:

أرانا الله خاتمةَ الأخيار والفُجَّار في مَشْهدٍ واحدٍ، لأناس جلسوا في مَقْعَدٍ واحد!!

فَأُمُّ محمَّد عاشت عفيفةً عابدةً ذاكرة، وماتت عفيفةً عابدةً ذاكرة!!

أَمَّا عُمومُ المُدَرِّسات فَلَمَّا لم تَخْلُ حَيَاتُهُنَّ من كَرَاهيةِ ما أنزل الله، أو محَبَّةِ ما أسخط الله؛ كَالغَرَقِ فِي بَحارِ الشَّهواتِ والمُلْهِيَاتِ، والأُمنيات والأُغنيات، فَضلاً عن جُملةٍ من الشُّرور؛ كَالتَّعَرِّي والتبرج والسُّفور، بل والاستخفاف بِالشَّعائرِ والأحكام، وسب الله ذي الجلال والإكرام؛ كان مماتهن من جِنسِ أَعمالِهِنَّ؛ لِيَشُقَّ اليقين شغاف قلب أخينا الذي بين جَنبَيْه، أن من عاش على شيءٍ ماتَ عليه!!

نعم.. هذه هي الوهدة السحيقة التي حذر منها قول الله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١].

لو تكلمت الآية لقالت:

إن من الظَنِّ الفَاسِدِ أن يَحْسَبَ أهلُ السيئات؛ أن يُسَوِّيَ اللهُ بينهم وبين ذوي الحسنات في المحيا والممات، فكَمَا أَنَّ اللهَ ﷻ خالف بين حَالَيْهِم في دُنْيَاهُم، فكَذَا عِنْدَ مَمَاتِهِم؛ إذ من المُستَنْكَرِ وضعُ العقوبةِ في موطن الإحسان، أو جعلُ الإكرامِ في موضع العقوبة والخُذلان[1]!!

وَهذا مَا عناهُ مُجاهد بِقَولِهِ:

إنَّ المؤمنَ يَموتُ مؤمنًا، وَيُبعثُ مؤمنًا، وإن الكافر يَموتُ كافرًا، وَيُبعثُ كافرًا[2]!!

وهكذا التقي يموت تقيًا، والعاصي يموت عاصيًا!!

وأيد اللَّيثُ مجاهدَ بِكَلامٍ فَحْوَاه:

يبقى المؤمن مؤمنًا حيًا وميتًا، والكافرُ كافرًا حيًا وميتًا[3]!

فيا أيها العبد الصالح اطمئن بِمَا تَخَطُّهُ لك الأقلام؛ فإن الآية تشي بِكَرامةِ الله ﷻ لك في حياتك بِأَسْعدِ حياةٍ، وعند مماتك بِأَحسنِ خِتَامٍ.

(١) الطبري/ تفسيره (٢٢/ ٧٤)، ابن القيم/ التفسير القيم (٢/ ٢٧٠)، سيد قطب/ في ظلال القرآن (٦/ ٤٠٤).
(٢) الصابوني / صفوة التفاسير (٣/ ١٨٦).
(٣) الطبري / تفسيره (٢٢/ ٧٣).

آيَــاتٌ تُـذْهِلُ العُقُــول

ههنا أربع آيات، أكتفي بها؛ لأنها تفي بالغَرَض، وليس الغِنى عن كثرة العَرَض.

الآيتان الأوليان:

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

وقال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

رسالة الآيتين:

الآيتان دَعْوةٌ تنهاك أن تموت إلا على الإسلام، تُعلن التوحيد لِرَبِّ الأنام!

فَهَل أنت من يَمْلِكُ ساعةَ الموت؟!

وَهَل كَيفية الموت خاضعةٌ لاختيارك أنت؟!!

إذن؛ فكَيْفَ يأمُرُكَ ربُّك أن تختار ميتَتَكَ، وَهُوَ من يَمْلِكُهَا وَيَمْلِكُكَ؟!

إليك الإجابةَ بِلِسَانِ ابن كثير:

إنَّ من حَافَظَ عَلَى الإسلام في حَالِ صِحَّتِهِ وَسَلامته مَاتَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الكريمَ قد أجرى عادته بِكَرَمِهِ، أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيءٍ مَاتَ عليْهِ، وَمَنْ مَاتَ على شَيءٍ بُعِثَ يومَ القِيامةِ عليْهِ[1]!!

عَاشَ عالمًا مُعلِّمًا فَمَاتَ عالمًا مُعلِّمًا:

بلغ حُسنُ الختامِ بأحدِ الفقهاءِ الذين كَانُوا يُلَقِّنُونَ النَّاسَ العَقِيدةَ وَالأَحكَامَ الشَّرعِيَّةَ أَنَّهُ أَخَذَ يُلَقِّنَ جَالسيه الشهادةَ ساعة وَفَاتِهِ، وإليك الخبرَ العجيب، عن هذا الفقيهِ العلَّامةِ النَّجيب!

إنَّهُ الفقيهُ الحنبلي عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي أحَدُ علماءِ القَرْنِ السادسِ الهجري،

(١) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٧) عند تفسير الآية [١٠٢] من سورة آل عمران.

عُرِفَ عَنْهُ التِماسَ الأَثَرِ وكَثرة العبَادَةِ، وطلب العلم وتعليمه، فَكَانَ خِتَامُهُ من جِنْسِ عَمَلِهِ؛ فإنه مَاتَ على العِلْمِ والتعليم والتوحيد، كما عاش على العلمِ والتعليمِ والتوحيد!

فَإِنَّهُ فِي أَيَّامِ وفاته أَصَابَهُ مَرَضٌ اشتدَّ به، حتَّى إِنَّهُ لم يَتَمَكَّن مِنَ الذَّهَابِ إلى المَسْجِدِ بِسَبَبِهِ، وَلَمَّا بَلَغَت شِدَّتُهُ به مَبلَغًا سأله أحدُ أبنائِهِ قائلاً: يا أبتاه، مَاذَا تَشْتَهِي؟

قال: أَشْتَهِي الجَنَّة!

ثم تَحَامَلَ على نفسه وَصَلَّى الفَجْرَ، فاقترح عليه ولدُهُ أن يتناول شيئًا من الدَّواءِ، فقال: يا بُنَي لم يبقَ إلا الموتُ -شاعِرًا بدنو الأجل-!

فَسَأله ثَانيةً: ماذا تشتهي يا أبتاه؟

قال: أشتهي النَّظَرَ إلى وَجهِ الله جَلَّ جلالُه!

وَفِي هَذِهِ اللَّحَظَات دَخَلَ عليهِ جَمَاعَةٌ يَعُودُونَهُ، فَسَلَّمُوا عليهِ وَرَدَّ عَلَيهِم بِصَوتٍ ضَعِيفٍ، ثُمَّ أَخَذُوا يَتَحَدَّثُونَ فِيمَا بَينَهُم.

وَبَيْنَا هُم فِي حَدِيثهم إذ حَضَرَتِ الفقيهَ العَابِدَ سَكراتُ المَوتِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ من حَضَرَتْهُ يحتاجُ من يلقنه كلمةَ التَّوحِيد، لكِنَّ العَجَبَ الذي أَذْهَلَ الحاضرين أَنَّهُ مَا رَاقَ لَهُ حديثُهُم، فقَالَ لهم: يا عباد الله قُولُوا لا إله إلا الله، اذكروا الله، اهْجُرُوا مَا تَخُوضُون فيه، فَمَا قَامُوا عنه حتى أخذَ هُوَ يُردد: لا إله إلا الله، يُحَرِّكُ بها شفتيه، حتَّى فَاضَت رُوحُهُ، وانتقل إلى جِوَارِ رَبِّه!!

وَهَكَذا مَاتَ على مَا عَاشَ عليهِ، عبادةً وتوحيدًا، عِلْمًا وَتَعْلِيمًا، وَلَقَّنَهُم الشَّهَادَةَ بَدَلَ أن يُلَقِّنُوه، وَذَكَّرَهُم بِالله بَدَلَ أَن يُذَكِّرُوه!!

وهذا أحدُ أعمامي كان يأتي كل ليلة إلى مسجدنا الساعة الثانية ليلاً، ويبقى يتهجد من الليل حتى يصدح هو بِأَذانِ الفجر، ثم يبقى يذكر الله حتى طلوع الشمس، وإذا صلى العصر بِالمَسجدِ بقي يتلو القرآن حتى غروب الشمس، فإن صَلَّى المغربَ ذَكَرَ اللهَ تعالى حتى العشاء، ثم يعود لِبَيتِهِ يفتح المُسَجِّل على مشاهير القراء، ويبقى على ذلك حتى ساعة نومه، وهذا برنامجُهُ اليوميُّ من ثلاثين عامًا وإلى أن رحل إلى الله!

كُنْتُ أتساءل: كيف سَتكُون خاتمة هذا الرجل الصالح؟

وشاء الله أن يمرض مَرَضَ الموت، وجلس في المستشفى عدة أسابيع، زرته قبل أيَّام من وفاته، فَسَلَّمْتُ عليه وقلت له: يا عَمَّاه، رَزَقَكَ الله الشِّفَاء، أنت حمامةُ المسجد، وإنك رجلٌ صالح، وكلها أيام ونراك معنا.

فَنظَرَ إليَّ وقال: لا يا بُنَي، حَانَ موعدُ لقاءِ ربي، غدًا ألقى الأحبةَ، مُحمدًا وصحبه!

فَعَرَفْتُ أنه يُوَدِّعُنِي.

ويشاء الله تعالى أن يموت كَما عاش تمامًا، فَلَمَّا حَضَرتْهُ الوفاة أخذ يقرأ القرآن، ويذكر الله تعالى، ويرددُ كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، عليها حييت، وعليها أموت، وعليها ألقى الله، ثم فاضت روحه إلى بارئها، وعلا وَجْهَهُ نورٌ ساطعٌ ما رُئِيَ أَشْرقَ منه قط في حياته!

أخي..

إنَّ مَن نوى أن تَفِيضَ روحُهُ طاهرةً مُسلِمةً كما أمر الله، فَعَاشَ حياتَهُ طَائعًا لِمَولاه، الذي خلقه وسواه؛ قبضه الله على ما كان منه في أيام مَحْيَاه!

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

رسالة الآية:

إن الله ﷻ يأمر نبيه أن يجعل صَلاتَه وَذَبيحَتَهُ وَحَياتَهُ ومماتَهُ لله رَبَّ العَالَمِين!

حقًا إنها آيةٌ تُذْهِلُ عُقُولَ العَالَمِين!!

كَيفَ يجعل مَماته لله جل شأنه؟

وهل النبي ﷺ يملك قرار حياته أو موتِهِ؟! أليس المحيا والممات بيد الله وحده؟!!

آيةٌ تَرسُمُ خريطةَ حيَاتَك:

لو أرجعت بصرك في الآية كرتين أو يزيد؛ لألفيتها تقول لك بِكَلامٍ نافعٍ سديدٍ:

إن مَن جَعَلَ صلاته وذبيحته وحياته لله؛ جعل الله ميتته لله؛ لتكون الثلاثةُ الأولى ثمنَ الرابعة وضريبتَهَا!

ومن هنا يُدْرِكُ مَن جَعَلَ حياته لله نِعْمَةَ رَبِّهِ عليه؛ فإذا نام واستيقظ لله، وأكل وشرب لله، وتزوج وأنجب لله، وذبح لله، وقام بأعمال الشريعة كما أمر ربُّهُ، فإن الله يجعل خاتمتَهُ من جنس عمله؛ لِيَعْقِلَ المَرْءُ كَلامًا بثناه إليه؛ أن من عاش على شيءٍ مات عليه!

سعدٌ وما أدراك من سعد!

وَهَذَا سعدُ بن معاذ ﵁ أول من أسلم من الأنصار على يد مصعب بن عمير ﵁، فَإِنَّهُ لَمَّا أسلم توجه مباشرةً لقومه قائلاً: إن كلامَكُم عليَّ حرام، رجالَكُم ونساءَكُم؛ حتى تؤمنوا بالله وحده!!!

فلم يبق رجلٌ ولا امرأةٌ إلا وأسلموا لله ﷻ، وبهذا كانت له خصوصية السَّبْقِ، والناس من قومه بِذَرَارِيهم في جَيب حسناته إلى يوم القيامة!!

ولَمَّا كان يوم الخندق تقدم سعد ﵁ لِقِتَالِ الأحزاب المُشْرِكَة، فَرَمَاهُ رجلٌ كافرٌ يُدعى: حبانَ بن قيس بن العَرْقة، من بني عامر، فَلَمَّا أصابه هتف قائلاً: خُذها مني وأنا ابنُ العَرْقة؛ فرد عليه سعد ﵁: عرق الله وجهك في النار!

وَجُرِحَ سعدٌ بِهَذِهِ الرمية، ولم يكن الجُرحُ خطيرًا، لكن سعدًا ﵁ أراد أن يجعل ميتته لله، كما جَعَلَ حياته -من قبل- كلها لله!!

فنظر إلى جرحه ثم دعا ربه قائلاً: اللهم إن كنت أبقيت من حَربِ قريشٍ شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قومَ أحبُّ إليَّ أن أجاهد من قومٍ آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه.

اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فَاجْعَلْهَا لي شهادة، ولا تُمِتْنِي حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة!!

واستجاب الله دعاه، فَمَكَّنَهُ من بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، وتحالفوا مع الأحزاب لِتَسهيلِ دخولِهم المدينة، وحكم بقتل رجالهم، وسبي نسائهم وذراريهم.

وما إن فرغ النبي ﷺ من قتلهم حتى انفجر جرح سعد[1]، رغم أن جرحه لم يكن خطيرًا قط؛

---

(١) سعد أبو عزيز / رجال ونساء حول الرسول ﷺ ص (٢١٣-٢١٤).

ليكون مماتُهُ لله، كما كان محياه لله!

ألا ترى أَنَّهُ أناط دَوَامَ العَيش بِوُجودِ حربٍ مع قريش، ولَمَّا بَشَّرَ النبيُّ ﷺ بِأَنَّنا الآن نغزوهم ولا يغزوننا، مات سعد كما تمنى ودعا، واهتز لموته عرش الرحمن فوق السماوات العلا ابتهاجًا بقدومه؟!!

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

رسالة الآية:

إن من استقام على أمر الله في حياته؛ لن يَخْذُلَهُ ربُّهُ عند مماته، بل يُسَرْبِلَهُ بِأَمْنٍ من الهَمِّ والغَمِّ، وينجيه من الخوف والحَزَنِ والألَمِ؛ ذلك أن عَدْلَ الله تعالى يقضي بأن من عاش على التوحيد؛ يموت على التوحيد، ويُبعث في زُمْرَةِ أهل التوحيد!!

أما من ضَلَّ وغوى، واتبع الزيغ وعَصَى؛ فَأَخْشَى أن يُخْذَلَ عند حَشرجَةِ الصُّدُور؛ فَإِنَّ الثبات حينها على كلمة التوحيد لا يُمنَحُ لِمَغْرُور، مِن ذَوي الظُّلْمِ والعصيَانِ والشُّرُور، اقرأ في ذلك قرآنًا بالحق نزل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: القول الثابت هو قول: لا إله إلا الله!

أذكر أن والدي حدثني يومًا عن رَجُلٍ عندنا كان يَؤُمُّ المصلين بمسجد الزهراء بخان يونس يُدعى «حسُّونة الأسطل»، ثم إن الله تعالى قَدَّر له أن يمرض، وكان مرضَ الموت.

قال والدي: كان هذا الرجل يُكْثِرُ من تلاوة القرآن، في الليل والنهار، حتى أضحى القرآن لحمَهُ ودمَهُ، ولما حضرته الوفاة مات على آية كان يحبها، وعند خروج الروح صدح بها تاليًا:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وما زال يرددها حتى فارق الدنيا!!

خَطرٌ دَاهِمٌ:

وَبِمَا تَقَرَّرَ لَدَيكَ آنِفًا تُدْرِكُ الآن يقينًا أَنَّ مَن عَاشَ عَلَى غَيرِ تَوحِيدِ رَبِّهِ؛ فَإِنَّهُ يُخذل عند مَوتِهِ، وأَنَّ من نَطَقَ بِالتَّوحِيدِ بِاللِّسَانِ وَالأَقْوَالِ، دُونَ أن يَعِيشَ عليهِ بِالقَلْبِ وَالجَوَارِحِ وَالأَعْمَالِ؛ فَإِنَّهُ يُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ لا يُرزقَ الثَّبَاتَ عِندَ المَمَاتِ، أو التَّوحِيد وَالهِدَايَة عند الخِتَامِ والنِّهَايَة.

فاللهَ اللهَ فِي القَلْبِ أَيُّهَا العَبْد؛ حَتَّى تَمُوتَ عَلَى العَهْد، وإليكَ عِظَةً مِنْ غَيرِ عَالَمِ الإِنْسَانِ؛ عَلَّهَا تَغرِس فِي قَلْبِكَ الحَيَاةَ عَلَى الإِيمَانِ!

لا تَكُنْ مِثْلَ الببَّغَاء!

عَقَدَ أَحَدُ عُلَمَاءِ العَقِيدَةِ دَرْسًا مَنْهَجِيًّا فِي عِلْمِ التَّوحِيدِ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَهْدَاهُ أحدُ تَلامذته بَبَّغَاء، وَكَانَ الشَّيخُ مِمَّن يُحِبُّ الطُّيُورَ، ويُعنى بتربيتِهَا، وقُدِّر أن يكونَ الدَّرْسُ يومَهَا عن كَلِمَةِ التوحِيدِ «لا إلهَ إلا الله» وَالأحكامِ المتعلقةِ بِهَا، وإذ بالببغاء يُقَلِّدُ الصَّوتَ، وَيُرَدِّدُ: «لا إله إلا الله» فَفرِحَ الشَّيخُ فَرَحًا شَدِيدًا، وكَانَ بَعْدَهَا يُحضِرُ الببغاءَ مَعَهُ إلى الدَّرْسِ، حَتَّى أَتْقَنَ الببغاءُ الكلمةَ وَصارَ يُرَدِّدُهَا لَيلاً وَنَهَارًا!

وفي ذاتِ يَوْمٍ قَدِمَ الطَّلَبَةُ إلى الدَّرْسِ فَوَجَدُوا شَيخَهُم يَبْكِي بِشِدَّةٍ وينتحب، فسألوه بِلَهْفَةٍ عن سببِ بُكائِهِ؛ فأخبرهم بِقَتْلِ القط للببغاء، فقالوا: لا عليكَ، نُحْضِرُ لك أفضلَ مِنْهُ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: وَالله مَا بَكَيتُ لِفَقْدِهِ، وإنما الذي أَبْكَانِي أَنَّ القِطَّ لَمَّا هاجَمَهُ أخذَ يَصْرُخُ بِشِدَّةٍ حتَّى مَاتَ دُونَ أن يَقُولَ: «لا إله إلا الله»، مَع أَنَّهُ كَان يُكثِرُ مِنهَا كُلَّ يومٍ، إلا أَنَّهُ عِنْدَ مَوْتِهِ نَسِيَهَا؛ ذلك أنه كان يَقولُهَا بِلِسَانِهِ، ولَم يَقُلْهَا بِقَلْبِه!

وإِنِّي وَالله أَخْشَى أَنْ أَكُونَ مثلَ الببَّغَاءِ تَمَامًا، نَعِيْشُ حَيَاتَنَا نُرددُ الكلمة بِأَلسُنِنَا، وعِنْدَ مَماتِنَا لَا تَحْضُرُنَا فَنَنْسَاهَا؛ لأَنَّ قُلُوبَنَا لا تَعرِفُهَا وَلَا تَعْقِلُهَا!!

سُــــؤَالٌ مُـشْـكِــلٌ



أذكر أن شابًا سألني يومًا:

كيف يعيش المرء صالحًا طوال حياته، ثم يخذُلُهُ الله عند مماته؟

قلت: هذا بعيدٌ؛ فإن الله لا يظلم أحدًا، بل أخبر عن نفسه أنه لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً، وما كان الله ليضيعَ إيمانكم!

قال: ما رأيك في حديث البخاري ومسلم من روايةِ ابن مسعود ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إن الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ؛ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ!

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ؛ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»؟!!

قلت: حَدِيثٌ صَحيح، وهو في الصحيحين، مما يعني أنه في أعلى درجات الصحة!

لكن الإشكال يزول -بعون الله وفضله- إن ضُمَّ هذا الحديث لِحَدِيثِ الصحيحين -أيضًا- من روايةِ سهل بن سعد الساعدي ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ!

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[(١)].

رسالة الحديث:

إن النبيَّ ﷺ قيَّدَ الخذلانَ للعبد الذي يُبدي للناس صَلاحَهُ، ويُخفي طَلاحَهُ، فَجَهرُه حسنٌ، وَسِرُّهُ عَفِنٌ، وليس من ذلك العبدُ الموفقُ وليُّ الله وَصَفيُّهُ الذي استقام ظاهره مع باطنه، فهل يُعقل أن يُكرِمَهُ اللهُ طُوالَ حياتِه، ثم يخذلَهُ ساعة مماته؛ فإن هذا بعيدٌ بعيد؟!!

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٢٨٩٨)، (٢/ ٣٩).

ولابن عثيمين تعليقٌ يرشح فقهًا وتحقيقًا نافعًا إليكه بقوله:

إن السريرة الخبيثة هي التي أَوْدَتْ به لَمَّا لَمْ يَبْقَ بينه وبين أجله إلا ذِرَاعٌ، وليس المقصود أنه عمل بِعَمَلِ أهل الجنة، ولما وصل إليها حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا ذراع صدَّهُ الله عنها، فهذا مستحيل، ولا يكون[١].

بل -أُقْسِمُ بالله- ما مات من يُظَنُّ فيهِ خيرًا على خِتامٍ مَشِينٍ؛ إلا لِدَسِيسَةٍ خَفِيَّةٍ بينَهُ وبينَ ربِّ العالمين، فإذا اغترَّ الناس بِظَاهِرِهِ طوال عمره؛ أبرز الله دسيسته عند موته؛ ليموت على ما عاش عليه.

يؤيد هذا المشهد الآتي:

خرج رسول الله ﷺ وصحابتُهُ لِقِتَالِ المشركين، ولَمَّا بدأت المعركة واشتدت، وإذا بِأَحَدِ رجالِ المسلمين يتقدم الصفوف، ويبلى بلاءً حسنًا أذهل الصحابة، لكن النبي ﷺ لما رآه أَسَرَّ لِمَن حوله أن هذا الرجل من أهل النار، فَعَجِبَ الصحابةُ من مَقَال النبي ﷺ، ونظر بعضهم إلى بعض في ذُهُول!

ومن شدة حرصهم على معرفة خاتمةِ الرجل، قام أحدُهم يتتبعُهُ، فرآه يقاتل بِبَلاءٍ قَلَّ نِظيرُهُ، حتى أُصِيبَ، إلا أنَّه لم يصبر، فَرَاحَ يَعْمَدُ إلى سيفه، فَرَكَزَهُ على الأرض، وجعل رأسه في صَدْرِه، ثُمَّ تحامل عليه وانتحر!

فَجَاءَ هذا الصحابي، وأخبر نبينا ﷺ بِصَنِيعِ الرجل؛ فتكلم النبي ﷺ بحديث سهل رضي الله عنه الذي ذكرته آنفًا[٢]!

قلت:

ولا بأس ولا حرج أن يُتركَ حَدِيثُ البَابِ عَلَى إجمالِه؛ كي يبقى كَالسَّوطِ الْمُعَلَّقِ، فمن رآهُ أرهَبَه، ومَسَّ الزَّجْرُ صَميمَ قلبِهِ؛ لِيُراجعَ العبدُ نفسَه، فَرُبَّمَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ من سَخَطِ الله ما ألقى لها بالاً؛ فَخُذِلَ عند الموت بسببها.

(١) ابن عثيمين / اللقاء الشهري (١٣/ ١٤).
(٢) حديث البخاري عن سهل بن سعد الساعدي، تقدم تخريجه قريبًا.

وقد يكون بينه وبين ربه دَسِيسَةٌ لم يتركْهَا، أو تركها ولم يتب إلى الآن منها؛ فَحَضَرَتْهُ ساعةُ موته.

يؤيد هذا ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده بِسَنَدٍ صحيح من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ؟؛ فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ، أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلاً سَيِّئًا..

وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّءٍ لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلاً صَالِحًا.. وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ!

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»[(١)].

وَلِهَذَا كان من عادة أهلِ الأعمالِ الصَّالحات؛ سؤال الله الثبات حتى المات، وتجديد التوبة كل يوم من كل ذَنب نعلمه أو نجهله، ومن روائع أدعية النبي ﷺ الجامعة في سجوده قوله: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»[(٢)].



(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٢٢١٤)، (١٩/ ٢٤٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٤٠٨).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١١٢)، (٢/ ٥٠). ومعنى دقه: أي الذنب الصغير.

أَقْسَامُ الخَاتِمَة

الخَواتمُ أقسامٌ ثلاثةٌ:

خَاتِمَةٌ حسنةٌ، وَخَاتِمَةٌ سيئة، وَخَاتِمَةٌ صَامِتَةٌ، وإليكَ مقتضبًا عن كلٍّ منها:

أولاً: الخاتمة الحسنة:

إن العبد المُوَفَّقَ الذي أسهر لَيْلَهُ على طاعةِ الله، وَأَتْعَبَ نهارَهُ في مَرضَاةِ الله، واعتاد فعل ألوان خاصةٍ من الطاعات؛ فَهَذَا يَجعَلُ اللهُ ميتَتَهُ من جنس طاعاته، حتى لَكَأَنَّ حياتَهُ اختُزِلَت فِي مَشهَدِ مَماتِه!

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧].

فهذه هي الخاتمة التي سألها أولو الألباب بِقولِهم: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وتضرع لأجلها التائبون في صلاتهم، واستغاثوا بها توسل به السحرة بعد سجودهم وإيمانهم، وتهديد فرعون لهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

حتى رأينا من يصدحُ ساعةَ موته بلا إله إلا الله.

أو ينشرُ حكمةَ الله؛ كَالشَّيخ «مُحَمَّد شَمْعَة» الذِّي جاءَتْهُ المَنِيَّةُ وَهُوَ يُلقِي مُحاضرةً يهتِفُ بِهَا في أَسْمَاعِ القَائمينَ عَلَى مَدرسةِ الأرقم بن أبي الأرقم بِغزة، فَبَعْدَ أَن أَثْنَى عَلَى رَبِّهِ ﷻ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، خَرَّ مَغْشيًا عَلَيْهِ، وَبَقِيَ عَلَى حَالِه هذه مِن يَوْمِ الثُّلاثَاءِ حَتَّى مَطْلَعِ فَجْرِ الجُمُعَةِ،ثُمَّ فَاضَت رُوحُه إِلَى بَارِيْهَا!!

وهذي جدتي «أم محمد، فتحية أحمد الأسطل» من أهل الخير والفضل، عرفها الناس صالحة ذاكرة، متصدقة صابرة، بل وراضية شاكرة، فقد ابتلاها الله في ختام حياتها بداءٍ ألزمها الفراش، لمدة زادت عن اثني عشر عامًا ما قالت فيها: أف، ولا اشتكت بجهر ولا بهمس !!

وفي ليلة السبت [١/ ١٢/ ٢٠١٢م] ومع بدء الثلث الأخير من الليل؛ حيث التنزل الإلهي إلى السماء الدنيا، استيقظت جدتي لتحصد غراس عمرها، فسألت جدي عن الفجر مرة بعد مرة، فيجيبها بعدم حضوره، لكنها تركت نومها، وبقيت تذكر ربها، حتى طلع فجرها، فهيأها جدي للصلاة، ثم أوصى حفيدته بولاية أمرها، وانطلق لصلاة الفجر بمسجد السلام، فلما أجلستها الحفيدة للصلاة التفتت جدتي قائلةً لها: أوصيك بجدك خيرًا، ثم افتتحت صلاتها، وما هي إلا ثواني معدودات حتى أمسك الله روحها وهي بين يديه؛ لتدرك جزمًا أن من عاش على شيءٍ مات عليه !!!

ثانيًا: الخاتمة السيئة:

وهذه الثلمة التي لا تُسَد، والكسر الذي لا يُجبر، بل هي المصيبة الكبرى، والداهية العُظمى.

هذه الساعة المخيفة التي تصنع فيك استقامة السيرةِ مع السريرة!

هذه الساعة التي خاف منها الصحابةُ حتى قال ابنُ أبي ملَيكة: أدركتُ ثلاثين من الصّحابة كلُّهم يخاف النّفاقَ على نفسه(١)!!

وعلى دربهم وريثُهم في خوفهم «سفيانُ الثوريُّ» الذي كان يشتد قلقُهُ منَ السَّوابِقِ والخَواتم حتى يقول باكيًا: أخاف أن أكونَ في أمِّ الكتاب شَقيًّا، أخافُ أن أُسلَبَ الإيمانَ عند الموت!!

رحم الله سفيان الثوري، فإن كلماتِهِ تَشُعُّ نورًا كَالقَمَر، إلا أنها مستمدة من شمس الرسالة النبوية، فقد أخرج الإمام ابن ماجه في سننه من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: **«اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»!**

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ، فَقَالَ: **«إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ﷻ يُقَلِّبُهَا»**(٢).

وفي حديث المسند قالت أم سلمة: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تُعَلِّمُنِي دَعْوَةً أَدْعُو بِهَا لِنَفْسِي قَالَ: **«بَلَى قُولِي: اللَّهُمَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ مَا**

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٢).
(٢) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٣٤)، ص (٦٣٢)، وقال الألباني: صحيح.

أَحْيَيْتَنا»[١]!

ثالثًا: الخاتِمةُ الصامِتة:

من الناس من يموت مِيتَةً عادِيَّةً؛ كَأَنْ يَموتَ على فِرَاشه نائمًا، أو يموتَ جالسًا أو ماشيًا، أو بِحادِثَةٍ مُرورِيةٍ، أو بِنَوبةٍ قَلبيةٍ، أو على أي هيئةٍ لا نستطيع جعلها خاتمةً حَسنةً بِإِطْلاقٍ، ولا سَيئةً بِإِطْلاقٍ، فَنَحْتكِمُ عِندئذٍ لِسَابِقِ حياته؛ لنرى حَسناتِهِ من سيئاته!

لَكِنَّ ألسنةَ الخَلقِ أقلامُ الحق!

فإذا زَكَّاهُ عَددٌ من أهل الفضل والصلاح والرَّحمة؛ فَعَسَى أن يَكُون خيرًا له.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي الأسود رضي الله عنه قال: قَدِمْتُ المَدِينَةَ وَقَدْ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، فَمَرَّتْ بِهِمْ جَنَازَةٌ، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا.

فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَجَبَتْ!

ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا.

فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَجَبَتْ!

ثُمَّ مُرَّ بِالثَّالِثَةِ، فَأُثْنِيَ عَلَى صَاحِبِهَا شَرًّا.

فَقَالَ: وَجَبَتْ، فَقَالَ أَبُو الأَسْوَدِ: فَقُلْتُ وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ؟

قَالَ: قُلْتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: **«أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ، فَقُلْنَا: وَثَلَاثَةٌ، قَالَ: وَثَلَاثَةٌ، فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ، قَالَ: وَاثْنَانِ، ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنْ الوَاحِدِ»[٢]!!**

وَبِهَذَا تعلم أن خُلُوَّ العبدِ من أمارات حسنِ الخاتمة لا يدل على سُوئها، وعدمِ فضلِهَا، وما على المُوَفَّقِ من العباد إلا الاشتغَالُ بِذَاتِهِ عن إخوانه؛ لِيَلقَى الله على خَيرِ أَحيانه.

---

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (٢٦٥٧٦) (٤٤/ ٢٠٠).
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٣٦٨)، (١/ ٣٠٠).



المبحث الثاني

مَنْ عَاشَ عَلَى الطَّاعَةِ مَاتَ عَلَيْهَا



مَنْ عَاشَ عَلَى الطَّاعَةِ مَاتَ عَلَيْهَا

أَوْرَدَ عبدُ الرزَّاق الصَّنعانيُّ فِي مُصَنَّفِهِ أن طاووس التابعي كان يَتَحَرَّى الساعةَ التِّي يُستجابُ فيها الدعاء من يوم الجمعة بعد العصر، وبقي على هذا حتى فارق الدنيا، فأماته الله على ما عاش عليه!

قال ابنه: مات أبي في ساعةٍ كان يُحِبُّهَا، مات يومَ الجمعة بعد العصر!!

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديثِ عبدِ الله بن عَمْرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»!!

وزاد عبد الرازق في مُصَنَّفِهِ: «وَكُتِبَ شَهِيْدًا»!!

وَمِنَ الذِّيْنَ عرفتهم:

أبو عبد الله، فوزي جبر الأغا، من عُمَّار مسجد جعفر بن أبي طالب بمدينة خان يونس جنوب قطاع غزة، فقد ألفيتُهُ رَجُلاً صَالحًا، يُحِبُّ العِلْمَ وَيُكْثِرُ من السؤال عنه، ويتحرى الصِّدْقَ فِي فِعْلِه وَقَوْلِه.

وفي ساعة إجابةٍ دعا ربه عز وجل أن يرزقَهُ زوجةً صالحةً، ثم ينجب ولدًا؛ فيسميه «عبدَ الله»، واستجاب الله دعاه، فَتَزَوَّجَ وأنجب ولدًا سماه «عبد الله» ثم قبضه الله إليه، وقد أمسك روحه في لحظةٍ قلَّ أن يموت فيها أحد!!

لقد كان الرجل صائمًا يوم الخميس، وبعد أذان المغرب أفطر بتَمَراتٍ؛ إعمالاً لسنة النبي ﷺ، وهو في طريقه إلى المسجد شاء الله عز وجل أن يُصَاب بِحَادثٍ مُرُورِيٍّ مات فيه؛ لِيَمُوتَ بَعْدَ صَوم، وفي مُفتَتَحِ ليلةِ الجمعة؛ كرامتان لهذا الرجل الصالح من الله عز وجل؛ ليموت على ما عاش عليه!!

أُنْمُوذَجٌ مُتكاملٌ مُذهل:

أَذْكُرُ أنني سَمِعْتُ أحدَ الدعاة يومًا يتكلم عن الشيخ عبد الله عزام، فلما عَرَضَ مشهد خاتمتِهِ هَزَّنِي مَقَالُهُ هَزًا عَنِيفًا أَجِدُ أَثَرَهُ في قلبي إلى الآن، وما كتابنا هذا إلا ثمرةُ تلك الهَزَّةِ العَنِيفَةِ،

وإليك طَرفًا من سيرتِهِ المُنِيفَةِ، وخاتمتِهِ العجيبةِ اللطيفةِ..

خرج الشيخ عبد الله عزام من فلسطين إلى الأردن، وانضم لِرَكْبِ المُجَاهدين في سبيل الله.

سَجَّلَ الشيخُ محمد نُور شهادته حول صُحبةِ الرَّجُل، جاء فيها: جالست الشيخ في قواعد المجاهدين؛ فَأَلْفَيْتُهُ من خِيَارِ عِبَادِ الله الصالحين، تَذْكُر اللهَ لِرُؤيَتِه، وَتَفْرحُ لِمَجْلِسه، وما وجدت له نظيرًا في حياتي، بل لو سمعت أن أحدًا مات حَزنًا عليه ما كان بَعيدًا عندي، وَلَيتَنِي كنت ذاك الأحد[1]!

وَزَكَّاهُ الشيخُ الدكتور عبدُ الرحمن عبد الخالق بِقَولِهِ: عرفتهُ طالبًا مُجِدًّا مُجتَهِدًا، في الوقت الذي لا يتحرك إلا وسلاحُهُ معه، عرفتهُ في قواعد المجاهدين فارسًا للسَّيفِ والقلم والمنبر والمحراب، وَيَنْدُرُ أن تجتمع خصالُهُ في رَجُلٍ واحد[2]!

وهكذا انتظَمَت حياتُهُ في رِحَابِ العِلْمِ والعِبَادَةِ والجِهَادِ والدَّعْوة؛ لتأتي خاتمته وَفق الذي عاش عليه، وإليك البيانَ والبُرهانَ:

أولاً: عِلْمُه:

فَإِنَّ الشَّيخَ فَقِيهٌ أَزْهَرِي؛ إذ مُنِحَ درجةَ الدكتوراة في أصول الفقه من الأزهر الشريف بِمِصْر.

ثانِيًا: عِبَادَتُه:

كان الشيخ يحفظ كتابَ الله عن ظَهْرِ قَلب، وَقَلَّمَا رُئِيَ إلا والمُصحفُ بِيَدِه، يتلو كتابَ رَبِّه، قَائمًا وَجَالسًا وَعَلَى جَنْبِه!!

كَما كان من أهلِ الصيام والقيام، والعَمل بِسُنَّةِ سيد الأنام ﷺ، بل كَان من أَحْرَصِ خَلقِ الله على اتباع هَدْيِه شِبرًا بِشِبْرٍ، فَالسُّواكُ لا يفارقُهُ، وَكُلَّمَا عَلِمَ سُنَّةً بَاتَ مِن أَهلِهَا[3]!

ولله دَرُّ الدُّكتور أحمد نوفل الذي أَنْصَفَهُ بِقَولِهِ: لقد كان الشيخُ -والله- اسْمًا على مُسَمَّى؛ إذ اجتمعت له العبادةُ والعزم، فَسُبْحَان الذي اختار له الاسم، واختار له المُسَمَّى!!

(١) حسني جرار / عبد الله عزام رجل دعوة ومدرسة جهاد ص (٢٦).
(٢) السابق ص (٣٢١).
(٣) السابق ص (٣٠٨-٣١٠).

أخي..

إنْ أُعجِبتَ بِظَاهِرِ سِيرتِه؛ فَأَزِيدُكَ بيتًا من سَرِيرتِه!

قال الشيخ طارق سويدان: سافرت لِحُضُور مؤتمرٍ إسلاميٍّ بِأَمريكا، وبينما أنا أحمل بَعْضَ أَمتِعَتِي لأَنَام؛ وإذ بِشَيخِ المجاهدين في أفغانستان عبد الله عزام يَصِل، فاصطحبتُهُ لِيَنامَ معي في غرفة الشيخ عمر الأشقر.

وما إن جالسناه حتى تبين لنا أنه قَدِمَ من باكستان إلى لندن، ثم إلى نيويورك وبعدها إلى أكلهوما، وأنه من يومين كاملين يتردد بين المطارات دون أن يَنَام لحظةً، ولذا شَرَعَ في النَّومِ مُباشَرةً.

استيقظت بعد ساعتين فَوَجَدْتُ الشيخ في مَشْهدٍ لا أَنْسَاه، مَشهدٍ ما أبهاه، وما أحلاه، لقد وجدت الشيخ قائمًا يتهجد من الليل، رغم كل هذا التعب والسَّهَر، الذي لو أصابنا بعضُهُ ربما رَخَّصْنَا لأنفسِنَا النَّومَ عن صَلاةِ الفَجْر!

وَإذا تهَجّدَ في الظّــلامِ فحَسْبُـهُ ... من نُورِ غُرّة وَجْهِـهِ قِنــــديلُ

هذا هوَ الشرفُ الذي لا يدعى ... هَيهـاتَ ما كُلّ الرّجالِ فُحُـولُ

قُلْتُ:

سُبحانَ الله، إذا أَحبَّ الله عَبدًا أَوقفه بين يديه، وَلَو كَان من أَشَدِّ الناس نَصبًا وَتَعبًا، وَكَأَنَّ الملائكةَ تقولُ لَهُ: قُم؛ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يَسمَعَ صَوتَك!!

وَكَأَنِّي بِالشَّيخ عَزَّام يُذَكِّرُنَا بِهَدْي سلفنا الصالح الذين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، حتى قال أحدُهُم: نَقُومُ اللَّيلَ وَلا يَكفِينَا!! فَخَلَفَ من بَعدِهِم خَلْفٌ يقُولون: نَنَامُ اللَّيلَ ولا يكفينا، حتى رأينا في زماننا هذا من يَنَام اللَّيلَ كُلَّه، وما إنْ يُصَلِّي الفَجْرَ حَتَّى يعودَ إلى النَّومِ، وربما ما قام من الليل ركعةً!!

حبيبي في الله..

يَأْتِيكَ مِلكُ الملوك في الثلث الأخير من كل ليلةٍ؛ لِيَسمعَ شَكواك، ويصعد إليه بُكَاك، وترتفع

إليه نَجْواك، بَلْ والله ما نَزَلَ إليك؛ إلا لِيَتُوبَ عليك، ويَغفرَ لك، ويقضي حاجتك، ويُجيب دَعوَتَك!

فَكَيفَ يَترُكُ عَاقِلٌ موعده مع الملك؟!

يا نائماً عن قيام الليل، يا غارقًا في ثنايا السَّيل، ضَجَّ الليلُ من كثرة منامك، واشتكى الفراش من كثرة رقادك، وتعجبت الحورُ من قسوة جفائك، وبكى الحفاظ من فوات أرباحك!!

فَأَحِبَّ من يُحِبُّك، واشتغل بِمَن يشتاقُ إليك، وَقِفْ بين يدي مولاك لحظةً عَسَاكَ تُفْلِح؛ فَفِي لَحَظَةٍ واحدةٍ أَفلَحَ السَّحَرَةُ، وأحرزوا الدرجات العلى[1].

إذَا عَرفتَ هَذا؛ فَإِيَّاكَ أن تضع رأسك على الوسادة؛ حتى تُصَلِّيَ قسطًا من العبادة، ولو رَكْعتَينِ بِآيَاتٍ عَشَرة؛ لِتَطْرُدَ من قلبك الغَفْلَة!

فَقَدْ أَخرجَ أبو داود في سننه بِسَندٍ صحيح من حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ»[2].

أَمَّا لو طَلَعَ عليك صَباحُ الفَجرِ دُونَ حَظٍ مِن قِيَامٍ أو تَهَجُّد؛ فما زلت في غَفلَةٍ وطُولِ مَرقَد!

ثَالثًا: دَعْوَتُه وَعَمَلُه:

أَلَّفَ الشَّيخُ عَزَّام [١٧] كتابًا طُبعت كلُّها، وأخرى لم تطبع قريبًا منها، كما وطابت بمحاضراته المساجدُ والجامعات، وسعدت بندواته الجلساتُ والأمسيات، حتى بلغ تراثه الصوتي المسجل [٣٠٦] محاضرة ألقاها في عدد من الدول الإسلامية والأجنبية، و[٥٠] محاضرةً مرئيةً، فضلاً عن مئات المقالات والمقابلات المنشورة في الجرائد والمجلات[3].

إلا أن لِسَمته الدعويِّ صِبغةً فَرِيدَةً، جديدةً تليدةً مجيدة!

قَال الأَخُ مُحَمَّد عبد الله صديقي أحدُ تلامذته: لقد كان الشباب يَلْتَفُّونَ حَولَهُ؛ لِمَا لِكَلامِهِ نَوعُ

---

(١) خالد أبو شادي / صفقات رابحة ص (٧٦).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٩٨) ص (٢١٨)، وقال الألباني: صحيح.
(٣) محمود سعيد عزام / شيخي الذي عرفت ص (٢٣٥)، حسني جرار / عبد الله عزام رجل دعوة ومدرسة جهاد ص (١٤٤)، وقد ذكرها المؤلف، فمن أراد أن يبسط له في علمه فليطالع الكتاب.

جَاذِبِيَّةٍ؛ لأنه رَجُلٌ كان يقول، وَيَعمَلُ بِكَلامِه[١]!!

وهو من سَبَكَ اللافتة التربوية الجهادية الذهبيةَ التي كُتِبَ عليها:

إنَّ مَقَادِيرَ الرجالِ تُعرَفُ فِي مَيادينِ القِتَال، لا عَلَى مَنَابِرِ الأَقوَال!!

أخي وَلِيَّ الله..

إن العبد المُوفقَ من يَمُنُّ اللهُ عليه بِكَلامٍ يَعْقُبُهُ عملٌ، وإلا فَالأَمْرُ كَمَا أخرج المُنذري بِسَندٍ حَسنٍ من حديثِ جُندب بن عبد الله الأزديِّ أن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الَّذِيْ يُعَلِّمُ الْنَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، كَمَثَلِ الْسِّرَاْجِ يُضِيْءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ**»[٢]!!

وَلِهَذَا قرع الصِدِّيقُ رضي الله عنه سَمْعَ الكَسولِ الفَاتِرِ بِقَولِهِ:

ما تَركْتُ شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عَمِلْتُ به[٣]!!

وَرِثَ عَزائِمَ الصِدِّيق الإمامُ أَحمد بن حنبلٍ الذي كَان يحفظ أَلْفَ أَلْفَ حديث [١٠٠٠٠٠٠]؛ لِيُكْمِلَ مِشوَار فَضِيحَةِ الكُسَالى البَطَّالين بِنَارِ قَولِه:

وَاللهِ مَا كَتَبْتُ حَدِيثًا إِلَّا وَعَمِلْتُ بِهِ!!

حتى مَرَّ بي أنَّ النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فاحتجمت وأعطيت الحَجَّامَ دِينارًا[٤]!!

تصدى له تلميذٌ فَطِنٌ قائلاً له: لقد رويتَ حديثَ مَبيتِ النبي ﷺ في الغار أيامًا ثلاثة، فَكَيفَ عَمِلْتَ به؟!

فَرَدَّ قائلاً: لما اشتدت فتنةُ القول بخلق القرآن، ذهبت إلى غار كذا في جبل كذا، وبِتُّ فيه إعمالاً لسنة سيدنا رسول الله ﷺ!!!

فَهَل أَدْرَكت مَسلك الوُصُول؟ أَم مَا زِلْتَ فِي بَحرِ رِقَادِكِ ذَائِبًا مَبلُولاً، مَحرُومًا مَخذُولاً؟

(١) حسني جرار / السابق ص (٣٤٠-٣٤١).
(٢) المنذري / الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (٣٥١٣)، (٣/ ١٦٦)، وقال الألباني: صحيح.
(٣) الصلابي / أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره (٣/ ١٧٨).
(٤) الذهبي / سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٦).

والله لو عَمِلْتَ بِعُشْرِ ما تسمع من العبادات المستحبةِ الأقوال منها والأفعال؛ لَكَانَ الحَالُ غَير الحَالْ، وهذا ما وعظك به فقيه الشافعية ابن رسلان الرملي في زُبَدِه، هاتِفًا بِكَ ناصِحًا:

فَاعْمَل وَلَو بِالعُشْرِ كَالزَّكَاةِ ... تَخْرُج بِنُورِ العِلْمِ مِن ظُلْمَاتِ
فَعَامِلٌ بِعِلْمِهِ لَم يَعْمَلَنْ ... مُعَذَّبٌ مِن قَبلِ عُبَّادِ الوَثَنْ
وَكُلُّ مَن بِغَيرِ عِلْمٍ يَعْمَلُ ... أعمالُهُ مَردُودةٌ لَا تُقْبَلُ
والله أَرجُو المَنَّ بِالإِخلَاصِ ... لِكَي يَكُونَ مُوجبَ الخَلاصِ[1]

رَابِعًا: جِهَادُه:

كان الشيخ عزامٌ شيخَ المجاهدين في أفغانستان، خاصةً بعد أن ترك التدريس في الجامعة الإسلامية بِإسْلام أَباد، وَتَفَرَّغَ كُلِيَّةً للجهاد، فضلاً عن أَنشطته الإعلامية، والاجتماعية، والصحِيَّة[2]، وهو مَنْ قَال يومًا:

كَمْ أدعو الله أَلَّا يحرمني الجهاد؛ فَإِنَّهُ نعمةٌ تُفْقَدُ بالغفلة والذنب وضعف الإخلاص، وإني لا أُطِيقُ أن يمرَّ بِمُخَيلتِي العَوْدُ للحياة الناعمةِ من الإفطار، إلى الغداء، إلى العشاء، ثم المنام!!

وكم أَجِدُ ضيقًا يفتك بِصَدري، بل تكاد تموت نفسي إذا غادرت ساحةَ القتال؛ لزيارة الأهل ولقاء المُحبين، فوالله إن فراقَ المُجاهدين حَزَنٌ وَهَمٌّ، فَمَا الحياةُ إلا بينهم، والجهاد لي كَالمَاء للسمك، فإن لم أجاهد أَمُتْ، لكني ألتقي بكم طمعًا في تجنيد بعضِكم، فأنا كَصَيَّادِ السمك، وكلما تمنى علي حَبيبٌ إطالةَ الزِّيارة قلت: لا أُطيق فراق أرض الجنة وعُشَّاقِ الحُور[3]!!

وَلِهَذَا لما تَقَدَّمَ مُجاهدٌ يُدعى «أبا يحيى» لِخِطْبَةِ ابنته سَأَلَهُ الشَّيخُ: أَتَعرِفُ كم مهرها؟

فقال: إليك المبلغَ الذي تُرِيد!

فَرَدَّ عليهِ مُبتَسِمًا: مَهْرُ ابنتي أن تَحمِلَ راية لا إله إلا الله، وتُجاهدَ في أفغانستان!!

---

(١) ابن رسلان/ صفوة الزبد (متن فقهي) أبيات المقدمة.
(٢) حسني جرار/ الشيخ عبد الله عزام، رجل دعوة ومدرسة جهاد ص (٢٤).
(٣) عبد الله عزام / كلمات من النار ص (٢٢٤).. وانظر الكلمة المرئية على الرابط:
http: / /www.youtube.com /watch?v=iqvbvulIZHM

وَلَمَّا خُطبت ابنتُهُ الأُخرى راح يُشَوِّقُها بِذِكْرِ مُؤهلات العريس، قال لها: إنه يا ابنتِي يَحمِلُ شهادةً عُليَا لا تُعادلها أَيَّةُ شهادة، إنَّهُ يَحمِلُ شهادةَ سَنواتٍ خمسةٍ في الجهاد شَمالَ أَفغَانِستَان(١)!!

إخوتاه..

تأملت حياة الشيخِ عَزَّامٍ؛ فَشَعَرْتُ أَنَّهُ مَا أُكرمَ بهذه الرتبةِ إلا بعد أن نَزَعَ حَظَّ نَفسِهِ مِن لُبِّه، والدُّنْيا مِن قَلْبِه!

أما نَزْعُ حَظِّ الذات؛ فإن الشيخ كان منتجًا يشتغل بالواجبات، مُقلاً من المباحات، لا يكترث بمن ينال من شخصيته، أو يَخْدِشُ سيرته!

وصله في أحد الأيام منشورٌ ينال منه، كتبه شابٌ ساخطٌ عليه، فعرضت زوجته عليه أن يقرأه ويرد عليه، فأبى العرض، وتلا قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧](٢)!!

وكم أتاه المجاهدون بِمَقالاتٍ تُشَوِّشُ سِيرَتَهُ لِيَرُدَّ عليها، فيقول لهم: والله ما عندي وقتٌ لِقِرَاءتِهَا فضلاً عن كتابة رَدٍّ عليها!!

وإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وهذا ما يليق بِاللَّبيبِ فِعلُه، أما لو شُغِلَ بِقُطَّاعِ الطُّرُقِ لِيَسْتَوفِيَ حَقَّ نفسه؛ فقد فاته قِطَارُ الإنجاز، وقليلاً من الخير ما حَاز، فكيف لو عَقِلَ أن عمره الحقيقيَّ في لغة ابن القيم ما كان فيه مُقبِلاً على ربه، لا يلتفتُ عنه بِقَلْبِه، وما سوى ذلك فهو فيه في سُبَاتٍ، بل من جُملةِ الأَمْوات!

أما نزع الشيخ للدنيا من قلبه؛ فإنه لم يكن يكترث بها قط.

عاد يومًا إلى بيته بعد سفرٍ طالت فيه غَيبَتُه، فَوَجَدَ زوجته قد هيأت للضيوف [٣ فرشات اسفنج]، فقال الشيخ: والله إني لأكره ذلك، وما زالت نفسي إلى الآن تضيق بها(٣)!!

---

(١) حسني جرار/ الشيخ عبد الله عزام، رجل دعوة ومدرسة جهاد ص (٥٢).
(٢) حسني جرار/ السابق ص (٣١).
(٣) حسني جرار/ السابق ص (٢٩-٣٠).

قلت:

لَقَدْ ترك الشيخُ كثيرًا من المباحات لَمَّا تفرغ بِكُلِّيَتِهِ للواجبات؛ لِنَقِفَ عند علاقتنا بالدنيا طويلاً؛ لئلا تحتل من قلوبنا جزءًا كبيرًا.

زرت أخًا لي؛ فألفيت بيته كأنه جنةُ الدنيا، فقال لي: كُلفة بيتي [٨٥ ألف دولار]، منها [٥٠ ألفًا] استدنتها!

فَخَرَجْتُ من عنده أسأل نفسي: كيف سَيَسْتَعِدُّ هَذَا لِيوم القِيَامَةِ؟

أما يخشى المَمات قبل براءة ذِمَّتِهِ من دُيُونِهِ المُتَرَاكِبَةِ؟!

أخي..

إن المشتاق لِخَاتمةٍ فَاخِرَةٍ، ما ينبغي أن تَشْغَلَهُ دُنيا عن آخرة، بل عليه أن يستنير بِهَدْيِ السَّلف؛ لِيَكُون من أَصْفِيَاءِ الخَلَفِ، وَإِليك سبيلَ مفاخرِ الخواتم:

إن سياق سورة البقرة قائمٌ على إِرْسَاءِ مَنهجِ الله في الأرض، بِنَزْعِ إمامته عن أهل الكتاب الذين أضاعوه، ومنحِهِ للنبي ﷺ وصحبه الذين أَقَامُوه.

ولذا؛ افتتح الله جلَّ وعلا السورةَ بِذِكْرِ صِفَاتِ جِيلِ التأسيس؛ فإنهم الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رزقهم الله يُنْفِقُونَ، هذا مع إيمانهم بما أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قبله وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، عندها عَقَّبَ عَلَيهَا ربنا بِقَولِه:

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥].

رسالة الآية:

إِنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَضَعَ الإيمانَ بِمَا فيه من صَلاةٍ وَدَعْوَةٍ وَجِهَادٍ وَصَدَقَةٍ ونحوها في كِفَّةٍ، ووضع الهدى والفلاح فقط في الكِفَّةِ الأخرى!!

فأنت تلحظ أن الله تعالى لم يَعِدْ صَفْوَتَهُ من عباده هنا مالاً ولا طَرفًا من مغنمٍ؛ لِيُجَرِّدَ قُلُوبَهم من كل شَائِبَةٍ تُعَكِّرُ صَفْوَ إخلاصهم، وتمامَ مُهِمَّتِهِم.

ثم إن حَصَلَ لَهُم حظٌ من دُنيا؛ فهذا مَحْضُ فَضْلِ اللهِ عليهِم، وليس جزاءً على طَاعتهم؛ ذلك

أنَّ صفقتهم وقعت ابتداءً على هدى من ربهم في دُنياهم، وفلاحٍ عند مماتهم، ونعيمٍ في أُخْرَاهُم، أما الدُّنْيَا فلا حُضُورَ لها، ولا ظُهور لأَهْلِهَا!

ولَعَلَّهُ اتضح لك بعد التأمل؛ أن من أراد ختامًا فاخرًا؛ فعليه ألا يُعطِيَ الدنيا أَكْبَرَ من حَجْمِهَا، وَلا يُنْفِقَ فيها أَزْيَدَ من ثَمَنِهَا، بل عليه أن يأخذ القَدْرَ الذي يُوصِلُهُ إلى خَاتِمَةٍ ذهبيةٍ، وَسَعادةٍ أُخْرَوِيَّةٍ سَرْمَدِيَّة.

تَفاصِيلُ اليومِ الأَخِير:

أَنجز الشيخ صِيغَةَ اتفاقِ المُصَالَحَةِ بين الحزب الإسلامي بِقِيَادةِ «حِكْمَتْيار»، والجمعية الإسلامية بإمامة «بُرهان الدِّين رَبَّانِي»، فَوَقَّعَ عليها حكمتيار، وانطلق الشيخ لِيُوَقِّعَهَا من رَبَّانِي، فَحَاولَ إخوانُهُ إقناعَهُ بِتَأْجِيلِ الموضوع إلى الصباح؛ إذ الساعة تَشْرُفُ على الثانية ليلاً، فأبى قائلاً: خَيْرُ البِرِّ عاجِلُه!

فَذَهبَ إليه، وأيقظه من نومه، ثم وقعها على ضوء سيارته؛ لِيَنْطَلِقَ مؤتمرٌ كبيرٌ في صباح اليوم التالي بِالعَاصمة الباكستانية إسلام أباد؛ لإعلانِ الصلحِ بين القادة، ثم عاد الشيخُ إلى بيته، بعدما اتفقت لجنة الصلح على لقائه بعد صلاة الفجر.

قالت زوجته أُمُّ مُحَمَّد: وصل الشيخُ إلى البيت الساعةَ الثانية ليلاً، فَنَامَ من فوره، ثم استيقظ قبل الفجر يتهجد حَظَّهُ من اللَّيل، ثم أيقظنا لِصَلاةِ الفجر، وَصَلَّى.

وَكَان ولدُنَا محمدُ قد توجه إلى الأردن للزَّواج، وشاء الله أن يَصِلَ اللَّيلَةَ؛ فَاتَّصَلَ الشَّيْخُ باللَّجنةِ معتذرًا لهم بقوله: وصلت البيت؛ فَوَجَدْتُّ ولدي محمدًا وزوجته قد وصلا، وليس عندي وقتٌ ألتقي بهما إلا الآن، فاجعلوا لقاءنا في المؤتمر بعد صلاةِ الجُمُعَة.

ثم جمع أفراد أسرته، فقرأ عليهم المأثورات، ثم جعل لكل واحدٍ حظًا في تلاوة سورة الكهف، وَكَانَ يَشْرَحُ لهم كلماتها الصعبة، وبعضَ أحكام التجويد، ثم كَلَّفَ أولاده بِإِعْرَابِ بعضِ الكلمات!!

ثُمَّ جَلَسَ يُحَدِّثُهم ويُمازحهم، وَكَأَنَّهُ احتفالٌ مُصَغَّرٌ بِمُنَاسَبَةِ زواج ولده الأكبر محمد، حتى أفطر ونام قليلاً، ولما استيقظ قام يُحَضِّرُ خطبةَ الجمعة، ثم ارتدى ملابسه الجديدة التي أحضرها

محمد، فقالت له زوجةُ ولده: لبست جديدًا، وعشت سعيدًا، ومِتَّ شهيدًا!!

فابتسم الشيخ قائلاً لها: إن شاء الله تعالى، والعجيب أنه لم يكن يفصل بين هذه الكلمات والشهادة إلا دقائقُ خمسٌ.

ثم خرج من البيت برفقة ولديه محمد وإبراهيم، وأثناء توجهه لِخُطبةِ الجمعة اغتيل بِتَفجيرِ سيارته!!

أدلى شاهد الحادث بشهادته قائلاً:

تطايرت أشلاء ولديه على أغصانِ الشجر، وصفحات الجدران، على بُعد [١٠٠] متر، أما الشيخ فإنه طار في الهواء، ثم نزل على هيئة السجود تجاه القبلة لله رب العالمين، دون أن يُصَابَ جَسَدُهُ بأي أذى، فَظَنَنْتُهُ يَسْجُدُ شُكْرًا لله، فَلما طَالت سجدتُهُ حَرَّكْتُهُ، وإذا به قد فارق الحياة، راحلاً إلى الله[١]!!

خُذْ يَا إِلَهِي مِنْ رُوحِي ومـن بدنـي	خذ يا إلهي من جُرحي ومن شَجَني
خذ من حياتي ما يرضيك مرخصةً	ففي رضـــاك إلهـي أعظـمُ المِنَـنِ
إن العقيـــدة أغلـى مـن جماجمنا	وكـل أمـــرٍ نفيـسٍ دونهـــا يَهُـنِ

رسالة القصة:

إنَّ اللهَ أَمْسَكَ رُوحَ الشَّيخِ وَفق الذي عَاشت عليه، فَجَاءَت خَاتِمَتُهُ كما صَنعَهَا لِنَفْسِهِ!!

فَلَمَّا عُرِف بِصَلاحِهِ وخيرته؛ أكرمه الله بِالمَوْتِ فِي يَومِ جُمُعَة.

ولما عاش الشيخُ داعيةً إلى الله تعالى بإذنه؛ قُتِلَ في طريقه لِمنبَرِ الجمعة يَعِظ الأُمَّة، وَيَنْشُرُ الحِكْمَةَ!!

ولما كان مُجَاهدًا قبضهُ اللهُ سبحانه شهيدًا[٢]، نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله جلَّ وعلا!!

---

(١) محمود عزام/ شيخي الذي عرفت ص (١٩٢-١٩٤).

(٢) لا نجزم لأحد من العباد بالشهادة، إلا من شهد له النبي ﷺ بذلك كعمر وعثمان، لكننا نسأل الله أن يجعل الشيخ عزام من أئمة الشهداء في سبيل الله ﷻ.

وقد قال الشيخ عائض القرني: رأيته في بلاد الكفر يتحدث عن عظمةِ الإسلام وقوته، ودموعه تسيل من لِحْيَتِهِ، حتى خَتَمَ كلامَهُ بِقَولِهِ: أسأل اللهَ جلَّ وعلا أن يرزقني الشهادة في سبيله!!

وَلَمَّا كَان صَوَّامًا قَوَّامًا عابدًا، أماته الله شهيدًا ساجدًا!!

حَبيبي في الله..

قد يتمنى أَحَدُنَا أن يموت ساجدًا فَيَمُوت، أو شَهِيدًا فيقتل، لكن أن يُختمَ لعبدٍ كَشَيخِنَا بعد إصلاحِ ذات بَيْنٍ، وَقِيَامِ لَيْلٍ، وتَعلِيْمِ أَهْلٍ، وتلاوةِ قُرآنٍ، في يَومِ جُمُعَةٍ، في طريقه لِخُطْبَةِ الجُمُعَةِ، ثم يرتقي شهيدًا، ويهبط ساجدًا؛ فو الذي نفسي بيده لخاتمتُهُ هذه من أَنْدَرِ النهايات الحُسْنَى في بَنِي البَشَر!!

وَمَا أَطَلْتُ التَّفصِيلَ؛ إلا لِتُدْرِكَ -أُخَيَّ- أَنَّ مَن عَاشَ عَلَى شَيءٍ مَات عَلَيه، بل لَكَأَنِّي بِكَ تَلحَظُ أنَّ الشيخ ما فعل خيرًا في سريرةٍ أو علانيةٍ؛ إلا وكان حاضرًا في مَشْهَدِ وَفاتِه، رحمه الله رحمةً واسعة.

وبعد.. فَلا بُدَّ من وَقفةٍ أَمامَ هَذِه الشخصية التي فَهِمَت الإسلامَ حقًا.

إنَّ العُلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما وَرَّثُوا العِلْم، فَمَن أَخَذَ بِالعِلْمِ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ.

وإنَّ نبينا ﷺ قد وَرَّثَنا تَركَتَهُ كاملةً، فمن تَأَمَّلَهَا أَلْفَاهُ عابدًا زاهدًا، قائدًا مجاهدًا، مُعَلِّمًا مُرَبِّيًا، كان يُطَبِّبُ صحابته، ويعلمهم الأمنَ، والسياسةَ، والقتالَ، والاجتماعَ، ونظرياتِ الاقتصاد، وأصولَ الحُكْمِ والقضاء، وكلَّ ما يهم الجماعة المسلمة في إعداد نفسها؛ لإنْجَازِ أعباء الخلافة في أرض الله!!

فَكُلُّ من أَتَى من أتباعه لا يكون وريثه إلَّا بِالقَدْرِ الذي عَمِلَ بِه.

وهذا ما انبرى ابن عثيمين لبيانه بقوله:

ليس كُلُّ عالمٍ وارثًا للنبي ﷺ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ من الإرث بِحَسب اجتهاده؛ فمن قَوِيَ في العِلْمِ دُونَ العِبَادَةِ، أو تميز فيها دون الدعوة إلى الله أو الجهاد؛ فهذا له من الإرثِ النبويِّ نَصِيبٌ مُحَدَّدٌ؛

ذلك أن الوِرَاثَةَ لا تتحقق إلا بِإرْثِ جَمِيعِ المَوْرُوث[١].

إخوتاه..

إن من سَمَا عزمُهُ إلى الكمال البشري عَليه أن يَحُوزَ دَمعةَ المُتَهَجِّد، وَوقَارَ العَالِم، وانتباهَ الفقيه، وَرَأْفَةَ الوَالِد، وَحَياءَ العَذْرَاء، وَحدَسَ السِّيَاسِي، وَلَبَاقَةَ المُنَاظِر، وَشَجاعةَ المُقَاتِل؛ ليكون قدوةً كاملةً لِعِبَادِ الله، يَدُلُّهُم على الله، نَاشِرًا حكمة الله.

فَإِنَّنَا بِصَرَاحَةٍ بَالِغَةٍ لا نَرتَضِي عَالمًا جبانًا، أَو عَابِدًا بَخِيلاً، أو مُجَاهِدًا جَاهِلاً، إِنَّمَا فَخَامَةُ الْقَدْرِ؛ تتجه لمن تجتمع فيه أكثرُ خصال الخَير؛ ليكون بِحَقٍ قدوةً ونصفًا -كما يقال-.

وإن من تأمل شخصية الشيخ عزام يَجِدْهُ قد أَنْجَز شوطًا كبيرًا مِنْ ذِرْوَةَ المعالي في مَرَاتِبِ الكمال البشري، وإني لأحسبُهُ ممن صَنَعَهُم اللهُ عَلَى عَيْنِه؛ فَاسْتَعْمَلَهُم لِنُصْرَةِ دِينِه، وَإِبْلاغِ دَعْوَتِه؛ فقد كان عابدًا عاملاً مربيًا زاهدًا، منفقًا كريمًا عالمًا مجاهدًا، ولله دَرُّهُ إذ يَقُولُ فِي كَلَامٍ بَدِيع، عَجِيبٍ رَفِيعٍ:

إنَّ خَيرَ رِجَالِ الأمةِ من يَخُطُّونَ تاريخها بِخَطَّين؛ خَطٍّ أسود وهو مِداد العَلماء، وَأَحمر وَهُوَ مِدَاد الشهداء!

ومَا أَجْمَلَ أن يكونَ الدم والمِدَادُ واحدًا، والرِّيشَةُ واحدة؛ لِتكونَ يَدُ العالِمِ التِّي تَبْذِلُ المِدَادَ وتُحَرِّكُ القَلمَ، هي اليدُ نفسها التي تبْذِلُ الدِّمَاءَ وَتُحَرِّكُ الأمَم!!

أخي..

إن عَجَزْتَ عن جَمْعِ خِصَالِ الخير كُلِّهَا؛ فاعرف كُلَّ شيءٍ عن شيء، وشيئًا عن كُلِّ شيء!

أي: تصدى لِثَغْرٍ تَسُدُّ ثُلْمَته، كَدَعْوَةٍ أو عِلْمٍ أو جِهَادٍ؛ لِتَنْفَعَ دِينَكَ وَأُمَّتك، فَإِنْ ذُكِرَ ثَغْرُكَ ذُكِرْتَ معه، وإن ذُكِرْتَ ذُكِرَ مَعَك، ثم نِلْ من كُلِّ علمٍ نصيبًا؛ فَتُصْبِحَ مُثقفًا في كل شيء ولو بِالقَلِيل؛ لِتَكُونَ خيرَ مُنَظِّرٍ لإسلامنا الجَلِيل!

---

(١) ابن عثيمين / شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص (١٧/ ١٨).

إِذَا أَحَــبَّ اللَّهُ عَبْــدًا عَسَلَهُ

أخرج الإمام أحمد في مسنده بِسَندٍ صحيحٍ من حديث سريج رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عز وجل بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ[١]!

قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ: يَفْتَحُ اللَّهُ عز وجل لَهُ عَمَلاً صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ[٢]!

وفي روايةِ المنذري بِسَندٍ صَحيحٍ: «يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلاً صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ» أَوْ قَالَ: «مَنْ حَوْلَهُ»[٣]!

وأخرج السيوطي في جامعه بِسَندٍ صَحيحٍ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا طهَّره قبل موته! قيل: وما طُهور العَبْد؟ قال: عمل صالح يلهمه إياه حتى يقبضه عليه»[٤]!

رسالة الحديثين:

إِنَّ اللهَ جَلَّ وعلا إِذَا أَرَادَ بِعَبدٍ خيرًا، وَفَّقَهُ لأعمالٍ صالحةٍ يموت عليها، حتى يصبح له ثناءٌ طَيِّبٌ حسنٌ، يُشْبِهُ العسل في لَذَّتِه، وحُسْنِه وحَلاوَته.

أَذْكُرُ أَنَّ الشيخَ زُهير القيسي الأمين العام لألويةِ النَّاصِرِ صَلاحِ الدِّيْن المُتَّهَم بِتَنفيذِ عِدَّة عملياتٍ ضِدَّ العدو الصهيوني؛ كُنْتُ قد رأيته فِي «مَشْعَرِ مِنَى»، وأخبرني أَنَّ عوائق لا عِدَادَ لها تَحْجِزُهُ عن الحج، لكنه قهر نفسه، وتجاوزها كلها؛ رغبةً في أداء مناسك الحج، وقد أتم حجَّهُ بِفَضْلِ رَبِّهِ عز وجل.

فَلَمَّا عَادَ إلى غزة؛ لَمْ تَمْضِ إلا أشهر قليلة حتى قصفته طائراتُ البَغْي الصهيونية فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ، بَعْدَ أَدَائِهِ لِصَلاةِ الجُمُعَةِ؛ لِيُنْجِزَ اللهُ لهُ في خواتيم حَيَاتِهِ مَا أَحب، ويُلَبِّي لَهُ مَا طَلَب!!

---

(١) عسله: أي: جعل له من العمل الصالح ثناءً طيبًا كالعسل. وقيل غير ذلك.. انظر: الأزهري الهروي/ تهذيب اللغة (٢/ ٩٥).
(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٧٧٨٤)، (٢٩/ ٢٣٢)، والحديث صححه الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٨٨).
(٣) المنذري/ الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (٥٠٨٧)، (٤/ ١٢٦).
(٤) السيوطي/ جامع الأحاديث، رقم الحديث: (١٢٥٧)، (٢/ ٢٦٠)، وقال الألباني: صحيح.

أُنْمُوذَجٌ ثَانٍ:

أَورد الشيخ سيد عفاني في كتابه «شَذى الرَّيَاحِين في سيرة واستشهاد أحمد ياسين» مَا يَشِي بِأَنَّ الشيخ ياسين قد مَنَّ اللهُ عليه بِخَاتِمةٍ عَسَلِيَّةٍ؛ ليقضيَ نحبهُ على خير حَالاته.

نَقَل العَفَّانِيُّ عن «سُمَيَّة» ابنةِ الشيخ قولَهَا: على غير العادة جمع أبي أُسْرَتَنَا كاملةً قبل استشهاده بِيَوم واحد، ثم أخذ يودعنا قائلاً: أشعر أن شهادتي قريبة، وإني لا أريد الدنيا، بل أطلب الشهادة والآخرة[١]!!

والعجيب أن المرض قد داهمه، واشتدَّ به، حتى رجَّحَ الأطباء موته في أَيَّةِ لحَظة، فَخُطُورَةُ حالته تُشَكِّكُ فِي دوامه حيًا ولو أيامًا قلة!

فَلَمَّا جَنَّ لَيلُ ليلة الاثنين [٢٢/ ٣/ ٢٠٠٣]، توجه إلى مسجد المجمع الإسلامي، نَاوِيًا اعتكاف الليلة كاملةً، وَشَرَعَ في الصَّلاةِ وتِلاوَةِ القُرآن، فَلَمَّا هَلَّ السَّحَرُ أكثر من الذكر والاستغفار، ثم نَوى الصِّيام، وصلى الفجر، رغم أن حالته الصحية لا تُبَشِّرُ بِخَير!!

وقد سجل العفاني شهادة ولد الشيخ «عبد الغني»، وَمِمَّا جاء فيها:

صليت الفجر مع أبي، إلا أني عُدْتُ إلى البيت قبله، وما إن دخلته حتى سَمِعْتُ انفجارًا مُدَوِّيًا، فَهرَعْتُ إلى المكان، وإذ بِالصَّارُوخ الثاني ينزل، فَأُصِبْتُ بِقَذِيفةٍ منه، ثم أطلقوا صاروخًا ثالثًا؛ للتَّأَكُدِ من قتله، وقد شَعرت سَلفًا أن أبي لن يقضيَ إلا شهيدًا، فكم دعا ربه في صلاته أن يرزقه الشهادة في سبيله[٢]؟!!

قال الباحث اللغوي عبد العظيم بدران:

ليس صدفةً أن يُقتلَ الياسين يوم الاثنين الذي مات فيه نبينا ﷺ، فجرًا في الوقت الذي طُعِنَ فيه عمر وعليٌّ رضي الله عنهما، وقد نوى الصيام كعثمان رضي الله عنه[٣]!

---

(١) سيد عفاني/ شذى الرياحين في سيرة واستشهاد أحمد ياسين (١/ ١٤٩).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣١٠-٣١٣).
(٣) مقال: علوٌّ في الحياة وفي الممات، لعبد العظيم بدران، بتاريخ: ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٤م، منشور على شبكة الانترنت.

قلت:

إنَّ الشَّيْخَ أَسَّسَ مسجد المُجَمَّع لِيَكُونَ مُنطَلَقًا لَهُ فِي الدَّعْوَةِ إلى رَبِّهِ، فاستُشهد عَلَى بَابِهِ، وَقَد اشتهر عنه قيام الليل كُلِّهُ؛ وُقُوفًا بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ، وَإِنْجازًا لِمَصَالِحِ إِخْوَانِه؛ فقبضهُ اللهُ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْه!!

وَبِهَذَا تُدْرِكُ أَنَّ اللهَ جَلَّ وعلا قَد أَمْسَكَ روحَ الشيخِ على أكملِ حالاته؛ لِيُقْبَضَ في خير أيامه وأوقاته؛ فَيَرحل إلى ربه عابدًا صائمًا مُربيًا شهيدًا، بعد أن عاش عليها بِعَزْمٍ مُذْهلٍ، وَإِنْ كان قعيدًا!

وَحَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِدِينِهِ بِخَاتِمَةٍ عَسَلِيَّةٍ عَجِيبَةٍ:

قال صاحبي: كان الشهيد «عبد الله أمين الأسطل» يصلي في المسجد كَمَا النَّاسُ يُصَلُّون، وإذا حضر موعد مباراة القدم لا يُقَدِّمُ عليها شيئًا، وإن دعاه أصحابه لِطَعَامٍ يقتسمون كُلْفَتَهُ كان أول الحاضرين!

وإذا أراد الله أمرًا هَيَّأَ أسبابه !!

فقد بدأ «عبد الله» يَفِرُّ إلى ربه، فَكَانَ أولَ من يدخلُ المسجد، وآَخِرَ من يَخْرُجُ منه، ثم أعفى لِحْيَتَه، وَبَدَأَ بِصِيَامِ الاثنين والخميس، وقيام الليل، حتى كان يُطِيلُ السُّجُودَ جدًا، بل إنَّ أَحَدَ من صلى خلفه في ليلةٍ رمضانية هَمَّ بِالخُرُوجِ من الصَّلاةِ لِطُولِهَا!

قال صَاحِبِي: وما مَضَتْ إلا أشهر حتَّى منَّ الله على «عبد الله» بِفَرِيضةِ الجِهَاد، فَأَصبحَ يُرَابِطُ على ثُغُورِ غَزَّةَ؛ يحرس أبناء شعبه من خطر العدو الصهيوني.

وكثيرًا ما سَمِعْتُهُ يُعلِنُ شَوْقَهُ إلى الله، يريد الشهادة في سبيل الله، بل إنه قال: نَذَرَ أن أُصَلِّيَ صَلاةً إلا وَدَعَوتُ رَبِّي أن يرزقني الشهادة في سبيله!

وَهَكذا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالله، حتى ما عَادَ يُفَكِّرُ في كُرَةِ القدم قط، مع كونه من أشهر اللاعبين وأمهرهم، وما عاد مُتَفَرِّغًا لِحُضُورِ المُباريات عبر شاشات التلفاز!

قلت:

إنَّ القَلْبَ العَامِرَ بِغَايَاتٍ عَظِيمةٍ، وطاعاتٍ مُستَدِيمَةٍ، يُكْرِمُهُ اللهُ بِعَزِيمةٍ كريمة، وَنَفْسٍ

مُستَقِيمةٍ، لا يبقى للمباحات كثير حظ فيها أو نصيب، فَما الذي خلع حُبَّ الكرة من قَلْبِ «عبد الله»، وهو الخبير بِفُنُونِهَا، المُشَجِّعِينَ لَهَا، إلا الخاتِمَةُ الشَّرِيفَةُ التي رَسَمَهَا؟، حتى غدا لا يتكلم إلا عن الله، وإن سكت فَمَع الله، وإن سار فَفِي سبيل الله!

سألت صاحبي: كيف كانت خاتمة «عبد الله» تفصيلاً؟

قال لي: قبل رحيله إلى الله بأيامٍ أَرْبَعَةٍ دعوتُهُ إلى جلسةٍ بَحْرِيَّةٍ نتناول فيها طعام العشاء؛ فَأَبَى بِشِدَّةٍ، وبعد إلحَاحٍ أَشَد استجاب لِرَغبَتِنَا، فَكُنْتُ أَرْقُبُهُ وأشعر أنه يُوَدِّعُنا، حتى قلت له: أيها الشَّهِيدُ الذي لن يطول بَقاؤُهُ بيننا!

وما قلت هذا إلا لأنه كان في أيامه الأخيرة كَالصَّحَابِيِّ بَينَنَا!!

ثم إنه اتصل بي قبل استشهاده بِيَومٍ واحدٍ يدعوني للإفطار معه يوم الخميس، وكان قد اعتاد صومه، فَأَجَبْتُهُ إلى طَلَبِه.

قالت أمه: جاءني في الليلة التي سَبَقَتْ استشهاده، وطلب مني أن أَتَهَجَّدَ من الليل، وأُطِيلَ الدُّعاء له بِالشَّهَادَةِ!

وفي مساء يوم الأربعاء صلى جماعةً مع إخوانه بِالمَسجِدِ، ثم تَوَجَّهَ إلى بيت المُجاهِد «علاء عدنان أبو هداف»[1] وأودعه جواله وبعض الأمتعة، ثم انطلق إلى ثَغْرِه، بِرِفْقَةِ أخيه المُجاهد «هاني حسن أبو رومية».

وفي تمام الساعة الثانية عشرة من ليلة الخميس [٢٩/ ١١/ ٢٠٠٧] سُمِعَ دَوِيُّ قَصفٍ خَسِيسٍ من طائرةٍ صُهيُونِيَّةٍ استهدفتهم بِصَواريخَ ثلاثةٍ؛ لِيَكُونَا من جُملةِ الشُّهَداءِ، نحسبهم كذلك ولا نزكيهم على الله تعالى!

قال الأخ الشهيد علاء أبو هداف الذي ودَّعهُ: لما ودعته قال لي قبل ذهابه إلى ثغره: إن عُدْتُ إليك فَهَيِّئْ لي كأسًا من شاي؛ أَتَسَحَّرْ به، وإن تَوَفَّانِي اللهُ شهيدًا فَافتَح جَوَّالِي لِيَصْدَحَ بِأُنْشُودةٍ مَطْلَعُهَا:

يا شهيدًا ناســج المجـد وسامًا ... وسقانا من كؤوس العــز جامًا

وتـراءى في سمـــاء النصـر برقًا ... راحلاً يلقى على الدنيا السلاما

---

(١) استشهد فيما بعد، في جولةٍ جهاديةٍ مع قوات الاحتلال الصهيوني.

رسالة القصة:

لقد عاش فارسنا لا يُفَارِقُ صَلاة الجماعة؛ فَمَاتَ بعد جماعةٍ أدركها!

ولَمَّا أدمن قيام الليل مات قائمًا له في ثغرٍ خَيرٍ من موضع تَهَجُّدِهِ فِي بَيتِهِ!

وَلِأَنَّهُ اعتاد الصيام؛ أَمْسَكَ اللهُ رُوحَهُ في ليلة الخميس الذي نوى صيامه، بل دعا بعض أصحابه للإفطار معه!

ولما عاش مجاهدًا قبضهُ الله شهيدًا، نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله!

وهكذا يَخْتَزِلُ مشهدُ خاتمَتِهِ حياتَهُ كُلَّهَا؛ لِتَسْتَيْقِنَ قُلوبُنَا جَزْمًا أَنَّ مَنْ عاش على شيءٍ مَاتَ عليه!!

أمَّا عن رفيقه المجاهد «هاني حسن أبو رومية»

فَقَدْ حَرِصْتُ على لقاء والده؛ لآخذ مرادي من مصدره الأَوَّل، فَزُرْتُهُ في بيته، وسألته عن هاني وخاتمته، فقال لي:

كان ولدي حافظًا للقرآن، مُتَفَوِّقًا في طلب العلم، محافظًا على التبكير إلى المسجد، مُحِبًا لِلمُجَاهِدِين والشُّهَداءِ، فَكَانَ جزءًا من فؤادي، بل إنه أحب أولادي إلى قلبي.

ثم قال في هدوء أذهلني: في ليلته التي خرج لِثَغْرِه فيها، ولَمَّا سمعت قصف الطائرات وقع في قلبي أن ولدي قد ارتقى شهيدًا؛ ذلك أني أَعْدَدْتُهُ طويلاً لهذا اليوم، وما أنسى أبدًا يوم أن حَمَلَتْ زَوجَتِي به، أنني وضعت يدي عليه، وقلت: اللهم إني أحتسبه في سبيلك شهيدًا!!

ومنذ ذاك اليوم وأنا أنتظر الساعة التي يتقبله الله مِنِّي شَهِيدًا، لأني صَدَقْتُ اللهَ في نِيَّتِي، وما إن سمعت القصف حتى وقع في قلبي أن الله اصطفى ولدي، وإني لأسأل الله دومًا أن يجمعني به في مَصَافِّ النبيين والشهداء!!

وهكذا رحل الصَّادِقُونَ عَنَّا، وَتَرَكُونَا نُقَاسِي ذُنُوبَنَا، ونُعَانِي من سيئاتنا

فإلى متى نَنشغل بِدُنْيَـانَا عَن دِيننا؟!! وَبِأَموالِنَـا وَأهلِينا عَن رَبِّنَا، مُتعلِّلين بِقَولِنَا: سَيُغْفَرُ لَنَا!!

إخوتاه..

بِالذِّينَ عَسَّلَهُمُ اللهُ، وَطَهَّرَ قُلُوبَهُم، تَصْلُحُ ديارُنَا، وتُحْفَظُ شريعتُنَا؛ فَهُم عِزُّ الدين، وصفوة الموحدين، وَمَن تَعْقِدُ الأمـة أملاً كريمـًا بعد الله عليهم، والأنـامل تَتَّجِهُ إليهِم، فَهَل أَنت منهُم؟!!

ثم إن سألتني:

ما السبيلُ إلى محبة الله وتَعْسِيلِه لنا؟

قلت لك:

عُدْ لآياتٍ تُذْهِلُ العُقُول؛ فَإِنَّ فيها مسلكَ الوُصُول[1]!!

ثم تأمل طويلاً هذا الحديث النفيس:

أخرج البخاري في صحيحه من حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ.. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ.. وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[2]!!

رسالة الحديث:

إذا قام العبد بِالفَرِيضَةِ، وأكثر من النافلة، وكانت حياتُه بِالقِيَام والصِّيَام والنَّفَقَةِ وعُمُومِ النَّوافلِ حَافِلَةً؛ أَحَبَّهُ الله عز وجل، بل يعلم الله تعالى كم تهوى قُلُوبُنَا أناسًا أَحَبَّ إلينا مِنَ العَسَلِ؟؛ لِمَا نَظُنُّهُ فيهم من حسن عبادتهم، وكثرة نوافلهم، فضلاً عن نقاء سيرتهم، وجودة سريرتهم!!

---

(١) في المبحث الأول، الموسوم بـ» الخواتيم ميراث السوابق» تحت عنوان: «آيات تذهل العقول».
(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٦٥٠٢)، (٣/ ٢٤٧).

فإذا أَحَبَّ اللهُ عبدًا وَهَبَهُ سَمْعًا لا يسمع إلا خيرًا، وبصرًا لا يبصر إلا حقًا، ولسانًا لا ينطق إلا صِدْقًا، وقلبًا لا يلتذ إلا بِمُنَاجاتِه، وتلاوةِ كتابه، وجوارحَ لا تمتد إلا في مرضاته[1]!!

فهذا من يُعَسِّلهُ الله ويُحِبُّهُ، ويقبضه على خاتمةٍ طيبة، فَهَذَا هو الطَّرِيق؛ وَقَد عَرَفْتَ فَالْزَم!!



(١) ابن حجر/ فتح الباري (١١/ ٣٤٣) وذكر ابن حجر أقوالًا كثيرة في معنى الحديث.

الخَـــواتِيـــمُ المخْتَـــارَة

إنَّ أُنَاسًا يَمُنُّ اللهُ عليهم بِأَمَارةٍ تَشِي بِموتهم، وَقُربِ لقاء ربهم؛ لِيَمُوتُوا على أحسن أحوالهم، وفي خَيرِ أَيَّامِهِم.

أَخَـذَتِ النَّبِيَّ ﷺ بُحَـةٌ شَـدِيدةٌ في مرض مـوته، فَسَمِعَتْهُ عائشـة ﵂ يتلو قـول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

قالت: فَعَلِمْتُ أنه يُخَيَّر؛ إذ سمعتُهُ يومًا يقول: «مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[١].

وهذا خَلِيلُ الله إبراهيم ؈ جاءه ملك الموت لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقَالَ له: هل رأيت خليلاً يُمِيتُ خَلِيلَهُ؟!!

فَأَوحَى الله تعالى إليه: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟!

فقال: يا ملك الموت، الآن فَاقْبِض[٢]!!

رسالة الخبرين:

إن الله جلَّ وعلا يُخَيِّرُ أنبياءَهُ؛ كَرَامَةً لَهُم؛ لِيَمُوتُوا على الهَيئَةِ التي تَهْوَاهَا قُلُوبُهُم!!

قَرائِنُ الخَوَاتِيمِ الفَاخِرَة:

يحصل أن تُحَلِّقَ قرائنُ في سماء الصالحين تَشِي بِمَوتِهِم؛ لِيَصْنَعُوا خاتمتهم بِيَدِهِم!!

فهذا الصحابي الجليل عمار بن ياسر ﵁ الذي تشتاق الجنة إليه بِإِخْبَارِ النبي ﷺ، نراه يوم صِفِّين حريصًا على شُربِ اللَّبن، حتى قال لِمَن حوله: ائتوني بِشُربَةِ لَبَن!!

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٤٥٨٦)، (٢/ ٤١٤).
(٢) ابن حجر/ فتح الباري (١١/ ٣٦١).

فَذَهَبَ بَعْضُ أحبته وأحضر له كأسًا من لبن، ثم سألوه في عجب: ولم اللَّبَنُ تَحْدِيدًا؟!

فلما أتم شُرْبَهُ هتف قائلاً: إن النبي ﷺ قال لي: «إِنَّ آخِرَ شُرْبَةٍ تَشْرَبُهَا مِنَ الدُّنْيَا شَرْبَةَ لَبَن»!!

وكان اختياره رضي الله عنه أن يموت شهيدًا؛ وَلِذَا تَقَدَّمَ إلى ساحة المعركة هاتفًا: أزفت الجنان، وزوجت الحور العين، اليوم نلقى حبيبنا محمدًا ﷺ، حتى قتل شهيدًا[(١)]!

وهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يجلس في بيته أيام الفتنة، فَاسْتَحَثَّهُ بعضُ صَحْبِه على القتال، فقال لهم وقد نام لحظات: إني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما في المنام، فقالوا لي: اصْبِرْ؛ فَإِنَّكَ تُفْطِرُ عندنا القَابِلَةَ!!

فَرَاحَ يُعِدُّ نفسه لِلِّقَاءِ المُرتقب، فاختار أن يلقى الله صائمًا، وهو يتلو كلام الله، فَنَوى الصِّيامَ، ثم دعا بِمُصْحَفٍ؛ فَنَشَرَهُ بين يديه، وما زال يتلو كلام الله حتى قُتِلَ على الصُّورَةِ التي رَسَمَهَا[(٢)]!!

وَبِنَفْسِ أمارة عثمان رضي الله عنه يَخْتَارُ الشَّيخُ الدكتور «إبراهيم المَقَادْمَة» المُحَاضِرُ بِالجَامِعَةِ الإسلاميَّةِ بغزة خاتمته.

قَالَ الشَّيخُ: رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ فِي المَنَامِ لَيلَةَ السَّبْتِ [٨/ ٣/ ٢٠٠٣ م]، فَنظَرَ إِلَيَّ ﷺ، ثُمَّ قَال لِي: يَا إِبْرَاهِيم! أَدْعُوكَ أن تَتَغَذَّى مَعِي هَذَا اليَوم!!!

فلما أشرق صباح اليوم [٨/ ٣/ ٢٠٠٣] فَرِحَ فَرحًا ملأَ قَلْبَه، وَغَمَرَ لُبَّه، ثم دَعَا وَلَدَهُ أَبَا بَكر، وأَسَرَّهُ ما رأى، وقال له: يا بني، إني رأيت الليلة أعظم رؤيا في حياتي، رأيت حبيبي رسول الله ﷺ، وأخبرني أني سأتناول معه طعام الغذاء اليوم، ومعلومٌ أن الغداء إنما يكون بعد الظهر، وقد اقترب مَوْعِدُ اللِّقَاءِ الجَلِيل، فَإِن حَصَلَت لِي شَهَادَةٌ في سبيل الله؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ بِمَا حَدَّثْتُك، وإلا فَكَأَنَّكَ لم تَسْمَع مِنِّي شَيئًا!!

وبهذا تعلم أنه اختار الشهادةَ خاتمةً لأيامِ عُمُرِه، وَسِنِيِّ دَهْرِه، ثم خَرج الدكتور كَعَادَتِه، إلا أنه أَعَدَّ نَفْسَهُ جَيِّدًا للقاء، وقُبيلَ الظُّهْرِ قصفته قوات البغي الصهيونية بِصَارُوخٍ ارتقى عَقِبَهُ إلى الله شهيدًا، نحسبه كذلك ولا نزكيه على ربه عز وجل.

---

(١) الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٥).
(٢) نور الدين الهيثمي/ مجمع الزوائد (٧/ ٤٧٠)، وقد رواه عبد الله وأبو يعلى في الكبير ورجالهما ثقات.

وقد ذَكَرَ الشيخُ سيدُ العَفَّانِي أنَّ المَقَادمَة كَان من لوامِع المفكرين الكبار؛ فَإِنَّ لَهُ فِي التَّفْسِير اجْتِهَادَاتٍ، وَفِي الحَدِيثِ نَظَراتٍ[١]، ومعَ الفِقْهِ وَالعَقِيدةِ وَقفَاتٍ، وَلَهُ فِي الشِّعْرِ أَبْيَاتٍ، فَضْلًا عن كَونِهِ شخصيةً مجاهدةً لها إمامةٌ ظاهرةٌ في الجِهَادِ والسياسةِ والأمن، فقد كان قائد الجهاز الأمني بغزة، وقائد كتائب الشهيد عز الدين القسام عام [١٩٩٦][٢]!!

بل حَدَّث أحدُ تلامذته أن الشيخ قرأ في حياته قرابة [١٥٠٠٠ كتابًا]، طَالَعَ أَكْثَرَهَا فِي سُجُونِ الاحتلالِ الصهيوني!!

أحبتي في الله..

تَأَمَّلْتُ فِي حَالِ هَؤلاءِ وسِيَرِهِم؛ فَشَعَرْتُ أن الله اشتاق إليهم، فَأَلْهَمَهُم قَرينَةَ خواتيمهم؛ ليتهيأوا لِمُلاقاةِ الله على أحسن أحوالهم، لا لِشَيءٍ إلا لِفَضْلٍ وَقَر فِي صُدورهم، وَعَمُرَت بِهِ سَرِيرَتُهُم.

وهذا ما جادت به قريحة الشيخ صالح المغامسي بقوله:

إذا رأيت أحدًا خَلَّدَ اللهُ ذِكْرَهُ بِالطَّاعَةِ، وَمَاتَ عَليهَا، فَاعْلَم أنَّ له سريرةً عند الله؛ فَإِنَّهُ ليس بين الله وأحدٍ من خلقه نَسَبٌ، أما إنْ رأيت مخذولاً مات على المعصية، فَمِن حيثُ العُمومُ لا القَدْحُ تَعْلَم أنَّهُ لا يهلكُ على اللهِ إلا هَالِكٌ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يظلم الناس شيئًا، ولو مِثقَالَ ذَرَّة، وإنما يؤتى المرءُ من قِبَلِ نَفسِهِ.



(١) كان للشيخ دروس أسبوعية لطلبة العلم في مسجد الجامعة في تفسير القرآن الكريم، وشرح صحيح مسلم.
(٢) سيد عفاني/ شذى الرياحين في سيرة واستشهاد أحمد ياسين (١/ ٥١٨).

أَظْهَرَ اللهُ سَرَائِرَهُم سَاعَةَ مَوْتِهِم

لله عبادٌ نقلوا أقوالهم من حُرُوفٍ مَيِّتَات إلى أعمالٍ صَالِحَات، فكَان أَثَرُ أعمالهم في صناعة خواتيمهم أبلغ من عُمومِ أقوالهم؛ إذ استجاب اللهُ لرغباتهم، وإن لم تنطق بِسُؤَالِهَا أَفْواهُهُم!

فهذا الحافظ المُحَدِّثُ البِرزَالِيُّ كان إذا تكلم بِمَجلِسِ التَّحديث، وَمَرَّ بِحَديثِ ابن عباس رضي الله عنهما في الرَّجُلِ الذي وقع عن راحلته فَأَقْصَعَتْهُ وهو يُلَبِّي يومَ عَرفة، لَمَّا كان يقف مع النبي ﷺ، وعندها قال النبي ﷺ: «**اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلَا تُحَنِّطُوهُ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا**»[1]، كَانَ يَبْكِي بِشِدَّةٍ؛ كَأَنَّهُ يَوَدُّ خِتَامًا مِثْلَه.

واستجاب الله لِرَغبتِهِ؛ فَمَات بِذَاتِ الميتة التي أحبها، إذ أَحْرَمَ يومًا ثم صدح هاتفًا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» فَأَمسكَ اللهُ رُوحَهُ على الهَيْئَةِ التِّي أَحَب.

وأَذْكُرُ أن صديقًا لي مِمَّن يَخْطُبُونَ الجُمُعَةَ، أُدخِلَ يومًا إحدى المستشفيات؛ لإجراء عمليةٍ جراحيةٍ، وما إن خَدَّرَهُ الأطباء بِالبِنْج، وغاب عن الوعي تمامًا؛ وإذا به يَخْطُبُ وَيَزْأَرُ وَكَأَنَّهُ على منبر الجمعة، وكان يستدل بآيات القرآن، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام!!

وحدثني صديقٌ آخر أنه تَعَرَّضَ لِحَادثٍ مُروري مُرَوِّعٍ، حتى حصلت له بِسَبَبِهِ غيبوبةٌ دامت [٨ شهور متواصلة]، حتى إن الطبيب نصح أباه أن يجلسه في البيت إلى أن يموت؛ إذ إِنَّ فُرْصَةَ النَّجاة صفر [٠]، إلا أن أباه أبى، فَأَجْرَى له الأطباءُ خلال المدة الآنفة [٥٣ عملية جراحية]، فَعَادَ لِصِحَّتِهِ بِفَضْلِ الله، وَكَأَنَّهُ مَا به من بأسٍ قط!

وما أذهلني أن صديقي هذا، وعلى مَسمعٍ من المرافقين له والأطباء، أخذ يتلو سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والكهف، بِشَكْلٍ شبه يومي، طيلة الأشهر الثمانية!!

فيا أحبتي في الله..

إنها السَّرِيرَةُ الزَّاهِرَةُ الفَاخِرَة، بِالتُّقَى وخشية الله زاخرةٌ عامرة!

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (١٢٦٦)، (١/ ٢٧٨، ٢٧٩).

فَينبَغِي للعبد أن يُعْنَى بِسَرِيرَتِه؛ فإن جوَّدَهَا بِخَيرٍ ظَهَرَ أَثَرُهَا نُورًا في بَصِيرَتِه، وَثَباتًا كَرِيمًا عند خَاتِمَتِهِ؛ ذلك أنَّ اللِّسَانَ شاشَةٌ تَعْرِضُ ما في القلب من طوايا، وأسرار وخفايا.

وهذا الشيخ العلامة ابنُ عثيمين تصيبه غيبوبةٌ تُخْرِجُهُ عن وعْيِه، إلا أنه قُبيلَ وفاته أخذ يَعِظُ الحاضرين بِعِظَةٍ بليغةٍ، وهو في غيبوبة تامة، حتى أذهل الحاضرين جميعًا، وهاك البيانَ:

اشتــد المــرض بِالشَّيخِ في خواتيم أيــامه، وكان هذا في رمضان، فَأُدْخِلَ المستشفى، وما إن حَلَّ وقتُ دَرْسِــهِ بالحرم حتى أَصَرَّ على إلقائه، فأُجبر الأطباءُ أن يرافقوه؛ لِخُطورةِ حَالَتِه!!

فلَمَّا وَصَلَ الحرمَ، وتهيأ لإلقاء الدرس، أقنعه الأطباءُ بِضَرُورةِ إجراء عددٍ من الفُحُوصَات، وَإِضَافةِ بعض وِحدات الدَّم، فقال لهم: إذا شرعت في درسي فَافْعَلُوا ما شئتم!!

فكَانَ ينشر حكمة الله، ويُفْتِي الناس بِأَحكامِ شرع الله، والأطباء يَضَعُونَ الإِبَرَ في جسده[١]!!

وفي آخر ليلة من رمضان اضطُرَّ الأطباء لِنَقْلِهِ من غرفته بِالحَرمِ إلى مُستشفى جدَّة، فَمَكَث ساعاتٍ سبعةً بِقِسْمِ العناية المركزة، وما إن خرج منها حتى أَصَرَّ على العودة للحرم؛ ليتهجد الليلةَ الأخيرة من رمضان، ويلقيَ درسه الذي ينتظِرُهُ طلبتُه!!

وَتحْتَ إِصرار الشَّيخ، ورغم خطورة حالته؛ استجابوا له، بِمُرافقة طاقم الأطباء، وسرعان ما وَضَعُوا الأُكسجين على أَنْفِه، ثُمَّ أزالُوهَا لَمَّا شرع يُلْقِي دَرْسَه، ويُجِيبُ عن الأسئلة، في مشهدٍ أَذهَلَ الأطباءَ والمُرَافِقِين، ثُمَّ الْتفت إليهم قائلاً: لو جَلَسْنَا في جَدَّةَ لفاتنا هذا الخيرُ العظيم[٢]!!

وسبحان الله الذي اصطفى من عبادة صفوةً فَذَّة، نَفَضَت عنها غبار الفُتُور والغَفْلَة؛ لَمَّا عَلِمَت أنَّ الأَمْرَ جَدٌّ، وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وأن الخواتيم الفاخرة لا تُمْنَحُ لكُسَالى ولا بَطَّالِين؛ يَصِلُونَ الليلَ بالنَّهار شربًا وأكلاً، ويَربِطُون الصباحَ بالمَساء لهوًا ولعبًا، إنما تعطى لمن صَاحَبَ المصباح حتى الصباح، وأمضى ليله ونهاره في العلم والعمل والدعوة والإصلاح، حتى يلقى الله بِهِمَّةٍ كَرِيمةٍ، وَنَفْسٍ مُسْتَقِيمَةٍ.

(١) حمود المطر/ صفحات مشرقة من حياة الشيخ ابن عثيمين ص (٢٤).
(٢) السابق ص (١٤٦).

أخي.. أصارحك فصارحني..

أيُّ كَسَلٍ دَاهَمَك؟ أيُّ فُتُورٍ أَقْعَدَك؟

أيُّ سُكُونٍ يغمرك وأنت ترى الشيطان يصول ويجول لِيُخْزِيَك، وَيُضِلَّكَ وَيَغْوِيَك؟!!

أرسل للشيطان رسالةً، ولْتكتبْ فيها:

غريمي الشيطان: أطلب منك أن تأخذ إجازةً شهرًا واحدًا، لا تُضِلُّ فيه أحدًا؛ وَلْتَبْقَ فَارِغًا قَاعِدًا!

هل سَيُوَقِّعُ على طَلَبِكَ؟ أم سَيَكْتُبُ لك: أعتذر منك؛ فَلَمْ أَتَمَكَّنْ من قراءة طلبك؛ لأَنِّي مَشْغُولٌ بِإِغْوائِكَ، وإضْلالِ غَيرِك!

إخوتاه..

إنَّ الشَّيطَانَ توعدنا بقوله لربنا:

﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:١١٨، ١١٩].

ثم إنه راح يستهدف أول نبي، أبا البشر آدم عليه السلام، وَسَجَّلَ أَوَّلَ نَجَاحٍ؛ إذ أخرجه من الجنة في فترةٍ قياسية، فقد أخرج الحاكم في مستدركه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: **«مَا سَكَنَ آدَمُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ»**[(١)]!!

فَهَذِهِ هِمَّةُ شيطان، لعنه الله في القرآن، حُرِمَ التوفيق ومُنِحَ الحِرمَان، فَكَيفَ بِكَ يا وَلِيَّ الرحمن؟ أَمَا قَرَّرْتَ هَزِيمةَ الشَّيطَان؟

حتَّى لو خَسِرْتَ جَولَةً أَمَامَهُ، أَلَا تصدُّهُ بِهَجْمَةٍ مرتدةٍ لِتَقُودَ زِمَامَهُ، وَتَكْسِرَ عِظَامَهُ؟ كَأَن تُضاعِفَ قَدْرَ عبادتك التي فيها هَزَمَك، حتى إنْ فكَّرَ يومًا أن يُثْنِيَك، وعَلِمَ أَنَّكَ تُضَاعِفُ عملك لم يرجعْ قَطُّ إليك!

(١) الحاكم / المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث: (٣٩٥٢)، (٢/ ٥٤٢).

أما حبيب قلوبنا العلامة ابن عثيمين فإليك غراسَ همته:

بينما الشيخ في مرضه، واللحظات الأخيرة من حياته تقترب، حَصَلت له غيبوبةٌ كَامِلة، وإذ به يشرع في إلقاء محاضرة يبين فيها حُكْمَ الغِيبَةِ في الكتاب والسنة، مستدلاً بنصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ[1].

قلت:

علم الله تعالى أن حُبَّ نَشْرِ العِلْمِ مَغْروسٌ في نِيَّتِه، وَحُبَّ الدِّين رَاسِخٌ في طَوِيَّتِه، فَلا عجب يوم أن يَغِيبَ العَقْلُ أن يُرسِلَ القَلْبُ ما فيه إلى اللسان، لِيَنْطِقَ بِالوَعْظِ والإحسان، بدل الدَّنْدَنَةِ وَالهَذَيَان!

فَأَحْسِن سِرَّكَ؛ يُحسِنِ اللهُ إليك، ويثبّتْكَ على التوحيد لحظة ختامك!

وما هي إلا لحظاتٌ حتى ارتقى الشيخ للَّرفيقِ الأعلى، بَعْدَ رحلةٍ مع داء البطن؛ ليموت بهذا شهيدًا؛ ذلك أن النبي ﷺ قال: «**المبطونُ شهيدٌ**».

وقد قال تلميذه عبد الله خان: كنت أرافق الشيخ ذات يومٍ، فَحَدَثَ مَوقِفٌ ما قال لي بعده: يا عبد الله أتمنى أن أموت شهيدًا[2]، فَأَجَابَ الله دعوته!!

رسالة القصة:

إن الله جلَّ وعلا أَمَاتَ الشيخَ على ما عاش عليه؛ فَإِنَّهُ قَضَى عالمًا مُعَلِّمًا كَما عاش، عَابِدًا مُتَهَجِّدًا كما كان، شهيدًا كما دعا وتمنى!!

اختبارٌ عَمَلِيٌّ:

أُهْدِيكَ وسيلةً عَمَلِيَّةً تُنبيكَ عَمَّا طُبِعَ في قلبك، فَإِن وُفِّقْتَ فِيها؛ فَعَسَاك تُوَفَّقُ عند موتك، وإن تَعَسَّرتْ فَبَادر بِإِنْقَاذِ نَفْسِك!

أخرج البخاري في صحيحه من حديث عُبَادَةِ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ

(١) شريط أهل الخشية للشيخ محمد بقنة.
(٢) حمود المطر/ صفحات مشرقة من حياة الشيخ ابن عثيمين ص (١٤٤).

مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي أَوْ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ».

رسالة الحديث:

إن من تَعارَّ[١] في أي سَاعةٍ من ليله؛ فَشرَع يتكلم بالأذكار الواردة فَورَ استيقاظه؛ فَإِنَّهُ يَتَحَصَّلُ على فضائلَ أربعةٍ:

مَغفِرَةٌ يقينيَّةٌ، ودُعَاءٌ مُجَاب[٢]، وَوُضُوءٌ مَقْبُول، وصَلاةٌ مَقْبُولَةٌ بإذن الله تعالى!!

أخي..

إنِ استيقظت من اللَّيلِ فَوَجَدْتَّ لسانَك يتكلم بالذِّكْر؛ فاعلم أن الله أراد بك الخير، أمَّا إن شَقَّ عليك، أو نسيته، أو تذكرته بعد لحظات؛ فاعلم أَنَّكَ على خَطَر، وأنك قد تُصْرَفُ عن شهادة التَّوحيدِ سَاعَةَ الأَجَل!

أدرك هذا ابن حجر العسقلاني فوجدته يهديك جواز نجاة، فحواه:

إنَّما يَتَّفِقُ ذلك لِمَن تَعَوَّدَ الذِّكْرَ، واستأنس به، وغلب عليه، حتى صَارَ حَدِيث نَفْسِه في يقظتِهِ ونَومِهِ، فَأَكْرَمَهُ الله بِإِجَابة دعائه، وقَبُولِ صَلاتِه؛ إذ القَبُولُ في هذا الموطنِ أَرجَى من غَيْرِه!!

تأمل هذه الكرامة من قديم ابنُ بطال، فصاح بك صادحًا ناصحًا:

فَيَنبَغِي لِكُلِّ مؤمنٍ بَلَغَهُ هذا الحديث أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته للقيام بين يديه، فَلَا عَونَ إلا به، ثم لا يَفُوتُهُ أن يسأل ربه أن يُعْتِقَ رقبتَهُ من النَّار، ويَعْمَل بِعَمَلِ الأبرار، وأن يتوفاه على الإسلام، ويختم له بِفَوزِ العاقبة، وجميلِ الخاتمة[٣]!!!

قال أبو عبد الله الفربري راوي الحديث: أَجْريتُ هذا الذِّكْرَ على لساني عند يقظتي؛ فَلَمَّا نِمْتُ

---

(١) تعار: أي: استيقظ من النوم ليلًا، وأخذ يتكلم بصوت بالأذكار وهو يتقلب في فراشه.. وهذه خلاصة الأقوال الواردة فيها، ولمن أراد زيادةً في علمه فلينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١٥٥)، (٣/ ٤٠).

(٢) وقد أخرج ابن ماجه عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ بَاتَ عَلَى طُهُورٍ ثُمَّ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَسَأَلَ اللهَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا أَوْ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ**» انظر: سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٣٨٨١)، ص (٦٤٠)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) ابن بطال/ شرح صحيح البخاري (٣/ ١٤٧).

أتاني آتٍ في منامي يتلو قول الله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٠][١]!!

فَيَحْسُنُ بِمَن أراد أن يموت على كلماتٍ من الذِّكْرِ خاصة؛ أن يكثر منها، ويعتاد عليها؛ لئلا يُخذلَ في الدقائق الأخيرة من حياته.

حدثني أخٌ لي أن صديقًا له تعرض لِحَادثٍ كاد يموت فيه، قال: لقد رأيت الموت أمامي، فَحَاولتُ أن أنطق بِالشَّهادَتَين فَمَا استطعت، ثم جاهدت نفسي بِكُلِّ قوتي فما استطعت أن أنطق وَلو بِحَرفٍ واحد، بل تراءى لي كلُّ ذنبٍ اقترفته يداي في حياتي، ثم نَجَّانِي الله تعالى، لكني تعلمت درسًا لن أنساه، وأدركت عندها أيةَ قيمةٍ عزيزةٍ للطاعات والرقائق الإيمانية؟

وفي الاتجاهِ المعَاكِسِ:

لا أنسى أبدًا أن شيخًا كبيرًا عندنا لَمَّا شعر بِإِرهَاقٍ ذهب إلى المستشفى، وما به بأسٌ قط، ثم بقي في إجراءات العلاج، فَلَمَّا أَذَّنَ المغربُ أخذ يردد خلف المؤذن، قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، فَمَات من لَحْظَتِه!!

دُهِشَ الطَّبِيبُ، ثم اتصل بِأَولادِه وأخبرهم بِمَوت أبيهم، فَلَمَّا حضروا سألهم: ماذا كان يفعل أبوكم؟

فقالوا: كان أبونا من الذاكرين الله كثيرًا، كما كان يُعَلِّمُ أبناء الحي كتابَ الله تعالى!



(١) ابن حجر/ فتح الباري (٣/ ٤١).

عِبَادٌ مَاتُوا رُكَّعًا سُجَّدًا

هَذَا الفصل أُهديهِ لِمَن أَحَبَّ أن يموت ساجدًا، وَيَدعُو اللهَ بِهَذا جَاهِدًا.

كان أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه يقول لإخوانه: إني لأرجو ألا يخنُقَنِي الله عز وجل كما أراكم تُخْنَقُونَ عند الموت!!

فَبَينَا كَان يَتَهَجَّدُ فِي جوف الليل قُبِض وهو ساجد، ويشاء الله تعالى أن تراه ابنته في المنام أنه قد مات؛ فاستيقظت فزعةً تُنَادِي على أمها: أين أبي؟

قالت أمها: في مُصَلاَّه.

ثم عادت فَنَامت، فرأت ذات الرؤيا، فاستيقظت فزعةً، وسألت أمها نفس السؤال، فأجابتها بنفس الجواب، ثم نامت، فرأت ما رأت، فاستيقظت، ثم ذهبت إلى مُصَلَّى أبيها ونادته؛ فَوَجَدَتْهُ ساجدًا قد فارق الدنيا، راحلاً إلى الله تعالى!!

ونظيره في الخاتمة شيخُ قراء حِمْص الشيخ «عبد العزيز عيون السود»، فَإِنَّهُ تُوفِّيَ وهو ساجدٌ يتهجد في بيته وقت السَّحَر؛ فَلَمَّا استيقظ أهله لصلاة الفجر وَجَدُوهُ ساجدًا، فانتظروا طويلاً، ثم حَرَّكُوهُ فَإِذَا هو قد فارق الحياة[1]!!

وهذا الشيخ الداعية عبد الحميد كشك يغتسل غسل الجمعة، ثم يلبس ثوبه الأبيض، ويضع الطِّيبَ على بدنه وثوبه، ثم يشرع في صَلاةِ ركعتي الوضوء، وبينا هو رَاكِعٌ في الركعة الثانية إذ به يَخِرُّ سَاقِطًا؛ فَلَمَّا جاءه أولاده وجدوا أن روحه فاضت إلى الله جلَّ وعلا؛ لِيَموتَ الشَّيخُ على ما عَاش عليه، فِي أَحَبِّ الأَيَّامِ إليه[2]!!

وهذا رَجُلٌ باكستاني يدعى «نادر شاه» يبلغ من العمر [٦٠ عامًا]، فَبَينَا يقود شاحنته تَوَقَّفَ عند كوبري ساسكو بمدينة «ظلم»؛ لأداء صلاة الفجر، وما إن بلغ السجود حتى أمسك الله

(١) محمد مطيع الحافظ/ تراجم علماء دمشق في القرن أل [١٤].
(٢) نفخة البعث ص (١٩).

روحه، لِيَموت ساجدًا عابدًا!!

وقد أفاد مُحِبُّوهُ أن صاحبنا ما كان يترك الفجر قط، ولو كان البرودة بلغت به ما بلغت، فَكَتَبَ اللهُ ختامه على ما عاش عليه يومًا بيوم، وما كذبت سُنَّةُ الله قط!!

وهذا الحاج محمد طاهر الأغا من مدينة خان يونس يأتيه أجله يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة، وهو ساجدٌ في المسجد بفضل الله تعالى، وهو الذي كان ينظم رحلاتٍ منتظمةً لصلاة الجمعة في المسجد الأقصى، يوم أن كانت الزيارةُ أَمرًا مُتَاحًا.

وقد بلغني خبرُ فتاة عندنا أنها كانت ممن أدمن سماع الأغاني، وحُضُورَ المسلسلات، حتى إنها كانت تَرْفُضُ الزَّواجَ مِمَّن يُعِيقُ رغباتها هذه!

وشاء الله تعالى أن تمرض بِمَرضٍ خَبيثٍ، فَشَعرتْ بِالذَّنْبِ، وعادتْ إلى الله تعالى بِعَزْمٍ صَادِقٍ؛ فَقَوِيَ إيمانُهَا، وزادت خشيتُهَا من ربها، بل كانت تنتظر لقاء ربها لَحْظَةً بِلَحْظَةٍ!!

وفي آخر أيامها اشتد المرض بها، حتى حضرتها الصلاة؛ فَنَصَحَهَا أهلُهَا أن تَتَيَمَّمَ وتصلي جالسةً؛ فأبت إلا الوضوء والصلاةَ قائمةً، فما إن شرعت في الصلاة وبلغت السجود حتى ماتت في لحظة هي أقرب ما تكون بِرَبِّهَا جلَّ جلاله!

وهذا أحد شباب الأمريكان يدخل على إخواننا المسلمين في مسجد بمدينة «بروكلين» في نيويورك، وذلك بعد صلاة الفجر مباشرة، وطلب أن يدخل في الإسلام.

قالوا: من أنت؟

فقال: دُلُّونِي وَلَا تَسأَلُونِي!

فَعَلَّمُوهُ، فاغتسل ونطق الشهادتين، وتعلم الصَّلاة، ثم وقف بين يدي ربه بِخُشُوعٍ نَادِرٍ، جعل رواد المسجد يحتقرون أنفسهم أمامه، مُتَعَجِّبَينَ من رِقَّةِ حَالِهِ، وشدة بُكَائِهِ.

وفي اليوم الثالث انفرد به أخٌ مصريٌّ فَطِن، فَمَا زال به حتى أخبره بِحِكَايَتِه، وإليكَهَا بِلِسَانِهِ:

قال: لقد نشأت نصرانيًا، وقد تعلق قلبي بِالمَسِيح عليه السلام، إلا أني رأيت أنَّ النَّاس انصرفوا عن أخلاقه تمامًا، عندها بحثت عن الإسلام، وقرأت عنه، فشرح الله صدري له، لكني لم أفعلْ شيئًا.

في الليلة التي جئتكم كَثُرَ تفكِيري، وزادت حيرتي؛ فَرَأَيْتُ المسيح عليه السلام في منامي، فأشار لي بِسَبَّابَتِهِ وقال لي: كُنْ مُحَمَّدِيًا؛ فَخَرجْتُ من بيتي أبحث عن مسجد، فَأَرْشَدَنِي اللهُ إليكم!

يقول الأخ المصري: ما إنْ أكمل رواية الحكاية؛ وإذ بِمُؤَذِّنِ العِشَاءِ يَصدَحُ بِالنِّدَاءِ، فَقُمنَا نُصَلِّي، وإذ بِصَاحِبي يسجد السَّجْدَةَ الأُولي من الركعة الأولى، وما قام بعدها، فَحَرَّكَهُ من بِجوَارِهِ؛ فَإِذَا رُوحُهُ قد فاضت إلى الله جَلَّ وعلا[١]!!

رسالة ما تقدم من أخبار:

إلى من أحب أن يموت ساجدًا، لله عابدًا، عليه أن يُكْثِرَ من التَّذَلُّلِ لِمَولاه، ويُدِيْمَ الإلحاحَ والمُنَاجَاة، ثُم يَستَعِينَ على نفسه بِكَثْرَةِ الصلاة والسجود، وينادي: يا ذا الجود، أنت المنان الودود، مُنَّ عليَّ بختام وأنا في سُجُودٍ.

لَكِن عَلَيْهِ بِالخُشُوع، وَطُولِ السُّجُودِ وَالرُّكُوع.

عندها أقول له أبشر؛ فقد قال خير البشر ﷺ لِرَبيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه لما سأله مرافقته في الجنة: «أَعِنِّيْ عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ الْسُّجُوْدِ»[٢].



(١) نفخة البعث (١٧، ١٨).
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١١٢٢)، (٢/ ٥٢).



المبحث الثالث

مَنْ عَاشَ عَلَى المَعْصِيَةِ مَاتَ عَلَيْهَا



مَنْ عَاشَ عَلَى المَعْصِيَةِ مَاتَ عَلَيْهَا

تأملت يومًا في خَواتيم العباد؛ فَأَلْفَيْتُهَا على أحوالٍ ثلاثة:

(١) من يموت على ما عاش عليه طاعةً ومعصيةً.

(٢) وَمَنْ يتحولُ قُرْبَ موتِهِ من الشرِّ إلى الخَيرِ.

(٣) أو ينقلبُ على عقبيه؛ فَيَتَحَوَّلُ من الخَيرِ إلى الشرِّ.

أ) فَأَهْلُ الطَّاعةِ والمعصِيَةِ يموتون وَفق الذي عاشوا عليه؛ فَمَن كَان يُصَلِّي الصلوات الخَمْس، ويصوم الاثنين والخَمِيس، أو أَلِفَ الصَّدَقَةَ والتَّهَجُّد، والرِّبَاط والجهاد؛ نَجِدُ أن الله تَوَفَّاهُ؛ وما زال على عهد الطاعةِ مع مولَاه، الذي خَلَقَهُ وسَوَّاه!!

وَكَذَا العُصَاة؛ فَمَن كان يُدْمِنُ النَّظَرَ إلى الحَرَام، أو اعتَاد شُرْبَ الدُّخَّان، أو أَلْفَيْتَهُ يؤذي جِيرانَهُ، وَيقْطَعُ إخوانه، وَيْهُجُر أرحَامَه؛ فَهؤلاء يتوفاهم الله غالبًا قَبْلَ فِرَاقِ ذُنُوبِهِم، والتَّبَرُّؤِ من آثامهم، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود:١٠١].

ب) أما من يَتَحَوَّلُ من الشر إلى الخير؛ فَهَذا في النَّاسِ يَكْثُر؛ رَحْمَةً من الله بِهِم، وتَفَضُّلاً عليهم؛ لِخَيرٍ عَامِرٍ فيهم، وَبِذْرَةِ صِدْقٍ راسخةٍ في قلوبهم، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة:١٠٥].

ج) وأمَّا من يَنْقَلِبُ قبل موته مَخْذُولاً على عَقِبَيْه، وَيفِرُّ من النُّورِ بعد أن وَصَلَ إليه، بل يَخْتَارُ ظلمةَ المعاصي بِيَدَيه؛ فَهَذَا في النَّاسِ قَلِيلٌ، ولا يحصل إلا لِذِي سَرِيرةٍ فَاضِحةٍ بينه وبين الجليل ﷻ، أو نِفَاقٍ استحكم في قلبه؛ فَأرداهُ طَرِيدًا عن ربه قُرْبَ موته.

اللهم سَلِّم إيمانَنا، ولا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا، واحفظ علينا التزَامَنَا، إنَّكَ الكريم الرَّحِيم بِنا.

اللهُمَّ إنَّا نستودِعُكَ توحيدَنَا لك العامرَ في قلوبنا، فَرُدَّهُ علينا ساعة موتنا؛ لِتَكُونَ آخرُ كلماتنا: «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله»، فَإِنَّا قد عَلِمْنَا أنَّ الودائِعَ لا تَضِيعُ عندك، وَأَنَّكَ أرحمُ بنا من

أنفسنا بِأَنْفُسِنَا[١].

إخوتاه..

لو تَدَبَّرَ النَّاسُ سُنَّةَ الله في الخواتيم ما أَصَرُّوا على الخَطَايا؛ ذلك أن الله تعالى جعل الدنيا كَأَنَّهَا أُنموذجَ الآخرة تمامًا؛ فَأَهْلُ العبادة اليوم هم أهل الجَنَّةِ غدًا، وأهل الفجور اليوم هم أهل الخَسَارةِ غدًا، بل خُذْهَا صَافِيةً جَلِيَّةً من نبيك ﷺ: **«أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ المَعْرُوفِ فِي الآخِرَةِ، وَأَهْلُ المُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ المُنْكَرِ فِي الآخِرَةِ»[٢].**

أذكر أن صديقًا قال لي:

أَعْرِفُ شابًا رزقه الله صوتًا جميلاً؛ إلا أنه أَنْفَقَهُ في مَعْصِيَةِ الله تعالى؛ إذ راح يُغَنِّي ويلهو، حتى اشْتُهِرَ بالطَّرَبِ والغِنَاء، وأصبح مُغَنِّيًا شَهِيرًا، وبدأ يتنقل من مَسْرحٍ غِنَائِيٍّ إلى آخر.

وفي ليلةٍ من ليالي طَرَبِه، وَبَيْنَا هو يغني أُغْنِيَةً مَاجِنَةً؛ فجأةً توقف عن الغناء، وَسَقَطَ عن خَشَبَةِ المسرح، فَهُرِعُوا إليه، لكنَّ مَلَكَ الموت قد انتزع رُوْحَه، وهو مُطْبِقٌ على معصية ربه؛ فَذُهِلَ الحضور، وفزعوا من هذه الخاتمة الفَاضِحَةِ، وراح كثيرٌ منهم يَبْكُونَ، وَيُعلِنُونَ المَتَابَةَ إلى الله تعالى.

ولهذه القصةِ أختٌ أقبح منها سردها الداعية الشيخ مُحَمَّد حسان، إليك تفصيلَها بِبَيَان:

قال: حدثني أخٌ من المنصورة عن جارٍ له كان يَسْكُنُ أعلى منه، وكان مُدمِنًا للغِنَاء، وَمَا عَرفَ لِلْمَسْجِدِ طَرِيقًا ولا سبيلاً، ذَكَّرُوهُ بِالله فَما تَذَكَّر، وكان مُولعاً بِالْمُغنيةِ الشهيرة «أم كلثوم».

ومضى في غَيِّهِ حتى نام أخيرًا على فراش الموت، ولا زال الغِنَاءُ يملأ أَرْكَانَ البيت!

يقول: فَلَمَّا سَمِعْتُ صُراخ النِّسَاء صَعَدْتُ إليهم؛ فرأيت الرَّجُلَ يحتضِرُ؛ فَبَكَيْتُ، وقُلْتُ: يا جماعة اتقوا الله، أبوكم يحتضر وأنتم تُصِرُّونَ على الغناء، ضَعُوا شَرِيطَ قُرآن؛ لَعَلَّ اللهَ أن

(١) كنت يومًا أطوف كنت يومًا أطوف بالكعبة، وبينما أنا بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم إذ سمعت أعجميًا يدعو ربه قائلاً: اللهم إني أستودعك توحيدي بين الركن والمقام، فرد عليَّ ساعة موتي؛ فإني قد علمت أن الودائع لا تضيع عندك !! فقلت لإخواني: عظة عزيزة، خذوها من أعجمي لا عربي.

(٢) البخاري/ الأدب المفرد، رقم الحديث: (٢٢١)، ص (٨٦)، وقال الألباني: صحيح لغيره.

يُيَسِّرَ له، فَاستَجَابُوا له، وأغلَقُوا المُسَجِّل، لكنهم بَحَثُوا في البيت؛ فَلَم يَجِدُوا فيه شريطًا واحدًا قط!!

قال: فَنَزَلْتُ إلى بيتي وأتيتُ بِشَرِيطٍ للقرآن، ثم وضعته في المُسَجِّل، وبدأ يُرَتِّل، وإذ بِالرَّجُلِ الذي يحتضر على فراش الموت ينظر إليَّ ويقول بِغَضَبٍ: دَعِ الغناء؛ فَإِنَّهُ يُنْعِشُ قلبي، وما تكلم بعدها بكلمة!!

نَعُوذُ بِالله من سُوءِ الخاتمة، وَقَبيحِ العَاقِبَة.

إن الرَّجُلَ أبى سماع كلامِ ربه، فَكَيْفَ لو طُولِبَ عند موته بِتِلاوَتِه؟!

لكنَّ..

«كلامَ الرَّحمن ومزمارَ الشَّيطانِ في قلبٍ واحدٍ لا يَتَّفِقَان، وَلا يَلْتَقِيَان».

لافتةٌ نَصَبَها عُلَماءُ الحكماء، وحكماءُ العلماء نَفْهَمُ في ظِلالِهَا سِرَّ تحريم الغناء في أول العهد المكي، بينما حرمت الخمر في عام [٩ هـ] آخر العهد المدني، مما يعني أن قرابة [٢٠] سنة كانت المدة بين تحريم الغناء، وتحريم الخمر[١]!!

وَإليكَ بَيَانَ سِرِّ هَذَا:

إنَّ الغِنَاء بِذْرَةٌ شيطانية تُزْرَعُ في قلبِ العبد، فتُلْهِيهِ عن ذكر الرب، حتى تُفْسِدَهُ، وبالشَّهوةِ تُؤَجِّجُهُ؛ فَإِنْ تَقَدَّمَ القرآنُ لِعِمَارَتِه، وَوَجَد الغناء ساكنًا به؛ أبى الدُّخُولَ؛ إذ إن رسالته لا تستقر في أرضٍ فَاسِدَةٍ صاحبها عليلٌ مَخْذُول، حتى لو كان الغناء على صُورةِ كَلامٍ مَعْسُولٍ، من لِسَانٍ مَبْلُول، فَيَبْقَى القُرآنُ آخرةً وَعَطِيَّة، والغناء دنيا وَدَنِيَّة، ونصيحةُ النبلاء هتفت بنا أن نَسْتَظِلَّ بِخَيمةٍ نصبها ابنُ القيِّم لنَا، مَكتُوبٌ على بابها:

كُن من أبناء الآخرة، ولا تكن من أبناء الدنيا؛ فَإِنَّ الوَلَدَ يَتْبَعُ أُمَّه!!

هذا مع كون القرآن ذا شرفٍ وَعِزَّةٍ، والغناء مَذَلَّة، وَفِي قَاعِ المَعَرَّة؛ فَلا يقبلُ القرآنُ مزاحمةَ

---

(١) ذلك أن حُرمة الغناء وردت في سورة لقمان آية [٦]، وقد نزلت في أول العهد المكي؛ ذلك أن آية لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [الآية:١٤] نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، تحثه على حسن صحبة أمه التي صَدَّتْهُ عن الإسلام، ومعلومٌ أنَّ سعدًا كان من أول المسلمين، حتى ذكرت بعض كتب السير أنه أسلم بإسلام أبي بكر وعلي رضي الله عنهم.. أما حرمة الخمر فقد وردت في سورة المائدة آية [٩٠]، وقد نزلت عام [٩ هـ]، وبهذا تُدْرِكُ أنَّ ما بين حُرمة الغناء وحُرمة الخمر كما بين أول العهد المكي، وأواخر العهد المدني!!

الغناءِ فــي قلب العبد ولا شَركتَهُ، بِخِلافِ الغِنَاءِ وأهلِهِ؛ فَإِنَّهُم يُزَاحِمُونَ لِذِلَّتِهِم، وَدُونِيَّةِ أَنْفُسِهِم.

وَلِهَذَا تَجِدُ الشهواتِ والمنكراتِ تُلاحِقُ أهلَ الطَّاعة، تُشَوِّشُ عليهم عبادتهم ساعةً بِسَاعَة، بينما تتمنع رسالةُ القرآن من مُلاحقةِ القُلوبِ الخَرِبَةِ الضَّائِعَةِ.

ولَمَّا كان مطلوبًا في فاتحةِ العهد المكي من القرآن أن يُؤَسِّسَ قُلُوبًا عامرةً بالإيمان، مُحَصَّنَةً بالعَقيدةِ والإحسان؛ لِتُبَلِّغَ الأنامَ رسالةَ الإسلام؛ وَجَبَ أن تُفَرَّغَ القلوبُ من دائِهَا؛ لِسَكْبِ الدَّواءِ فيها، حتَّى يُطْوَى الداءُ، وَيُنْشَــرَ الشِّفَاءُ، ولهَذَا أُزِيلَت الألحان؛ لِتَصَادُمِهَا مَعَ هِدَايَةِ القُرآن.

إِبْدَاعُ المعَلِّمِ، ونَجَاحُ التَّلامِيذِ:

وقد وَفَّقَ الله رائدَ الإنسانية، ومعلمَ البَشَرِيَّةِ محمدًا ﷺ أن يَغْرِسَ هَدْيَ القرآن في القلوب، حتى انْعَقَدَ تلاميذُهُ على تَعظِيمِ عَلَّامِ الغُيُوب، وسُرعَةِ البراءةِ من الذنوب والعيوب، وَبِهَذَا النَّجَاحِ البَاهِرِ رأينا الصَّحَابَةَ ﵃ يوم أن حُرِّمَ الخَمْرُ عَلَيهِم، والإدمانُ مُسْتَحْكِمٌ بِهِم؛ يَسكُبُونَهُ في شوارعِ المدينة دون أن يَتَخَلَّفَ وَاحِدٌ منهم!

فَلَمَّا غابت الألحانُ، وَحضَرَت رِسَالةُ القُرآنِ، وَكَانت كفاءةُ المُعَلِّمِ عليه الصلاة والسلام؛ وجدنا أن نِسْبَةَ النَّجَاحِ في امتحان حُرمَةِ الخَمْرِ [١٠٠ ٪]!!

القراء الكرام:

إِنَّ القَلْبَ إِمَّا أن يتملَّكَهُ القُرآن، أو يَحْتَلَّهُ الشَّيطان، وحِكْمَةُ الله تأبى أن تُعْقَدَ شَرَاكَةٌ بينهما، اللهُمَّ إلا إن كان سامِعُ الألحان الذي يتْلُو القُرآن صَاحِبَ حُروفٍ تُتْلَى، دون أعمالٍ تُؤَدَّى، أمَّا أن يَجْتَمِعَا؛ فَلَا وَألفُ ألفُ لا؛ فَإِمَّا هَذَا، وَإِمَّا هَذَا!

ولهذا لَمَّا نَبَذَ فريقٌ من أهلِ الكتابِ كتابَ الله وراء ظهورهم؛ راحوا يَتَّبِعُونَ ما تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَان، وَأَخَذُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَالكُفْرَان.

وَبِهَذَا سَقطُوا من أَعْلَى عِلِّيِّيْن؛ إلى أسفلَ سافلين؛ يوم أن استبدلوا سِحْرَ الشَّيَاطِين بِكِتَابِ ربِّ العَالَمِين.

ولله دَرُّ السعدي الذي شخص الداء، وكشف بذكاءٍ عن الدواء؛ فكتب لنا تقريرًا ذهبيًا، هاكه بقلمه:

ولَمَّا كان من الحِكْمَةِ الإلهيَّة أنَّ من ترَكَ ما ينفعه، وأمكنه الانتفاعُ به فَلَمْ يَنْتَفِع؛ ابْتُلِيَ بالاشتِغَالِ بِمَا يَضُرُّهُ، فَمَن ترك مَحبَةَ الله وخوفَهُ ورجاءَهُ؛ ابْتُلِيَ بِمَحبةِ غير الله وخوفِهِ ورجائِهِ، ومن لم يُنْفِقْ مالَهُ في طاعةِ الله؛ أنفقَهُ في طاعةِ الشَّيطَان، ومن ترك الذُّلَّ لِرَبِّه؛ ابْتُلِيَ بِالذُّلِّ للعَبِيد، وَمَن تَرَكَ الحَقَّ؛ ابْتُلِيَ بالبَاطِلِ[1].

نَصِيحَةٌ قُـرْآنِيَّة:

إنَّ القرآن رسائلُ من رَبِّنَا لَنَا، وحتى يستقِرَّ في قلوبنا؛ ينبغي ألا نَجْعَلَ غايةَ حَظِّنَا مِنْهُ تراتيلَ تُريحُنَا، فتَطْمئِنَّ بِهَا نُفُوسُنَا، بل واجبُ الإسلام أن نُعْمِلَهُ حيًا في أمورِ حياتنا؛ فَالله ما أنزله إلَّا هِدَايةً لَنَا، وتوجيهًا دقيقًا يَحُلُّ كافةَ أزماتنا، حتَّى هَتَفَ ابنُ عَبَّاس رضي الله عنهما بِشِعَارٍ مَصْقُولٍ مَحْبُوكٍ، هو أَثْمنُ من الذَّهَبِ المَسْبُوك:

لَو ضَاع لِي حَبْلٌ؛ لَوَجَدْتُّهُ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى!!

إخواني في الله..

تأملت في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ فوَجَدْتُ فيها أمرًا مُذْهلاً!

إن الصحابةَ رضي الله عنهم كانوا يفهمون أنَّ كُلَّ سورةٍ تَخْتَصُّ بِجُزءٍ من الإيمان، مِمَّا يعني أن الإيمانَ دَرَجَةٌ توزَّعَت علَى جَمِيع سُورِ القُرآن؛ فَالذي يتلو القرآن كُلَّه؛ ينبغي أن يزيد الإيمان في قَلْبِه، حتى يبلغَ غَايَتَهُ، ويَصِلَ تمامَهُ وذِرْوَتَه.

وبالمثال يتضح المقال:

إنَّ من تَلا سورةَ البقرة يَتَحصَّلُ على نسبةِ إيمانٍ لا يَجِدُهَا في القرآن كُلِّهِ، فَإِنْ قرأ آل عمران زاد إيمانًا إلى إيمانِهِ الذي تَحَصَّلَ عليه من سُورَةِ البقرة، وهكذا كُلَّمَا قرأ سورةً يزيد في الإيمان، حتى

(١) تفسير السعدي (١/ ٨١) عند تفسيره الآية (١٠٢).

يبلغ تمامه مع تلاوةِ آخِرِ آيةٍ في القرآن!!

وإن لم نَقُلْ بِهَذَا لَزِمَ تَضَمُّنَ القرآنِ شيئًا عبثًا، وهذا محالٌ على ربنا، ولا يَتَعَلَّل أَحَدٌ بِالآيَاتِ المُكَرَّرَةِ؛ فَإِنَّ لها رَسائِلَ بَاهِرَة، ولو كانت خافيةً غامرة، عَرفها من عَرَفَهَا، وجَهِلَهَا مَن جَهِلَهَا.

أخي..

إن ما أصدح به الآن بإِحْيَاءِ فقهه؛ لا يتأتى لِمَن تلا كتاب رَبِّهِ دُونَ عِلْمٍ بِتفسيرِهِ وشَرحِه، مُنْتَهَى هَمِّهِ بُلُوغُ آخر الجُزْءِ ونهايةِ الصَّفْحَةِ، فَهَذا مُكْثِرٌ من تلاوته؛ مَحْرُومٌ من حِيَازةِ حلاوتِهِ وطَلاوَتِه، وأسرارهِ وآياته وبلاغتِه، وَفِقْهِ العَمَلِ به، بل كَأَنِّي بِهِ ما اطَّلَعَ على اللافتةِ الذَّهبيَّةِ الثمينةِ التي عَلَيهَا تَوقِيعُ ابنِ القيم بِقَولِهِ القيِّم:

وَتِلاوةُ آيةٍ بِتَدَبُّرٍ؛ خيرٌ من خَتمةٍ بِغَيرِ تَدَبُّرٍ!!!

ومثل هذا كَصَاحِبِ سَلَّةِ الفحم المَثْقُوبَةِ، فَإِنَّهُ ألقى الفَحْمَ الذي فيها، وراح بِسَفَاهَتِهِ يملؤها ماءً، فَمَا استقرت فيها قَطْرَةٌ، غير أنه استفاد ضَعْفَ لون سَوَادِ الفَحْم، وَمَع تِكْرَارِ العملية؛ كاد السوادُ يختفِيَ بِالكُلِّيَّةِ، وإن لم يَجْزِ الماء الذي يَنْشُد، والرَيَّ الذي يَقْصِد.

وبهذا تدرك أنَّ قارئَ القرآن دون أن يُفَسِّرَهُ ويَتَدَبَّرَهُ، ويعمَلَ به؛ فَإِنَّ القرآنَ لا يستقر في قَلْبِهِ، وإن كانت التلاوةُ وَحْدَهَا؛ تمحو في كل مرة قدرًا من سواد ذنوبه، والرَّانَ الذي عَلا قلبَهُ.



ذُنُوبُ الخَلَوات قَاصِمَةُ الخَاتِمَات الصَّالِحَات



حَدَّثَنِي أَحَدُ الدعاةِ أن شابًا من جيرانه يبلغ من العمر [٢٤ عامًا]، مَعْرُوفًا بِالرَّذِيلة وسوء الأخلاق، مُنْشَغِلاً بِالشَّهَوات، مُكْثِرًا من حضور الأفلام والمسلسلات، حتى أدمن النَّظَرَ في القنوات الفاضحة، ومواقع الانترنت الهَابِطَة، فَقَدَهُ أَهْلُهُ قبل أَيَّام، وبعد طول البحث وجدوه ميتًا وهو يزني، والعياذ بالله تعالى.

حقًا إن «الخَوَاتِيمَ مِيراثُ السَّوابِقِ» وإنَّ «من عاش على شَيءٍ مَاتَ عَليه»!!

إشارتان تربويتان صَدَحَ بِهِمَا الحكماء، ونطق بِهِمَا النُّبَلاء، ولو قُدِّر لهذا الشاب أن يتكلم الآن من قبره لَنَطَقَ بِفَصاحة العُقلاء، هاتفًا في سمع الزمان والإنسان:

اهْجُر السرائر الفاسدة، تَبَرَّأْ من الخلوات البائدة، إياك والصورَ الفاضحة، ومواقعَ الفاحشة.

تزود من التقوى؛ فإنها العروة الوثقى، والسبيل الأبقى، والدواء الأقوى.

لكن الأمر كما قِيلَ قَدِيمًا: **إذا حَضَر القَلْبُ فَرِيْحُ النَّسِيمِ يُذَكِّرُك، أَمَّا إذا غَابَ؛ فمائة ألفِ نبيٍّ لا يُوصلون التذكرة إليك!!**

خُطَةٌ شيطانية:

قرر إبليس أن يغوي فريقًا من عباد الله، لِيَكُونَ نصيبًا مفروضًا مقسومًا له، ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]، ثم فَكَّرَ وقَدَّر، كَيف يُغْوِي البشر؟ إلى أن اهتدى إلى حيلة، وأخطرِ وسيلة، تمثلت في كشف العورات، ورَواجِ الشهوات، ثم أَعْمَلَ خُطَّتَهُ في آدم وحواء، كَتَجْرِبَةٍ إن نجحت أعملهَا على سائر الأحياء، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

أرأيت الشيطان ومَكْرَه؟ أَعاينت شَرَّهُ وَخَطَرَه؟

إنَّ غايته كَشْفُ عورتك، وألا تخجل من رؤية عورة غيرك، بل تَسْعَى لَهَا، وَتَلْتَذَّ بِهَا، وَلا تَجِدُ حَرجًا في دفع مالك في سبيلها.

فهل أنت من نَصِيب الشَّيطَان؟ أَمْ من أَولِيَاء الرَّحمن؟

أُصَارِحُكُمُ القولَ: إنَّ الشيطان نجح في خُطته، وأبدع في وسائل غوايته، ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٢]، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]!

نعم، إن لله عبادًا ما نَالت الشَّهوات من إيمانِهِم، بل هُزِمَ الشيطان مرارًا أمامهم، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل:٩٩، ١٠٠].

هؤلاء الذين عَرَفُوا خُطة الشيطان فتَيَقَّظُوا لها، هذه هي الثُّلَّةُ الكريمةُ التي استجابت لتوجيه ربها: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف:٢٧].

وهؤلاء هم الخواص، وهم الصفوة الذين عناهم عبد القادر الجيلاني حين قال متعجبًا:

مَا لِلأَقوياء والشَّهوات؟ إِنَّما خُلِقَتِ الشَّهوات لِلضعفاء!!

وفي منثور حكم النبلاء:

مَن جَعَل شَهوَتَهُ تَحْتَ قدميه؛ هَرب الشَّيطان من ظله!!

إن لله عبادًا فُطَنًا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لِحَيٍّ وطنًا
جعلوها لُجَّةً واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنًا

قَرارُك سبيل مثاليتك:

دَعْنِي أستفزَّك؛ لِيَخْرُجَ الآن قرارُك من أعماق قلبك، دَعْنِي أَستنطِقْ لِسَانك:

لن أنظر إلى حَرامٍ قط، لن ينال شَيطَانٌ مني أيَّ حظ!

كنت أرمي الجمرات بمشعر «مِنَى» وبينا أنا أستدير عائدًا إلى موضع مُكْثِنَا؛ وإذ بي ماثلٌ أمام مسجد البيعة، الذي قامت على أرضه بيعةُ العقبة، فوقفت رُبْعَ ساعةٍ تقريبًا ومشاهد قصتها

أمامي، في لحظاتٍ شعرت فيها أن الله جَبَرَنِي، وردَّ إِلَيَّ رُوحِي.

وإليك القصةَ موجزةً:

لبث النبي ﷺ عشرَ سنين يدعو الناس في منازلهم ومواسمهم، ينادي فيهم: من يؤويني وينصرني؛ حتى أبلغ رسالات ربي، وله الجنة؟ فَلا يَجِدُ أَحَدًا.

حتى كان الرَّجُلُ يرحل إلى مصر أو اليمن إلي أرحامه، فَيَقُولُونَ له: احذر غلام قريشٍ.

قال جابر رضي الله عنه: حتى بعثنا الله من يثرب، فَيَأْتِيْهِ الرَّجُلُ مِنَّا، فَيُؤْمِنُ به، ويُقرؤه القرآن، فَيَنْقِلُبُ إلى أهله، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلامِه، حتى اجتمعنا وقلنا: حتى متى رسول الله يُطردُ في جبال مكَّة؟

فَرَحَلَ إليه مِنَّا سبعون رجلاً، فقدموا عليه، واجتمعوا معه سرًا عند شِعب العَقَبة، فَتَلا عليهم النبي ﷺ شيئًا من القرآن، وَرَغَّبَ في الإسلام، ثم بايعوه على حراسة الدين ونُصْرَتِه، وأن لهم الجَنَّة.

فَلَمَّا تَمَّت البَيعَةُ صَرَخَ الشيطان بِأَعْلَى صَوتٍ سُمِعَ قط، وَأَخَذَ يُنادِي على كُفَّارِ مَكَّة: هَل لَكُم في مُحَمَّدٍ والصَّبَأَةِ معه؟ قد اجتمعوا على حربكم.

فَفَزِعَ الأنصار حينئذٍ، فقال رسول الله ﷺ: لا يروعكم هذا الصوت؛ فَإِنَّمَا هُو عَدُوُّ الله إبليس، وَلَيس يسمعه أحد، أَمَا واللهِ يا عدوَّ الله لأَتَفَرَغَنَّ لك». ثم قال للصحابة: انفضُوا إلى رِحَالِكُم»[1]!!

أخي..

إِنَّ الشَّيطَانَ يَقِفُ لك بِطَرِيقِ قَرارِكَ وَبَيْعَتِكَ، فَهَل ستتفرغ لَهُ كَمَا تفرغ له نبيك ﷺ؟

إِنَّ الصحابة اجتمعوا من أَجْلِي وأَجْلِكَ، حتَّى وصلَنَا دِيْنُ ربنا، فَلَمْ نعبد حجرًا ولا صنمًا ولا وثنًا، فَهُل تقاتل الشيطان الذي أَرَّقَهُم؟ أم تُصَالِحُهُ وَتَتْرُكُهُم؟!!

وَلِذَا؛ قَبلَ أَن تَبْلُغَ الرُّوحُ إلى التَّرَاقِي، وَلم تَعرفِ الرَّاقِي مِنَ السَّاقِي، ولم تَدْرِ عندَ الرَّحِيلِ

(١) محمد بن عبد الوهاب / مختصر سيرة الرسول ﷺ (١/ ١٢٢)، علي بن برهان الدين الحلبي / السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (٢/ ١٧٨) وكل كتاب فيه رواية، وقد جمعت بينهما فيما ذكرت، فمن أراد التفصيل رجع إلى المصدر، فأنا يهمني في السياق مضمون الخبر.

مَا تُلاقِي، وَصِرتَ في القبر جُذاذًا، ونادى المنادي وَحَاذى، ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢][1]؛ أَسمِعِ الدُّنْيَا وَقُل:

لَيَرَيَنَّ اللهُ مَاذَا أَصْنَعُ!!!

أما والله يا عدو الله؛ لأتفرغن لك، حتى أَهْزِمَك، وَأَقْضِي على خُطتك!

لقَد دَمَّرتَ حيَاتِي، لقد أَشْغَلْتَ ذِهْنِي، لقد جعلتَنِي عابدًا بِالنهار وشيطانًا باللَّيل!

والله لأقتلعنك من قَلْبِي، سَأَجْتَثُّك لِتَعود إِلَيَّ روحي!

لن أنظر إلى الحَرام، لَن أقطع صِلَةَ الأَرْحَام!

لن أسمع الأغاني أبدًا، لن أغتاب أحدًا!

سَتُثْبِتُ لك الأيام القادمة أيها الشيطان أني رجل

بل إني في عزيمتي رَجُلٌ وَنِصف رجل -كَمَا يُقَال في المثَل-.

وهكذا يمضي قرارُ الأقوياء:

دخـــل مالك بن دينارٍ السوقَ يومًا، فرأى رجـــلاً يبيع التِّين، فاشْتَهاه، فقال للبائع: أَتُقْرِضُنِي شيئًا منه للغد، فَأَبَى، فقال: لو رَهنْتُ عندَك حذائي أتقبل؟!! قال: لا!! فَسَار ولم يتكلم!!

فَتَنكَّرَ الحضورُ للبائع، وأخبروه أن الذي يطلب منه تِينًا؛ هو الإمام الزاهد: مالك بن دينار!!

فَنَدِمَ البائع وقال لِعَبدِهِ من فَورِهِ: اذهب لذاك الرجل، وَبِصُحبَتِكَ عَربةُ التينِ كُلِّهَا، فإن قَبِلَهَا منك فأنت حُرٌّ لِوَجهِ الله!!!

فطار العبدُ سُرُورًا، وَحَثَّ الخُطَى فَعَرضَها عليه، فأباها وقال له: قل لسيدك:

إن مالكَ بنَ دينارٍ لا يَشْتَرِي التينَ بالدِّين!!

وإن مالك بن دينار قد حَرَّمَ على نفسه أَكلَ التِّين، إِلَى يَومِ الدِّين!!!!

(١) محمد شومان/ الدرر البهية في المواعظ الجوزية (١٥٣).

فقال العبد: خُذْهُ يا إمام؛ فإنك إن أخذْتُه كَان فيه عِتْقِي!! فقال مالك:

إن كان فيه عِتقُكَ؛ فإن فيه عُبوديتي وَرِقِّي!!!

رسالة القصة:

إنَّ لله عِبَادًا رِجَالاً، فُرسانًا أبطالاً، تركوا كَثِيرًا من المُبَاحات؛ لئلا يَذِلُّوا للشَّهوات، طَلَّقُوا الدنيا وَخَطَبُوا الآخرة؛ طمعًا في خاتمةٍ فَاخِرَةٍ، وجنةٍ باهرةٍ زاهرة، فَطَمُوا بِالعَزِيمةِ نفوسَهُم عن الشهوات لأجلها، وأيقظوها من رقادها، فَهُؤلاءِ العباد صَفْوةُ البَشر، سَمْتُهم في زماننا: هم القابضون على الجمر، بل حرارة الشهوات أشد حَرارة من الجَمر، فَهَل أَنتَ مِنهُم؟ أَم خَرَجْت عَنْهُم؟

يا عاشق الجنة:

الجَنَّةُ غالية، فكَانت أَثْمَانُها عَالية، فَاصْبِر على الطَّاعة، واصبر عن المعصية، فَإِن شَكَوت انطلاقَ سُعـارِ الشهوات، وانكشـافَ العورات، وَلَهِيبَ المَلَذَّات؛ فَاصْبـِـر، ثُمَّ اصبِـر، ثمَّ اصبـر!

سَأَصْبِرُ حتى يعجزَ الصَّبْرُ عن صَبْرِي — سَأَصْبِرُ حتى يَنْظُـرَ الرحمنُ في أَمْرِي
سَأَصْبِـرُ حتـى يَعْلَـم الصَّبْرُ أَنِّـي — صَبَـرْتُ على شيءٍ أَمَرَّ مـن الصَّبْرِ

فَإِنْ لَدَغَتْك نَارُ القَبْضِ على الجَمْرِ، فَأُذَكِّرَكَ بِعَظِيمِ الثَّوابِ، وَكَثِيرِ الأَجْرِ، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٢]

عليك جميلَ الصبر فَإِنَّهُ عزيمـةٌ — على العبـد أمـا الخَطْبُ يَجْسُـم
تنال عظيـمَ الأجرِ منـه وإنمـا — بحسب مقام الصابر أَجْرُهُ يَعْظُمُ

اختبارُ الرُّجُولَة:

إذا رأيت فتاةً مُتبَرِّجَةً، بِالزينة مُتبَهرِجة، فَالقَرارُ الآن لِمَن؟ لِعَقْلِكَ أَمْ لِشَهْوَتِك؟

إذا خَلوتَ بِنَفْسِكَ، ورأت الحرامَ عَينُكَ، ولا أَحَدَ عِندَك، إلا أن الله مُطَّلِعٌ عليك، فَالقَرارُ الآن لمن؟ لِعَقلِكَ أم لِفَرجِكَ؟

ليس الشجاع الذي يحمي مطيتـه   يوم النزال ونـــار الحرب تشتعل
لكنْ فتىً غَضَّ طرفًا أو ثنى بصرًا   عن الحرام فَذَاكَ الفـارس البطل

إعلان ضعف:

أذكر أنني كنت ألقي مُحَاضَرَةً بهذا الخصوص، فقام شابٌ يتكلم قائلاً: يا شيخ، إني مُقْتَنِعٌ بِمَا تَقُول، وأَعْلَمُ الحلالَ من الحرام، لَكِنِّي عَاجِزٌ، لا أَصْبِر، مَاذا أَفْعَل؟!

أخي..

أَعْلم أَنَّ المَعصِيَةَ لَذِيذَةٌ، وَقَد جَعلَهَا اللهُ يَسيرَةً؛ لِيَمِيزَ بِيُسْرِهَا الخبيثَ من الطَّيِّبِ، والرَّدِيءَ من الجَيِّدِ، وَلَعَلَّكَ أدركت الآن لِمَ كَانَ الصَّابِرُونَ يُوَفَّوْنَ أَجْرَهُم يوم غَدٍ؛ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلا عَدَدٍ؟!

وأُقْسِمُ لك بالله تعالى أَنَّ النَّظَرَ الحَرامَ لو كان فيه خيرٌ لك، ما حَرَّمَهُ اللهُ عليك، فَاللهُ الذي خَلَقَنَا، وَهُوَ أَدْرَي بِصَنعَتِهِ مِنَّا، وما الذي يَصْلُحُ لنا، والنظرة تلو النظرة تَنْفُثُ في القلب سُمًّا، ينقلب همًّا وغمًّا، وَضِيقًا وَأَلَمًا، لِهَذَا اسمعها عاليًا من ابن القيم بِقَولِهِ:

إنَّ الله تعالى لم يجعل شِفَاء القلب فيما حَرَّمَهُ على العَبْد، فَأَمَرنا بِغَضِّ البَصَر؛ ذلك أن النظرة سهم مسمومٌ من سهام إبليسَ، فإن تكرر النظر اشتد السُّم، فَكَيفَ يُتداوى من السُّمِّ بِالسُّمِّ[1].

هَدِيةٌ ثَمِينَةٌ:

لأنك عزيزٌ عِندِي، حَبِيبٌ إلى قَلْبِي، أُهْدِيكَ جُرعةَ دَواءٍ تَقْصِمُ ظَهْرَ الشيطان، وتقودك إلى الرحمن، حتى تُشْفَى من مَرَضِكَ تمامًا، لِأَقولَ لك بعدها: حمدًا لله عليك وسَلامًا، ثُمَّ يَزدادُ ثَمَنُهَا، وَتَعْلُو قيمتها إنْ عَرَفْتَ أَنَّهَا بِلِسَانِ طَبيبِ القُلُوبِ، وخَبيرِ النُّفُوسِ، صَاحبِ القلمِ السَيَّال، والسِّحْرِ الحَلال، ابنِ قَيِّم الجوزية الذي قال:

إنَّ العاقل الكَيِّسَ لَيَرَى المَنَاهِي كَطعَامٍ لَذِيذٍ كَالعَسَل، قَد خُلِطَ فيه سُمٌ قَاتل، فَكُلَّمَا دعتْهُ لَذَّتُهُ إلى تناولِهِ؛ نَهَاهُ ما فيه من السُّم!!

---

(١) ابن القيم/ روضة المحبين ص (٩٣،٩٤).

وإنه لَيَرى الأوامر كَدَواءٍ كَريهِ المَذاق، مُفْضٍ إلى العَافِيةِ والشِّفَاء، وَكُلَّمَا نَهاهُ كَراهةُ مَذاقِهِ عن تناوله؛ أمرهُ نفعُهُ بالتناول!!

فَإِذَا عَرَفْتَ السبيل، تَعَيَّنَ خَلاصُكَ فِي إعلان جِهَادِكَ ضد شيطانك الذليل، مُستعينًا بالجليل، إلى أنْ تَدْمَغَهُ بِالحَقِّ فِي أُمِّ رَأْسِه، حتَّى تَقْصِمَ ظهرَه، وَكُلَّمَا رَآك فِي فَجٍّ؛ فَرَّ هَارِبًا إلى غَيرِه!!

حبيبي في الله..

اقهر شيطانك بِالْمُبَادرة، وازجُرْهُ بِالْمُجَاهدة؛ لِتَكونَ من عباد الله تعالى الذين ليسَ للشيطانِ عليهم سُلطانٌ، وَلَيسَ لهُ عندهم حظٌّ وَلا نَصِيب، أولئك ذخائرُ الله الذين تَحَدَّثَ عنهُم الرَّافِعي فقال:

إنَّ عباد الله الصَّالِحِين فِي تَارِيخ الشَّياطِين
كَأَسماءِ المَواقِعِ التِّي تَنْهَزِمُ فِيهَا جُيوشُ المُقَاتِلِيـن[1]!!!

ولك أن تُدرِكَ عِظَمَ المُجاهدة، وحاجتَهَا إلى نفسٍ طاهرةٍ صَامدة، لِرَبِّهَا عائِدَة؛ بِتَأَمُّلِ مَا رَفعهُ أَبُو يَزِيد عَلَى لافتةٍ كتب عَلَيهَا:

مَا زِلْتُ أَسُوقُ نَفسِي إِلَى اللهِ وَهِيَ تَبكِي، حَتَّى سُقتها وَهِي تَضحَك!!!

ثم إياك إيَّاك أن تَسْقُطَ فِي وسَط الطَّرِيق، بل لا تَمْشِ فيه إلا بِرَفِيقٍ، يُحَذِّرُكَ من علائم الخذلان، ويدلك على طرائق التوفيق، أمَّا إن زَيَّن لك الشَّيطانُ الهُبُوط، وأنه راحةٌ لا سُقوط، سَلَّمْتُكَ لِطَبِيبِ الأطبَّاء ابن الجوزي، يشخص دَاءك، ويُهْدِيكَ دَواءك!

قال ابن الجوزي: من نازعته نفسُهُ إلى لَذَّةٍ مُحَرَّمَةٍ، فَشَغَلَهُ نظرُهُ إليها عن تأمل عواقبها وعقابها وَسَمِعَ هُتاف العقل يناديه: ويحك لا تفعل، فإنك تقف عن الصعود، وتأخذ في الهبوط، كان مثله مثل الكلب الذي قال للأسد: يا سيد السباع غير اسمي؛ فإنه قبيح!

قال له: إنك خائنٌ، لا يصلح لك غيرُ هذا الاسم!

قال: جَرِّبْنِي، فَأَعطاهُ قطعةَ لَحْم، وقال له: إنْ حفظتها لِغَدٍ غَيَّرْتُ اسمك، فانقلَبَ فَرِحًا.

(١) الرافعي/ وحي القلم (٢/ ١٥٥).

وبعد ساعاتٍ جاع الكلبُ، فَجَعل ينظر إلى اللحم، ويصبر، فَلَمَّا غلبته نفسه قال: وأي سوءٍ بِاسْمِي، واللهِ مَا الكلبُ إلا اسمٌ حَسَنٌ، ثم هَجَمَ عليها وأكلها!!!

فلا ينبغي للعاصي أن يكون خسيسَ الهمة، ولا أن يختار عاجل الهوى على آجل الفضائل والهُدى[1].

حتى تقطع بحرَ حياتك إلى شاطئ ختامك بأمان:

اجعل لك رَفيقَ خيرٍ يُعينك؛ فإن سَقطت في بِئرِ غفلَةٍ فنَادِ بأَعلى صَوتك: وَاغوثَاهُ.. واغوثَاه، فَرُبما جَاءت سَيَّارةٌ، فَأرسَلُوا واردَهُم، فَأدلَى دَلوَهُ، فَإذَا وَجدته تَعَلَّقْ به تَنْجُ، فَكَمْ غَرِقَ مَنْ أَبَى النَّجْدَةَ كَمْ[2]؟!!

ثُمَّ إيَّاكَ أَن تُصَاحِبَ فَاسِقًا؛ فَإِنَّ مَن خَانَ أَوَّلَ مُنْعِمٍ عَلَيهِ لا يَفِي لَكَ غالبًا[3]!

أمَّا إن سألتني عَن صِفَات الصَدِيقِ وسِمَاتِه؛ فَأُهْدِيكَهَا في آيةٍ ما أَحْلاها ومَا أَبْهَاهَا، بل هي واللهِ عندي من أجمعِ النصائح وأزكاها، بل كَفيلةٌ بِحَسْمِ القَضِيَّةِ، وانتهاءِ البَلِيَّةِ، وحُسْنِ اتِّصَالِكَ دومًا بِربِّ البَرِيَّةِ، قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

يا الله!! أتمنى عليك أيها القارئ الكريم أن تُعِيدَ تِلاوةَ الآية؛ فَإِنَّ فيها عبرةً وَآيَةً!!

لكن إن تلوتها ثانية ثم قلت لي:

إنَّ إخوانَ الصِّدْقِ عُملة نادرة، قَدَمُ البَحْثِ عنها عَاثِرة، وإنَّها سلعةٌ غَالِيَةٌ قد طالت غيبتها، بل لو حضرت؛ فقد اشتدت غربتها، فَما العَمَل؟

أجبتك أخي..

إنَّ أرضَ اللهِ لم تَخْلُ من قائمٍ له بِالحُجَّةِ، واتباعِ السنَّةِ، وإن كانوا قلةً جدًا، فَابْحَث جَيِّدًا، قَد

(١) ابن الجوزي/ صيد الخاطر ص (١٤٠).
(٢) خالد أبو شادي/ صفقات رابحة ص (١٠١).
(٣) ابن الجوزي/ المدهش ص (٤٢٦).

لا تَجِدُ أخًا كاملاً كالذي تُريد، لكنك تجده في جوانبَ ذا فِعْلٍ سَدِيد، وَقولٍ رشيد، فَلَو أخذت عبادتك وتُقَاك من فلان، وعِلْمكَ من عِلان، وهيئتك ولباسك من جارك، وأدبك وأخلاقك من زميلك؛ لَكُنْتَ قد أحسنت صنعًا، ثم أحسنتَ وَأَحسنْتَ صُنعًا!!

فَإن مَرَّت بِكَ الأيامُ تُطوى، وتكررت الشَّكْوى، فَإليك نَصِيحَةً حُسْنَى:

لا يُبَطِّئَنَّكَ عن مَسلك الغُرباء المهتدين قِلَّةُ السالكين؛ فَإِنَّ النَّاجين قِلَّة، والغُرباء قِلَّةُ القِلَّة، وإن من أَشنعِ مَداخل الشيطان استشعارَ الغرباء بالنُّدْرَةِ، والضَّعفِ عنْدَ التَّفرُّد بِالسُّنَّة، وَلِهَذا وَعَظهم سُفيان قائلاً:

اسْلُكُوا سُبُلَ الحَقِّ وَلَا تَسْتَوحِشُوا مِن قِلَّةِ أَهْلِهَا!!

واعلَم أَنَّ الغُرباءَ هُمُ النزَّاع مِنَ القبائل، وَأَنَّهُم أعلام السُنَّةِ فِي زَمَنِ البَلايَا والرَّذَائِل، ثُمَّ إِيَّاكَ ونسيانَ ما جَادت بِهِ قَريحةُ عبدُ الله بن مسعود ﵁ بِقولِه:

الجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَق، وَلَو كُنْتَ وَحْدَكَ!!

فَأَنْتَ الجَمَاعَةُ، وَلَو كُنْتَ وَحْدَك!!

وَبالجُملةِ لا خَلاص من ذنبك، ولا مَناص من هَمِّكَ وَغمِّكَ، وَضِيقِكَ وَأَلَمِكَ، إلا بِقرارٍ جَازمٍ، جريءٍ حَازِمٍ، ثم تَشَبُّثِكَ الكاملِ بِأَصحابِ الخير والهُدَى، لا تَحِيدُ عنهم أبدًا، مع شَغْلِ قلبك بِالأعمالِ الواجبة، والمستحبة، والمباحة؛ ذلك أن قلبك كَالطَّاحُونَة، تَدُورُ دومًا، فَتُخْرِجُ لَنَا بِحَسبِ ما يُوضع فيها، فلا يُتَصَوَّرُ أن تَضعَ فِيها رملاً، ثم تنتظر عدسًا أو فُولاً!

وهكذا قلبك !!

فَإن ابتعَد عَن سَاحَةِ الذين يَخْشونَ رَبَّهُم بالغيب؛ أَنَّى لَهُ الخَلاصُ مِنَ العَيب، فَارجع إلى صِفَتِهِم، ثم ابْحَث عنْهُم، فَحَتَّى لو كانوا أخفياء في كهفٍ مُعْتِمٍ، أو غارٍ مُظلِمٍ تَجِدْهُم، قال تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦].

عندها أكثِرْ من مُجالَسَتِهِم، وزيارتهم، وإن غَابُوا عَنْكَ؛ فَسِر عَلَى ما تعلمتَهُ منهم، ورأيتَهُ فيهم؛ لِتَشْعُرَ بِسَعادةٍ طَال بَحثُكَ عَنْهَا، وانتظارُكَ لَهَا، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

وغارت الملائكة:

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

رسالة الآية:

إنَّ الملائكة غارت على أرضِ الله، وَخَافت أن يُعْصَى فيها الله، حتى قالت لربها: اللهُمَّ إن كنت تُرِيدُ خَلِيفةً لَك؛ فَإِنَّنَا نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لك، فَإِنَّا لا نريد آثمًا يَسْكُنُهَا، أو عاصيًا ينتهك حرماتِكَ فيها!!

لكن الله جَلَّ وعلا يعلم أنَّ في الأرضِ عِبَادًا مُخْلِصين، على الشَّيطانِ مُنْتَصِرين، كَالنَّبِيِّين والصديقين، والشهداء والصالحين، يَحْرُسُونَ الشَّريعةَ، وينصرون الدين، ولهذا باهى الله بهم ملائكته، بِقَولِهِ عزَّ شَأْنُه: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾!!

سؤالٌ كَاشِفٌ صَرِيح:

هل أنت مِمَّن أشفقت منهم الملائكة؟ أم من الذي باهى ربنا بهم ملائكتَهُ؟!!

وَبَشِّر المتَّقِين الصَّابِرين:

تأمل الآية التالية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤].

إنَّهَا تتحدث عن أَحَبِّ الشَّهوات إلى الإنْسَان، وَخَاصَّةً شَهْوةَ النِّسْوَان.

إخوتاه..

إنَّ الشَّهْوَةَ جُزْءٌ من حياة الإنسان، لا يَخْتَلِفُ عليها اثنان، بل هِيَ حاجةٌ إنسانِيَّةٌ، وَضَرُورةٌ بَشَرِيَّةٌ، لَكِنَّ الشريعة -كما يقول سيد قطب- مَنَحَتْكَ فطرةً تضعُ الشَّهوةَ في مَكَانٍ لا تَتَعَدَّاه، بل تَجْعَلُهَا وَسِيلَةً تَرْبِطُكَ بِالمَلأ الأعلى وَرِضْوانٍ مِنَ الله، بعد أَخذ القَدْر اللازم منها من غير

إِغْرَاقٍ، ولا استغراق.

أعني: إنَّ الشَّهوةَ ترتقي بِصَاحِبِهَا، يرتقي الأعزب لِرَبِّهِ من خلالها صابرًا، ويرتقي المتزوجُ صَابِرًا شَاكِرًا، ومن أَحْسَنَ الصَّبْرَ والشُّكْرَ كَان من أَهْلِ التَّقْوَى، والإيمانِ الأَقْوَى.

أمنيةٌ أتمناها من فضيلتك:

أتمنى من فضيلتك أن تتلو الآية السابقة بِتَأَمُّلٍ، ثم تقرأ الآية التي تليها في كتاب الله بِتَدَبُّرٍ:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥].

لو تكلمت الآيتان لقالتا:

إنَّ من صَبرَ عَن نِسَاءِ الدُّنيَا، أُعْطِيَ أزواجًا مُطهرةً في الدار الأخرى، أما من لم يَصْبِرِ؛ فَأَخْشَى أن يُحْرَمَ بِقَدْرِ ضَعْفِه يومَ الحَشْر.

ثم إنَّ صَبْرَ الدنيا يومٌ أو بعضُ يوم، أما عطاءُ الآخرة فَخُلُودٌ بلا مَوتٍ وَلا نوم، فَكَيفَ لو كان الصَّابِرُ عن المعصية وعده ربه بِرِضْوانٍ من الله، وَحُبٍّ من الله، وَوُدٍّ من الله، وَقُربٍ من الله؟!!

هذا فضلاً عما يحصل لِنَاظر الحرام في الدنيا من قِلَّةِ التَّوفيق، وإضاعة الوقت، وَقَسوةِ القَلْبِ، وَمَنْعِ إجابة الدُّعاء، وَمَحْقِ البركة في الأرزاق، وَضِيق الصَّدْرِ، والوحشة بينه وبين رب البشر!!

فَقَاتَل اللهُ من فتَنَنَا في دِيننا، وَضَيَّعَ حيَاءَنَا!

فَكَمْ سَرقَ الشَّيطَانُ بِسُعَارِ الشهوات من عِفَّتِنَا، وباعد بيننا وبين رَبِّنَا؟!

وَلَكَمْ حرق من حسناتنا، وَكَاثَر من سيئاتنا، حتى شانَت خاتماتنا، واسودت نهاياتنا؟!

عُيُون شبابنا وفتياتنا قد أَرْهَقَهَا النَّظَر.

ولو كانت ناطقةً لَشَكَت؛ فَوَجَب أَن نَرْفِقَ بِالعُيُونِ وَالبَصر[1].

---

(١) هناك حلقات نفيسة للشيخ مشاري الخراز، عالج فيها بالخطوات واحدة من أمثل وأفضل الطرق للتخلص من حضور القنوات والمواقع الفاضحة، إليك رابط أول حلقة:

http://www.youtube.com/watch?v=uMHVSIu9MRY&feature=related

إذا وقع الفأس في الرأس:

لا تَقْلَق؛ فَالبَابُ لم يُغْلَق، لكنْ لا تُخْبِرْ بِذَنبكَ أَحَدًا، وبادر فورًا بِرَكعتِي التَّوبة بِلا تردد، وقل في سجودك: ما أَحْلَمَكَ رَبِّي، اللهم أنت المَلِك، لا إله لي إلا أنت، ظَلَمْتُ نَفْسِي، واعترفت بِذَنْبِي، فَاغْفِر لِي ذنوبي كلَّهَا، صغيرَهَا وكبيرَهَا، أولَهَا وآخرَهَا، علانيتها وسِرَّهَا..

عِنْدَهَا أَبْشِرْ؛ فَقَد قَالَ رَبُّ البَشَر: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ!! قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[(١)]!!!

فَحَتَّى لو أَذْنَبْتَ، وتُبْتَ، ثم عُدْتَّ إلى ذنبك؛ فإياك أن تَقْنَط، أو تَفْقِدَ أَمَلَكَ فِي رَبِّك، فَتُبْ إليه مرةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً وألفًا؛ فَإِنَّ الرَّبَّ كَرِيمٌ، بِعِبَادِه غَفُورٌ رَحِيمٌ!!

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرَّجا ربي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تعاظمني ذنبي فَلَمَّا قَرَنْتُه ... بِعَفْوِكَ ربي صار عفوُكَ أعظما

أخي..

إِنَّ الله خَلقَك، يُحِبُّ أن يَعفُوَ عنك، ويتوبَ عليك، بِخِلافِ الشَّيطانِ وَحِزْبِه؛ فَإِنَّهُم أَعْدَاؤُكَ، يتمنون هلاكَك، وفقرَك، ودوامَ حَزنِك، تأمل هذه الآيات النَّضِرَة؛ كَأَنَّكَ تَتْلُوها لأولِ مَرَّة:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦، ٢٨].

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (١١٢٣٧)، (١٧/ ٣٣٧)، وقال الألباني: حسن لغيره.

لهذا أهتف في سمعك بلسان الشيخ عائض القرني:

يا من بِقَلبِهِ من الذنوب جُرُوح، تعال فَالبَابُ مَفتُوح، إذا أذنبت فَتُبْ وَتَنَدَّم، فقد سبقك بالذَّنب أَبُوك آدم، ومَنْ يُشَابهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَم، لكن لا تُقَلِّد أَبَاك في الذَّنْبِ وتترك المَتاب، فَإِنَّ أباك لَمَّا أَذْنَبَ تَاب، بِنَصِّ الكِتَاب!!

أجملُ الكلمات، لَدَى ربِّ البَرِيَّات، قولك: يا رب أذنبتُ، يا ربِّ أسأتُ، فَيَكُونُ جَوابُهُ: عبدي قَد غَفَرتُ وَعَفَوتُ، وَسَتَرت وَصَفَحت[1]!

فَمَاذا بَقِيَ لنَا؟ لَقَدْ ضَجَّت الأرضُ مِنَّا، كَأَنِّي بِهَا تنتظرُ اللَّحْظَةَ التي تَبْتَلِعُ فِيهَا العُصَاةَ مِنَّا!

كَأَنِّي بِالبَحْرِ يضطرب موجُهُ غَضَبًا من أفعالنا، غَارَ على حُرُمات الله أن تُنْتَهَكَ على أيدينا، فَرَاحَ يستأذن ربه كل يوم أن يُغْرِقَنَا!

بل والله أشعر أن الأرض تودُّ أنْ لو هَجَمت عَلَينا، والبِحَار أغرقتنا، والجبال ألو انقَضَّت عَلَيْنا؛ غيظًا منا، إلا أن الله يمنعهم عنا؛ علَّنا أن نَعُودَ طوعًا إليه لا كرهًا.

والله إن لم نَعِش على البرِّ والتَّقْوى، فَبَطْنُ الأرضِ خَيْرٌ لنَا من ظَهْرِهَا، وإني لأدعو الله جلَّ جَلالُه، بِجَلالِهِ وَكَمَالِه، أن يَحفظ علينا ديننا، وتوحيدَنَا، وَحُسْنَ إسلامِنَا.

اللهُمَّ إنَّا نستودِعُكَ توحيدَنَا لك العامرَ في قلوبنا، فَرُدَّهُ علينا ساعة موتنا؛ لِتَكُونَ آخرُ كلماتنا: «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله»، فَإِنَّا قد عَلِمْنَا أَنَّ الودائِعَ لا تَضِيعُ عندك.

اللهُمَّ إن كُنْتَ تَعلم أنَّ طُولَ حياتِنَا ضُرٌّ لنا، وزيادةٌ في آثامنا، وكثرةٌ في جرائمنا، فإنَّا نسألك بِكُلِّ تَبَتُّلٍ وَخُضُوعٍ، وإلحاحٍ وخُشُوعٍ؛ أن تَقْبِضَنَا إليك غير مُضَيِّعِين ولا مُفَرِّطِين، فَأَحْيِنَا ما كانت الحياةُ خيرًا لنا، وَأَمِتْنَا ما كان المَمَاتُ خيرًا لنا، فَموتٌ بِكَرامةِ الإيمان، خَيرٌ من عيشةٍ يُعصى فيها الخالق المَنَّان.

اللهُمَّ إنا نسألك إيمَانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة النبي ﷺ في أعلى جَنَّةِ الخُلْد.

---

(١) عائض القرني/ مقاماته، مقامة التوبة ص (١٢٣).

محاسبــــةٌ علنيــــة

مَاذا تَنْتَظِرُ حتَّى تُعْلِنَ حُسْنَ العودةِ إلى الله؟

أتنتظرُ ملك المَوت أن يُخبْرِكَ بِموعِدِ موتِكَ؛ لِتَفرَّ قُبيْلَهُ تَائِبًا إلى رَبِّكَ؟!

ألم يكن ربنا قادرًا أن يفقأ عينك فَلا تَرى الحَرام قط؟ وبهذا لا تَعْصِيهِ أَبَدَ الأَبَد؟

ألم يكن ربنا قادرًا أن يُصِمَّ أُذُنَك فَلا تسمع المُجُونَ قط؟!

أليس ربنا بِقَادِرٍ أن يُبْكِمَ لسانك، فَلا تكذب، ولا تغني وتَطْرَب، وكذا لا تُفْشِي سرًا، ولا تشهد زورًا، ولا تشتم، ولا تغتاب أو تَنُمْ؟!!

والله إن الله قادرٌ، وقادرٌ، وقادرٌ، لَكِنَّهُ أراد أن يُمْهِلَنَا، ويُوْصِلَ الذِّكرى إلينا؛ رَحمةً منهُ بِنَا؛ علَّنا نرجع إليه طوعًا لا كرهًا، فَالوَيْلُ لنَا، ثُمَّ الخِزْيُ علينا إن لم نتدارك أنفسنا، وكانَ الإِمْهَالُ استِدْرَاجًا لَنَا، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

هل لابد مِن زِلزالٍ قاتلٍ يُدَاهِمُ بَلَدَكَ حتَّى تُقرِّرَ أن تَرُدَّ للنَّاسِ حُقوقَهُم، وتَقْضِي دُيُونَهُم؟!!

أم ترتقب صاعقةً من السماء حتى تنتهي من مُخَاصَمَةِ فُلان، ومُقَاطَعَةِ عِلان، وهَجْرِ الأرحَام؟!!

أَيُشْتَرَطُ أن تُكسَرَ قَدمَاك حتى تَتَمَنَّى الذهاب إلى بيتِ الرَّحمن؟

أيجب أن يُشَلَّ لِسَانُكَ حتَّى تَوَدَّ شِفَاءَهُ لِتَتْلُوَ القُرآن؟!

أَتَظُن أَنَّ اللهَ لا يَغَارُ على دينه؟ ولا يغار أن تُنْتَهَكَ حُرمَاتُه؟

أَم تظنُّ أنَّ الله يستفيدُ من عبادتك؟ أو تضرُّهُ معصِيَتُك؟

إن الله جلَّ وَعَلا لو أعطاك كُلَّ مُرادِك، لا ينقص شيءٌ منه، بل هو الغَنِيُّ عَنْكَ، وعن طاعتك، ووالله لو أن البشر كلَّهم كَفَرُوا، وظلموا وَفَجَرُوا؛ فَنظَرُوا إلى الحَرَام، وسَمِعُوا الحَرَام، وَأَكَلُوا الحَرَام؛ ما ضَرَّ هذا رَبَّنَا شيئًا، ولو مثقال ذرة، فاتَّعِظْ قَبْلَ أن تُعَذَّبَ غدًا شَعرةً شعرة.

أم أنَّكَ تترقبُ مَرض موتك؛ كي تتوب إلى ربك، فَتَسْتَدْرِكَ حينها صلاتَك، وتُخْرِجَ زكاتَك؟ أَمَا خشيت موت الفجأة على غير استعدادٍ منك؟ أم أنك رَبَّيْتَ أَولادًا تُقَاةً سَيُخرِجُونَ زكاتك عَقِبَ موتك؟ ماذا لو قالوا: هذا مَالُنَا، وميراثُنَا، ولو كان أبونا حريصًا على زكاته؛ لأخرجها بِنَفْسِهِ عن نفسه؟!

أيُّ خبرٍ مُزَلْزِلٍ هذا الذي ترتقبه حتى تَتَبَرَّأَ من أصدقاء السّوءِ وَالغِوَايةِ، وتبدأَ رحلةً كريمةً مع أصدقاءِ الخَيرِ وَالهِدَايَةِ؟

ما هو الحدث الهائلُ الرَّعِيبُ الذي تنتظرُهُ الفتاة لارتداءِ طَرْحَتِهَا؟ وقَرارِهَا بِتَمَامِ عِفَّتِهَا؟

وأخيرًا؛ ماذا يَحْدُثُ لو عُدْتَ إلى الرَّحمن، دون أن تُفْقَأَ العَينَان، أَو يُدَاهِمُك زلزالٌ أو بُركَان، أَليس بابُ السماءِ مفتوحًا لك؟ ورحمةُ ربنا تَغْدُو وتَروحُ مِنْ أَجْلِك؟!!

آن لكَ أن تَخْلَعَ ثيابَ العصيان، وتَتَسَرْبَلَ بِلِبَاسِ الإيمان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]

دَعْنِي أَسمعْها مِنْكَ الآن؛ لَقَد آنَ، لَقَد آنَ، لَقَد آنَ!!



أَظْهَرَ اللهُ خَبَثَهُم سَاعَةَ مَوْتِهِم

أذكر أن أحدَ أصدقائي أخبرني قبلَ سنواتٍ عن شابٍ عُرِفَ بِالسَّرِقَةِ، وطالما حُذِّرَ وَوُعِظَ إلا أنه لم يتعظ، وفي ذات يوم أراد سرقة مصباحٍ من أحد أعمدة الكهرباء، فَصَعِدَ لِيَسرِقَهُ؛ فَمَسَّهُ التيار الكهربائي، ومات مُتَلَبِّسًا بِالسَّرِقَةِ والعياذ بالله تعالى!

وذكر الشيخ محمد حسان أن رجلاً مَنَّ اللهُ عليه بِمَنصِبٍ يُعِينُهُ على خِدمَةِ دينه، ونفعِ إخوانه، إلا أن الرجل سخر منصبَهُ لِيَصُدَّ عن سبيل الله، بل ما وجد ثَغْرَةً ينتهك به حرمةَ الدِّينِ وأهلِهِ إلا وانتهكها، لكن..

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]..

فإنه

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

فقد أُصِيبَ الرَّجُلُ بِأَلَمٍ يسيرٍ في بطنه، إلى أن اشتدَّ به، فَأَرادَ أن يُخْرِجَ ما في جوفِه، فَدَخل إلى بيتِ الخَلاءِ وَأَخذَ يتقيأ، ومن كثرةِ ما غَلَبَهُ القَيءُ لم يَقْوَ على الوقوف، فَبَرَكَ على رُكبتيهِ أمام الحَمَّام الإفرنجي، وظل يتقيأ حتى صَرَخَ صرخةً خَرجَت بها روحُهُ، ووجهه فِي هذا المكانِ القَذِرِ النَّجِس!

اللَّهُمَّ سَلِّم.. اللَّهُمَّ سَلِّم.. اللَّهُمَّ سَلِّم.

أيُّ خاتمةٍ شنيعةٍ خاتمتُهُ؟ أي ميتةٍ فظيعةٍ ميتتُهُ؟

وفي الاتجاه المعاكس:

إليك خواتيمَ شريفةً، عظيمةً مُنِيفةً، لِرِجَالٍ نَصرُوا دين الله، وَضَحُّوا بِأَنفُسِهم في سبيل الله.

قرأت في سيرة الشيخ «صلاحِ شْحَادة» القائد العام لكتائب الشهيد عز الدين القسام في فلسطين أن حارسه الشخصي المجاهد «زاهر نَصَّار» قال له يومًا: أسأل اللهَ العظيم، رب العرش الكريم ألا يفجعَنِي بك!

فَرَدَّ عليه الشيخ قائلاً: وأنا أسأل الله تعالى ألا يفجعني بك!

وشاء الله تعالى أن يُسْتَشْهَدا معًا؛ فَلَمْ يُفجَع أيٌّ منهما بِأَخِيه، على الرغم من مرور الأيام، وتعاقب الأعوام، والشيخ ينفذ العمليات الجهادية في الضفة الغربية وقطاع غزة، بِكُلِّ إصرارٍ وعِزَّةٍ، حتى أَصَابَ اليهودَ في مَقْتَلٍ بِفَضلِ ربه، لكنه لم يقضِ دُونَ صَاحِبِه؛ وكَأَنَّ الله لا يريد له أن يُفْجَعَ به!

وإليك أنموذجين آخرين فريدين:

إنهما «عُبَيْدُ الغرابلي»، «وأحمدُ حَجَّاج»؛ من الفوارس الشبابية لِسَرايا القُدس، الجناح الجهادي لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين.

تَأَمَّلْتُ الأُخُوَّةَ الكريمةَ التي اجتمعت فيهما لِنُصرةِ الدِّين، وعِزِّ الموحدين؛ فَأَلْفَيْتُهَا تَكَاملت في ساحةِ الحياة في سبيل الله، وميدانِ الشهادة في سبيل الله، فَبَان لي أنهما كَرُوحٍ واحدةٍ لكنَّهَا في جَسَدَين، ودونَكَ التبيين:

كان أحمد وعبيد كَالظِّلِّ الدائمِ لِبعضِهِمَا، يُصبحان سويًا، ويُمسيان سويًا، ويجتمعان في المسجد سويًا، وقد التحقا في العمل الجهادي معًا، وجاهدا معًا، ثم اعْتَمَرَا معًا، واعُتُقِلا معًا، وتزوجا في فترة متقاربة، وقبل استشهادهما بِأَيام قليلةٍ؛ اعتمرا ثانيةً معًا، ثم استشهدا معًا، ودُفِنَا معًا، في قَبرين متجاورين، حتى قالت أم أحمد: لَمَّا بلغني نبأ استشهاد عبيد؛ تَيَقَّنْتُ أنَّ أحمد معه!!

لكن المُذْهِلَ أن كلاً منهما استشهد في ساعةٍ تختلف، ومكانٍ يختلف، لكنهما اتفقا في الشهادة، وفي رفع أصبع السَّبابَةِ، ومن رأى جثتيهما، وكيف يرفعان أصبعيهما، علم عظيمَ التوفيق الذي مَنَّ الله به عليهما؛ لِنُدْرِكَ أن العقلَ كلَّ العقلِ في الأخوة الصادقة التي نسمو من خلالها في خدمة ديننا، ورفعة شريعتنا.

يا عاشق الجنة:

إذا رأيتَ فسادَ الزمان، ونَقْصَ الإيمان، ونُدرة الإخوان؛ فاعلم أنَّ من أعظم نِعَمِ الله على عبده؛ أن يَهَبَهُ أخًا صالحًا، تقيًا نَاصِحًا، يجتمعان عليه، ويتفرقان عليه، كَأَبِي بكرٍ الصديق، الذي لم يُقْتَلْ؛ لأَنَّهُ أَخَذَ حكمَ الرفيق، أو كَصَلاحٍ وزاهر، وأحمدَ وعُبيد!!

فَهَذِهِ مَحَبَّةٌ كريمة، وأُخُوَّةٌ زكيةٌ رحيمة، تُعْلِنُ إخاءً في الدنيا، وترجو رفقة في الأُخْرَى، حتى لو كان القتل خيارها الأقوى!

نصيحةٌ أَخَوِيَّة:

إن معاني الوُدِّ والإِخَاء، والحُبِّ والعطاء التي رأينا فِيمَن اصطفاهم الله؛ أراها خُدِشَت عند كثيرٍ من عباد الله، حتى بين الأقران، من الخُلَّان والإخوان.

فإذا شعر الأخ أن صاحبه تَفَوَّقَ عليهِ؛ بدأ شيطانُهُ يعمل عملَه.

إذا وجد الجَارُ والتَّاجِرُ والموظفُ والطبيب وطالب العلم أنَّ قرينَهُ فَاقَهُ أو غَلَبَهُ؛ احْتَلَّت الأَنَانِيَّةُ قلبَه، وَدَاهَمَ الحَسَدُ لُبَّه، فَهُنَا وَجَبَ عليَّ أن أهتف في سمعك؛ لأنْزِعَ جُرثومةَ الدَّاء من قَلْبِك: ألا تُحِب لأخيك ما تحب لنفسك، وتدعو له بما ترجو لِشَخصِك؟؛ كي تَحظَى بِدُعاء ملائكة ربك:

ولك بِالمِثْلِ من الفَضْل، فَعِنْدَهَا تحوزُ وُدَّ أخيك، وتفوز بِدُعاءِ الملائكة لك!

إن من خَطَبَ أُخُوةَ رَجُلٍ يُعينُهُ على طاعة الله، ومرضاة الله؛ عليه أن يُغالب داءً عُضَالاً، ومرضًا قتَّالاً، وهو سوء الظَّنِّ بِأخيهِ، حتى يصل لِمَقصُودِهِ، وتمامِ مطلوبِه.

يَغشَانِي ضيقٌ، ويَعْصِفُ بي أَسَفٌ وأنا أرى بعض أهل الالتزام يَطْفَحُ بِالخِصَام، وثقافة الانتقام، حتى تنهمرَ من لسانه في حَقِّ أقرانه سُيولُ العَتَبِ والتَّشْويه، بِحُجَّةِ الحِرصِ والتَّوجيه، عندها يَنْشَطُ العَدَاءُ، ويغيب الوفاء، ويَفْتُرَ العطاء.

فَكَيفَ لِرجَالٍ تآلفوا على رفع اللواء، وعِزِّ الشريعة، والموت معًا في خاتمة فاخرةٍ بديعة؛ ليلتقوا غدًا في الجنة في درجة عالية رفيعة؛ كيف لهم أن يتعايشوا مع خَوارمِ الحُبِّ والإِخَاء؛ كَالحَسَدِ والبَغْضَاء، والأَنَانِيَّةِ والشَّحناء؟!

هَدِيَّةٌ خَاصَّة:

أُهديكَ نصيحةً هي عندي من أَعَزِّ الهَدَايا، وأثمنِ العطايا، إن كُنتَ من أَهْلِهَا؛ وُهِبتَ خَيرَهَا، وَنَجوتَ من ذُنوبٍ كثيرةٍ، وهُمُومٍ لا عِدَادَ لَهَا.

«إذا ظَنَنْتَ فَلا تُحَقِّق»[(١)]!

واجبٌ صَدَحَ به نَبِيُّنَا عليه الصلاة والسلام، على هيئةِ قاعدةٍ هَتَفَ بِهَا في سَمْعِ الأصدقاء والأقران، والأرحام والجيران، لِسِرٍ ذهبيٍّ دقيقٍ نادى به القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

رسالة النداء:

إن الله جلَّ وعَلا ذَكَر إثم الظنِّ أولاً، والتجسس ثانيًا، والغيبة ثالثًا؛ لِنَعْلَمَ أنَّ سِلْسِلَةَ مساوئ الأخلاق بوابتُهَا سُوءُ الظن؛ ذلك أن من أساء الظَنَّ بِأَخيه فِي قَضِيَّةٍ مَا؛ اهتَمَّ لهَا، وحتى يجزم بِصِحَّتِهَا يُضطرَّ أن يتدسس أو يتجسس، فإن حصل له يقينٌ بِمَا شَعَر وَحَس؛ اغتاب أَخَاه، ووقع في أذاه!

لهذا كان رَدْمُ السلسلة الآثمة بإحسانِ الظنِّ من علائم البصيرة التربوية الإيمانية العجيبة التي وَفَّقَ الله تعالى نبيه ﷺ إليها، وَدَلَّهُ عَلَيْهَا.

وهذا منهجٌ تربويٌّ أصيلٌ دَرَجَ عليه السلف؛ هدايةً للخلف، كَان من رُوَّادِهِ فقيه الأمة عبد الله بن المبارك الذي أَزْجَاكَ نُصحًا أَمسِكْهُ بِكِلتَا يَدَيك، وَعض عليه بناجذيك:

المؤمنُ يطلب المَعَاذِير، والمُنَافِقُ يطلبُ الزَّلات!!

تأمل المشهد الآتي:

كان طلحةُ بنُ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أجودَ قريش في زمانه، تزوج من بنت عبد الله بن مطيع، قالت زوجته له يومًا: ما رأيت قومًا أَلأَمَ من إخوانك!!

قال لها: مَه مَهْ! ولِمَ ذلك؟

قالت: أراهم إذا أَيْسَرْتَ لَزِمُوك، وإذا أَعْسَرْتَ تركُوك!

---

(١) السيوطي/ جامع الأحاديث، رقم الحديث: (٤٥٠١٣)، (٤١/ ٣٢٢) رُوِيَ عن الحسن مرسلًا، والحديث ضعفه الألباني، لكننا أخذناه حكمة وعظة واستشهادًا، لا اعتقادًا، ويؤخذ بأمثاله في الفضائل والوعظ، بل لو عددناه حكمة بليغة -كما قال البيهقي-؛ لكنا قد أَحْسَنَّا صنعًا.

فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم، يَزُورُونَنَا عند قُدرَتِنَا على إكرامهم، ويتركوننا في حالِ عَجْزِنَا عن القيامِ بِحَقِّهِم!

فانْظُرْ كَيْفَ تَأَوَّلَ بِكَرَمِهِ هَذَا التَّأْوِيلَ، وقدَّرَ هذا التَّقْدِيرَ، حَتَّى جَعَلَ قَبِيحَ فِعْلِهِمْ حَسَنًا، وَظَاهِرَ غَدْرِهِمْ وَفَاءً؟!

رَحِمَ اللهُ طلحة؛ فإنَّ كلماتِهِ تَشُعُّ نورًا كالقمر، إلا أنها مستمدةٌ من شمسِ الرِّسَالةِ النبوية التي عَلَّمَتْهُ محاسنَ الصِّفَات، وَرَبَّتْهُ على جميلِ التصرفات، فإليكَ خبرًا عجبًا ذكرهُ ابن قدامة المقدسي، في كتابه الفقهي: المُغني:

أسلمَ رجلٌ من بني عدي اسمه «نعيم النحَّام» وكان رجلاً مُوسرًا، يُنفِقُ على أيتامِ قبيلته، ويتكفل أراملهم، ثم إنه أراد أن يُهاجِرَ إلى المدينة لِيَلْحَقَ بالنبي ﷺ، غير أن أعيانَ قومه قالوا له: أَقِمْ عندنا وَلْتَبْقَ على دينك، ونحن نمنعُكَ مِمَّن يُريدُ أذاك، واكفنا ما كنتَ تكفينا من النفقة، فتخلف زمنًا عن الهجرة.

إلا أنه رجع بعد ذلك عن رأيه، وخرج مهاجرًا إلى الله ورسوله، ولَمَّا قابل النبي ﷺ بَيَّنَ له سِرَّ تَأَخُّرِهِ، واعتذَرَ له، وإذا بالنبي ﷺ يُحْسِنُ الظنَّ به، فلم يُوَبِّخْهُ، بل قال له: إن قومك كانوا خيرًا لك من قومي لي؛ قومي أخرجوني، وأرادوا قتلي، وقومك حَفِظُوكَ وَمَنَعُوكَ!!

فَتَعَلَّمَ نعيم رضي الله عنه الدرسَ مباشرة، فقال: يا رسول الله، بل قومُكَ أخرجوك إلى طاعة الله، وجهادِ عَدُوِّهِ، أَمَّا قومي فَثَبَّطُونِي عن طاعةِ الله، وَعَنِ الهِجْرَةِ[1]!!

تحذيرٌ

إن أبى العبدُ اعتماد النصائح السَّالِفَة، أخشى أن يقع في دَرَكِ داءِ الخواتيم الفَاضِحَةِ، ألا وهو الغيبة، ومَا الغِيبَةُ؟ وما أدراك ما الغيبة؟ إنها الداء الذي اسْتَخَفَّ بِهِ الكَثِير، حتى أصابهم فِي مَقْتَلٍ ساعةَ الرَّحِيل.

(١) ذكره ابن قدامه في المغني (١٠/ ٥٠٥).

أورد المنذريُّ بِسَندٍ حَسَنٍ أن غلامًا قُتِلَ يوم أُحُد، فَوُجِدَ على بطنه صخرةً مربوطةً من شدة الجوع، فَمَسَحَتْ أُمُّهُ التُّرابَ عن وجهه، ثم قالت: هنيئًا لك يا بني الجنة، فقال النبي ﷺ في كلماتٍ مُفْزِعَةٍ مُقْلِقَةٍ مُرْعِبَةٍ: «وَمَا يُدْرِيْكِ؛ لَعلَّهُ كَانَ يَتكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيْهِ».

فهذه هي الوهدةُ السحيقة التي خاف علينا منها بكر بن عبد الله، فانبرى ينذرنا، هاتفًا يحذرنا:

إذا رأيتم الرَّجُلَ مُولَعًا بِعُيوبِ النَّاس، نَاسِيًا لِعُيوبِه؛ فَاعلموا أنه قَد مُكِرَ به!

فَقَد يَقْضِي هذا بِشَرٍّ مِيتَةٍ سَهَا عنها الغَافِلُون، إعمالاً للقاعدةِ القرآنية: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢]!!

ولهذا لما جَاء رَجُلٌ إلى ميمون بن مهران يُخبره أن فلانًا يَذْكُرُهُ بِسُوءٍ؛ أَبَى سماع كلامه، أو الإنصاتَ له؛ خَشْيَةَ التَّوَغُّل في الطريقِ المَلْغُوم، وسبيلِ الغيبة المَشْئُوم، فَقَام صَارخًا في الرَّجُلِ كَأَنَّهُ يطلق النار:

أَمَا وَجَدَ الشيطانُ رسولاً غيرك؟!

ألم يجد الشيطان وعاءً ينقل النتن من القول إليَّ سواك؟!

وَهَذَا مَا جَعَلَ الإمام البُخاري يقول:

والله مَا اغتبْتُ مُسلِمًا منذ أنْ سَمِعْتُ أنَّ اللهَ جَلَّ جلالُهُ يَنْهَى عَنِ الغِيبَةِ!!

شُبهَةٌ شيطانيةٌ:

كثيرًا ما كنت أنصح مُغتابًا أمامي أن يَتوَقَّفَ عن غِيبَتِه، وَيتوبَ من ذنبه؛ فَأَجِدْهُ يبرر سيئته بقوله: إني لا أقول إلا صدقًا، وكلامي موجودٌ في فلانٍ حقًا.

فَاجْتَهَدْتُّ أن أُسْكِتَهُ وأمثالَهُ بِكَلِمَةٍ واحدةٍ، تُبَدِّدُ أعذارَهُ الفاسدة، إلى أن وجدت بُغْيَتِي، فَأَضْحَت الغيبة عندي هي:

الصِّدْقُ الحَرَام

فَإِنَّ الله تعالى خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ، وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الصِّدْقِ، فَلا يقولوا إلا حقًا، ولا يَنْطِقُوا إلا صِدْقًا، إلا أن هناك صدقًا قَائِلُهُ عَاصٍ، والمتكلمُ به آثِمٌ.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديثِ أَبي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ»؟ قَالُوا: اللهَّ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ».

رسالة الحديث:

إنَّكَ إنْ قُلْتَ كلامًا صَائِبًا عن أخيك إلا أنه يكرهُهُ؛ وقعت في غِيبَتِهِ، وكنتَ من العَاصِين الآثمين، الذين يلاحقهم حديث النبي ﷺ: «الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبعُونَ بَابًا أَدْنَاهَا مِثلَ إِتْيَانِ الرَّجلِ أُمَّهُ، وَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةَ الرَّجلِ فِي عِرْضِ أَخِيْهِ»[(١)].

أخي الطيب:

إنَّ الوَقِيعَةَ فِي أَعْرَاضِ المُسْلِمينَ عَمَلُ المُنَافِقينَ الجُبَنَاء، والذبَّ عنها سِمَةُ الأَصْفِيَاء، وكلٌّ إلى جِنْسِهِ يَحِنُّ، ولأعراض إخوانه إمَّا خائنٌ أو مُؤتَمن.

وَلِهَذَا تجد صَفيَّ الله ووليَّهُ يَتوقَّى الغيبةَ توقِّيهِ مِنَ الخَسَاسَةِ وَالنَّجَاسةِ، يَأْبَاها كَمَا يَأبَى الخَمْرَ أن تُدارَ فِي فِيهِ، وينكر على من يذكر أحدًا بِسُوءٍ فِي مَجْلِسِهِ، ولو كَان مِن أَعَزِّ صُحبته ومُحِبِّيهِ، بَل قَالَ الإمامُ مُحمَّد الأمين الشنقيطي:

وَالله لَقتل أولَادِي، ونهب أَمْوَالِي؛
أَهون عِندِي مِنَ الغيبةِ التي تأكلُ حَسَنَاتِي بعد أن أَتْعبَت رَجلاً كَبِيرًا مِثْلِي!!

ولقد مررتُ يومًا فِي رحلةِ الحج بقريةٍ نائيةٍ، فالتمست وإخواني أعرابيًا نَبيتُ عنده، فَأَنْزَلَنَا مَنْزِلاً يَعْوِي منهُ الكلبُ، وأَغلقَ علينا بَابَ البَيت، فَبِتْنا ليلةً لا أعادَ اللهُ علينا مثلَهَا، حتى كان صُبحُهَا أحبَّ غائبٍ عنَّا، ووالله الذي لا إله إلا هو ما سألتُ عن اسمه، ولا اسم أبيه؛ خشيةً مِنَ الوُقُوعِ فِيهِ!!

قومٌ إذا مرَّ الزمـــانُ بِذِكرِهم ... وَقَفَ الزَّمَانُ لهم مُجلاًّ ومُكَبِّرًا
حتَّى ظَنَنَّا الشافعـــيَّ ومَالكًـا ... وأبا حنيفةَ وابنَ حنبلٍ حُضَّرا

(١) المنذري/ الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (٢٨٥٣)، وقال الألباني: صحيح لغيره.

أخي..

إن ابتُلِيتَ بِمَجلس غيبةٍ فَأنكر بيدك إن كانت لك وِلاية، وإلا فَبِلِسَانِك، فإن لمْ تَسْتَطِع فَبِقَلْبِكَ، وحينها حَرِّم الإصغاءَ عَلَى نَفْسِك؛ لِتَكُونَ مَعَهُم حَاضِرًا غَائِبًا، يقظانَ نَائِمًا، تَسمَعُ كلامَهُم ولا تستمع لهم، تنظرُ إليهم ولا تُبصرهم، قد انشغَلَ قلبُكَ بالله جل جلاله، وعظمتِهِ وكَمالِه.

ويعلم اللهُ لو أنَّ المُغتابَ لو وَجَدَ من يَصُدُّهُ لَمَا استرسل؛ لكنَّ بِضَاعَتَهُ نَفَقَتْ فَأَكْثَر، لكنْ لا ضَير؛ فقد مضت سنةُ الله تعالى أنَّ من هتكَ عِرضَ مُسلِمٍ بغيرِ حَقٍّ أن يُبتلى بِسُوءِ ذَنبِه، وقد يُختم له بِسُوءٍ يوم مَوتِه، والطِّيْنُ يَزدادُ بلةً إن أَكَلَ العبدُ لحمَ عُلَماءِ أُمَّتِه.

قال ابنُ عساكر:

وعادةُ الله في من أطلقَ لِسَانَهُ في العُلماءِ بالثَّلْب؛ أن يبتليَهُ قبلَ موتِهِ بِموتِ القَلْبِ؛ ذلكَ أنَّ الله جل وعَلا جَعَل علومَ العلماءِ مُكَرَّمَةً، ولحومَهُم مُسَمَّمَةً، من شَمَّهَا مَرِضَ، وَمَن لَاكَهَا مَاتَ، ولا يقَعُ فيهَا إلا من شَعَرَ بِضَآلَةِ نفسِهِ، فَسَعَى لِهَدْمِ قمم أُمَّتِه؛ لِتَتَساوى الرؤوسُ مَع الحُفَر، وأنَّى لَهُ ذلك!

نداء.. نداء:

إلى من تَعِبَ ونصب، لكنَّه أضاعَ حسناته وفرائضه ونوافله بالغيبةِ بِلا حِسَابٍ ولا عَدد، وَقَد أَفَادَ لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَفِد؛ والله لَتُعَاتَبنَّ، وتُحَاسَبنَّ، وَتُعَاقَبنَّ!

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لتؤدنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ**»[١].

فَإِلَى أَصْحَابِ القُرونِ التِّي يَنطَحُونَ بِهَا إِخْوَانَهُم، افْعَلُوا مَا يَحْلُو لكم؛ فإنَّ من ورائِكم ساعةً تُحَدِّثُ الأرضُ فيهَا أَخْبَارَهَا، ومَا جَرَى مِنْكَ عَلَى ظَهْرِهَا، ويومَها الويلُ كلَّ الوَيْلِ لِمَنْ زَلَّتْ قَدَمُهُ ولم يَتُب، فَأَقْلِع الآن عن الذَّنْبِ، وكُفَّ عن العَيبِ، وانْدَمْ؛ فإنَّ النَّدَمَ توبةٌ، والتَّائِبُ من

(١) صحيح مسلم (٨/ ١٨).

الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنبَ لَهُ[١].

اقبل من جاءك معتذرًا:

يحسنُ باللبيبِ إن اعتذرَ إليهِ أخوهُ لجُرمٍ مَضَى، أو تَقصيرٍ انقَضَى، أن يَقْبَلَ عذره، ويُقِيلَ ذنبه، بل لكأنه لم يُذنب، أولا ترى أنك حين تطلبَ عفوَ رَبِّك؛ أنك تَضِيقُ ذرعًا لو خَذَلَكَ وَرَدَّكَ؟!! فلم تخذل إذن من جاءك معتذرًا[٢]؟!! قال الإمام الشافعي:

اقبل معـــاذيـر من جـاءك معتذرًا ... إن برَّ عنـدك فيما قـــال أو فجـرا

فقد أطاعك من يرضيـــك ظاهره ... وقد أجلَّك من يعصيك مستترا[٣]

وقد أُعجبتُ بابنِ بازٍ لَمَّا جَاءَهُ رجلٌ وقال له: يا شيخ لقد اغتبتك فَحَلِّلْنِي، فقال الشيخُ رحمهُ الله:

ظَهرِي حلالٌ لِكُلِّ مُسلمٍ!

بل قيل له في محاضرةٍ عامة: إنَّ الشيخَ فلان يقول: إنك مُبتدعٌ فَماذا تَقُول؟

قال: هُوَ عَالِمٌ مُجتهدٌ!

أحبتي في الله..

إنَّ الغِيبَةَ آفةُ الزمان، وَبِذْرَةُ الخِصَامِ بين الخُلَّان، المُؤَدِّي للقَطِيعةِ بَينَ الإِخْوان، هذه القطيعةُ التِّي لو مَاتَ صَاحِبُهَا قَبلَ الخَلاصِ منها؛ لخشينا أن تكون ميتَتُهُ ميتة أَشْرار، فَيكُونُ غدًا من أَهْلِ النَّار.

وما أقول هذا مبالغةً؛ فقد أخرج أبو داود في سننه بسندٍ صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ»**[٤]!!

---

(١) ذكرت في المبحث الخامس كيف تتوب من الغيبة ص(١٤٨).
(٢) المؤلف/ سراج الغرباء إلى منازل السعداء، سنة: «أطايب الأنفاس في عز العافين عن الناس» ص (٢٨٤).
(٣) ديوان الشافعي ص (٦٠).
(٤) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٩١٤)، ص (٧٣٧)، وقال الألباني: صحيح.

فَهَلَّا عَقَدْتَّ مع الله عَقْدًا يَحْسِمُ البَلِيَّةَ، ويُصْلِحُ الطَّوِيَّةَ، على أَلَّا يكونَ للشيطان فيه حُضُورٌ؛ لِتكونَ من ذوي الخَواتيم المَصُونَةِ، والميتات الفاخرةِ المَيمُونَة.



الخاتمــة مِن جنْــسِ العَمَل



أَذْكُرُ لك فِي كَنَفِ هذا العنوان نماذجَ ستةً؛ لِنِهَايَاتٍ سيئة؛ لئلا نكونَ من أهلها، ولا نَقْتَرِفَ أعمالَهَا وأفعالَهَا، فَتَأَمَّلْ ما خَطَّتْهُ اليَد، فَفِيهِ العبرةُ وَفِيه الرُّشْد.

١) عامرُ بن الطفيل:

جلس النبي ﷺ في مجلسه الكريم، بعدما انتشر الدِّيْن، وَوُحِّدَ ربُّ العالمِين، فَأَقبلَ أحدُ رؤساء العرب، مِمَّن له في قومه منعةٌ وقوةٌ، أقبل عامر بن الطُّفَيْل، كان قومه يقولون له: يا عامر؛ إن الناس قد أسلموا فَأَسْلِم؛ فَيَرُدُّ عليهم بِكِبْرِيَائِهِ قائلاً لهم:

كنت قد أقسمت ألا أموت حتى تَجْعَلَنِي العربُ مَلِكًا عليها، فَكَيفَ أَتَّبِعُ هذا الفتى من قريش؟

إلا أنه لما رأى عِزَّ الإسلام، وطاعة الناس للنبي عليه الصلاة والسلام؛ ركب ناقته مع بعض صَحْبِهِ، ومضى إليه.

دخل المسجد والرسول ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم، فَلَمَّا وقف بين يدي النبي ﷺ قال: يا محمد، خَالِنِي، أي: قِفْ معي على انفراد.

فقال له النبي ﷺ -وكان حَذِرًا من أمثاله- لا؛ حتى تُؤمِنَ بالله وحده.

فقال: يا محمد، خَالِنِي، والنبي ﷺ يأبى.

فلا زال يُكَرِّرُ حتى قام معه النبي ﷺ؛ طمعًا في هدايته.

وإذ بِعَامرٍ يَجْتَرُّ معه أحد أصحابه، واسمه «أَرْبَد»، وكان قد اتفق معه على أنه سَيُشْغِل النبي ﷺ، على أن يقوم هو بِضَربِهِ بِالسَّيفِ، فَجَعل «أَرْبَد» يده على سيفه، ولما انفرد عامرٌ بالنبي ﷺ يكلمه أراد «أَرْبَد» أن يَسْتَلَّ سيفَهُ؛ فَيَبُسَت يَدُهُ.

فَغَمَزَ عامرٌ صاحبه، لكنه جامدٌ لا يتحرك!

وهنا الْتَفتَ النبي ﷺ فَرَأى مَا يصنعُ «أَرْبَد» فقال: يا عامر بن الطفيل؛ أَسْلِم.

فقال: وما تجعل لي إن أسلمت؟

فقال النبي ﷺ: لا أعدك الآن بِشَيءٍ.

فأراد عامرٌ أن يُحدِّدَ شيئًا بِعَينِهِ؛ فقال: أُسْلِمُ على أن لك المَدَر ولي الوَبَر، أي: أكون ملكًا على البادية، وأنت تَمْلِكُ الحَاضِرَة.

فقال له النبي ﷺ: ليس ذلك لك ولا لِقَومِكَ، إلا أن تُسْلِمَ إسلامًا صَحِيحًا، ثُمَّ أُعطِيكَ أَحدَهَا.

عندها غَضِبَ عامرٌ وتغيَّرَ وجهُهُ، وصاح بأعلى صوته: واللاتِ والعزى لا أسلمتُ إليك أبدًا، ولَأَمْلَأَنَّهَا عليك يا محمدُ خَيْلاً وَرِجَالاً، ولأغزُوَنَّكَ بغطفان، ثم خرج يُرْعِدُ ويُزْبِدُ والنبي ﷺ ينظر إليه، ثم رفع بصره إلى السماء وقال: الله اكفني عَامِرًا، واهْدِ قومَهُ!!

أما عامر؛ فإنه فارق المدينة مع صحبه متوجهًا إلى ديار قومه، عازمًا على تجهيزِ جيشٍ يَغْزُو بِهِ المدينةَ، إلا أنه في الطريق تَعِبَ من السَّيْرِ، وظهرَ عليه الإرهاق، فَبَحَثَ عن مكانٍ يستريح فيه، فَصَادفَ امرأةً من قومه تدعى «سلولية» وكانت امرأة فاجرة، يذمها الناس، وَيَتَّهِمُونَ من دخل بيتها بِالفَاحِشَةِ والفجور.

إلا أن عامرًا لم يجد مأوىً آخر؛ فَنَزَلَ عن فرسه مضطرًا، ونام في بيتها، فَأَخَذَتْهُ غُدَّةٌ انتفخت بها حلقه، -والغُدَّةُ مَرَضٌ يظهر عادةً في أعناق الإبلِ حتى يَقْتُلَهَا- فَفَزِعَ عامرٌ واضطرب، وجعل يقول فزعًا:

غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البعير، وموتٌ في بيتِ «سلولية»!!

كان يتمنى الموت ميتة الأبطال في ساحة القتال؛ فإذا به يموت بمرض حيوانات، في بيت فاجرة، فَلا المِيتَةُ شريفة، ولا هو في بيتِ عفيفةٍ نظيفة!!

تبًّا لَمَنْ تَعمى بصيرةُ رأيِهِ!

إن الله تعالى عاقَبَهُ بِنَقِيضِ مقصودِه، وفَواتِ مَطلُوبه، فَلَمَّا كَفر طلبًا لِعِزَّته؛ سَرْبَلَهُ الله في مَهَانَتِهِ وذِلَّتِه!!

فما نفعه كِبْرُهُ، وما استفاد من عُجْبِهِ، وقد حاول جاهدًا أن يستدرك نفسه، فأخذ يصيح

بِصَحْبِهِ: قربوا فرسي، فقربوه، فَوَثَبَ على فرسه، وأخذ رمحه، وصار يجول به الفرس، وهو يصيح من شدة الألم، ويتحسس عنقه، لَكِنَّهُ يقولُ من جديدٍ:

غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البعير، وموتٌ في بيتِ «سلولية»!!

ولم تزل به حالته حتى سقط عن فَرَسِهِ ميتًا، وتركه أصحابه، ورجعوا إلى قومهم، فَلَمَّا دخلوا ديارهم أقبل الناس إلى «أَرْبَد» يسألونه عن رحلته عند محمد ﷺ.

لكنه لم يستفد من درسِ عامر، وراح يقول لهم بِتكَبُّرٍ: لقد دعانا محمد إلى عبادةِ شيء؛ لَوَدِدْتُّ لو أنه عندي الآن فأرميَهُ بالنَّبْل حتى أقتله.

سبحان الله، ما أجرأه على الله، تعالى الله عما قال عُلُوًّا كَبيرًا كبيرًا.

فَخَرجَ بعد مقالته بِيومٍ أو يومين معه جملٌ له لِيَبِيعَهُ، فَأَرسَلَ الله عليه وعلى جَمَلِهِ صاعقةً فأحرقتهما، وأنزل الله ﷻ في عامر وأربد [٨ آيات] من سورة الرعد، منها:

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ [الرعد: ١١-١٣][١].

أخي..

إن الكِبْرَ بِذْرَةٌ قَذِرَةٌ، تُؤْتِي عقابَها في لحظةٍ قَاصِمَةٍ، ليس للندم حينَهَا حُضُورٌ أو قائمة، إنَّها لَحْظَةُ الخاتمة، فَتَبَرَّأْ منه لِتَفُوزَ بِنَفْسِك سالمةً غانمة.

تخيل لو أن الناس اعتادوا رَدَّ الحَقِّ، والتكبرَ على الخَلْقِ، فَلَن يتفاهموا على مسألةٍ قط؛ إلا بِالقَهْرِ على البَاطل، وفي منثور الحكم: ما لم يجتمع الناس على حقٍ؛ فَلَن يَجْتَمِعُوا عَلَى باطل[٢].

٢) فرعون:

قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ

(١) استمتع بحياتك ص (٥٥٣-٥٥٨)، والقصة ذكرها أبو نعيم في معرفة الصحابة برواية أخرى (٣/ ١٦٤٠).
وآيات سورة الرعد من الآيات [٨-١٤].
(٢) سعيد حوى/ المستخلص في تزكية الأنفس ص (١٩٥).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١].

رسالة الآية:

لما أعلن فرعونُ أنه في الأرض إله، كُفْرًا بِمَولاه، الذي فطره وسَوَّاه؛ طُولِبَ بالدليل، فَرَدَّ المخذولُ بِجَوابٍ عَلِيل، قائلاً: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ فَافْتَخَرَ بنَهرٍ يجري من تحته ليس هو من أَجْرَاه؛ فَأَجْرَاهُ الله من فوق رأسه وأخزاه[1]، وقد كتب ابنُ عَطَاء الله السكندري لافتةً ذهبية فيها كلامٌ ما أحلاه، وما أبهاه:

«مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى شَيءٍ سِوَى اللهِ؛ كَانَ هَلاكُهُ فِي نَفْسِ مَا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ»!!!

وهكذا جُوزِيَ بِنَفسِ الدَّعوى التي رَفَعها شِعَارًا إليه، لِيَمُوتَ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ.

٣) قارون:

كان هناك رجلٌ من قوم موسى يدعى «قارون»، أَنْعَمَ الله عليه بِخَيراتٍ عميمة، وكنوزٍ عظيمة، حتى أضحت مَضْرِبَ المثل في زمنه، لكنه كان إذا سُئِلَ عنها لم ينسب الفَضْلَ لِرَبِّه، بل يَدَّعِي أنها ميراثُ علمه وتَعَبِه، وبهذه العقيدة الخَرِبَة؛ كان إذا سار في موكَبِه؛ افتُتِنَ النَّاسُ بِه، حتى قال الذين يريدون الحياة الدنيا من ضِعَافِ الإيمان: إن قارون لَذُو حَظٍّ عظيمٍ، وخَيرٍ عَمِيم!

وحضرت العقوبة:

لكنَّ سُنَّةَ الله جل وعلا تمهل المتكبر ولا تُهمِلُهُ، فلما اخْتَال قارون فِي زينته، وتمادى في أَذِيَّتِهِ، وتَقَلَّدَ نِعَمَ الله تعالى، ثم نسبها لذاته، وراح يبغي على موسى ومن معه؛ أَخَذَتْهُ الأرضُ التي تكبَّر عليها إلى كعبيهِ ثم ركبتيه، إلى أن أخذت سُرَّتَهُ وعُنُقَهُ ثم كُلِّيَته!

قال قَتَادة: يُخْسَفُ به في الأرض كلَّ يوم قَامة، يَتجلْجَل فيها لا يَبلُغُ قَعرها إلى يوم القيامة[2]!!

وأثبتَ الله هذه الخاتمة الشَّنِيعَة، في دُسْتُورِ الشَّريعَةِ، بِأَلفاظٍ مُؤَثِّرةٍ بَدِيعَةٍ: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ

---

(١) الجملتان الأخيرتان من تعبير الدكتور عائض القرني في مقاماته.

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٦٢٩-٦٣٢)، المناوي / فيض القدير (٣/ ٥٨٤)، وقيل: هو رجل آخر غير قارون يقال له: «الهيرن»

ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١].

رسالة الآية:

في لَمحَةٍ خاطفةٍ، وجملةٍ قصيرةٍ خَاسِفَةٍ، هوى قارون في بطن الأرض التي علا فيها، واستطال فوقها، جَزاءً وفاقًا[١]؛ لِيُخْتَمَ للمتكبرِ بِنَقِيضِ مقصودِه، وخلافِ مطلوبِه؛ لِيَبْقَى بِالخَسْفِ عِظَةً لكل القُرُون، ولكن أكثر الناس لا يفقهون، وفي غفلتهم لا يعقلون!!

وختم الله تعالى قصته بِحِكْمَةٍ قرآنيةٍ لِعُمومِ الآدميين: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣]!!

٤) بنو إسرائيل:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة:٦٥].

رسالة الآية بلسان ابن عثيمين:

إن هؤلاء المتحيِّلين فعلوا شيئًا صورتُهُ صورةُ مباح، ولَكِنَّ حَقِيقَتَهُ غير المباح، فَعَاقَبَهُمُ الله بِصُورةِ القِرْد؛ فَإِنَّهُ شبيه الآدمي، ولَكِنَّ حَقِيقَتَهُ غيرُ الآدمي، فَجاء جزاؤُهُم من جنسِ عملهم، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل:٣٣، ٣٤].

٥) معمر القذافي:

ولي «القَذَّافِيُّ» أمر ليبيا فوق [٤٠ عامًا]، ملأ فيها بلاده قتلاً ونهبًا وظلمًا، تَكَبَّرَ على رَعِيَّتِهِ، وعلى الشريعة حتى كَتَبَ الكتابَ الأخضر، على أن فيه صلاح البشر، ورفعة الأمة في سياستها واقتصادها، فضلاً عن خَلاصِ الأرضِ من عنائِهَا وفقرِهَا.

فَلَمَّا قامت رعيَّتُهُ تطلب حَقَّهَا، أعمل فيها السيف لِقَتْلِهَا وسَحْقِهَا، وتوعدهم أن يضطرهم

---

(١) سيد قطب / في ظلال القرآن (٥/ ٤٤٥)، تفسير الشعراوي (١/ ٢٠٢٢).

من «زَنْقَةٍ» إلى «زَنْقَةٍ»[(١)]، واتهمهم أنهم كَالجِرذَان تَفِرُّ منه، وقد أراد أن يشتري -سلفًا- قبرًا بمبلغ [٥٠٠ مليون دولار]؛ ليكون مَزارًا يزار كما يزار قبرُ محمد ﷺ.

فَيَا حَسْرَةً على مخدوعٍ ما فاق حتى أناخت مطاياه في قَاعِ المَعَرَّةِ، وداهمه الخِزْيُ كرةً بعد كرة، فإن القذافي قُتِلَ كما قَتَلَ، وَدَّ أنْ لو حَصَرَ رعيَّتَهُ في زَنْقَةٍ؛ فإذَا هو واقعٌ فيها، لمَزَهُم بالجِرذان؛ فإذا هو ساكن في سِرْبِهَا، حتى قضى ذليلاً بعد عِزَّةٍ، قليلاً بعد كَثْرةٍ!

ولما بلغ الشيخ عبد الحميد كشك خبر القبر راح يتكلم قبل أكثر من [٢٠ سنة] بِنُورِ الله، وإلهامٍ مِنَ الله أن التراب سيأبى أن يأكله، والمقابرَ لن تَسْتَقْبِلَهُ، بل لن يَجِدَ النَّاسُ له قبرًا يزورونه،، وشاء الله جل جلاله أن يُقْبَرَ المَخْذُولُ في موضعٍ مجهولٍ، ولم يعرفِ الناس له قبرًا، ولا عُنْوانًا ولا قَرارًا!!

٦) قوم ثمود:

قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

رسالة الآيتين:

إن ثمود التي أرست قواعد حضارتها بدورٍ وقُصُورٍ وصُخور، لم تمض عليهم إلا أيامٌ أو شُهور، وإذا بالدائرة عليهم تَدور، حتى دمرهم اللهُ بِذَاتِ الصخور، وختم حياتهم بِصَاعقةِ العذاب والثُّبُور، وَهَكَذَا لَمَّا كَذَّبَتْ بِالنُّذُر؛ جَعَلَهَا اللهُ تَعالَى كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ!!

تبًا للمَهَانَةِ والذُّل، ألا ترى أن مشهدَ الخَاتِمَةِ كان من جِنْسِ مَشهدِ العَمَل؟!!

إخوتاه..

إنَّ مَن تكبَّرَ ابتغاءَ رِفعتِه، وَعُلُوِّ رُتْبَتِه؛ نَكَّسَ اللهُ هَامَتَه، وَزَادَ الناس فِي مَذَمَّتِهِ وحَقَارتِهِ!

(١) أي: سيلاحق قومه في كل شارع ولو كان ضيقًا، ومن الأزقة الداخلية، لكنني أوردت عبارته التي كان يستعملها.

أما إذا تَواضعَ العبدُ كَاتمًا قَدْرَهُ، رَفَع اللهُ سِعْرَهُ، وَجَعل مَجده فِي الناس قَائمًا، وَذِكْرَهُ فيهم دَائمًا، فَحَيثُ ظَنَّ سُقوطَ القيمة؛ كانت الرفعةُ العظيمة، والوَجَاهةُ المُسْتَدِيمَة، أَلَا تَرَى أَنَّ التُرَابَ لَمَّا تَواضَعَ لأَخْمَص القَدَمِ؛ أَصبحَ طَهُورًا للوَجْهِ؟!

أخي..

أَعْلِن تواضعك للعَلِيِّ القدير، ثم تَوَدَّد إلى عَبْدِه الصَّغِير، وَوَقِّر الكبير، فَكُلُّ ذَرَّةٍ من تواضعك؛ تَمْنَحُكَ توفيقًا في صورةِ خاتمتك!

أما من خُدِعَ بِشَهادَتِهِ، واغتر بِرُتبتِهِ ووجاهته، حتى أَنِفَ أن يُبَاشِرَ الناس بِالسَّلام، أو أَلِفَ نَقْدَ الأَنَام، ثُمَّ يغضب من النصيحة، بينما يكثر لِنَفْسِهِ المَدِيحة، إنْ جالسته سَرَدَ لك مواقفه، ومهاراته ومناقبه؛ لِيُرِيَكَ حُسْنَ بلائِه، وفطنتَهُ وذكاءَهُ، فَهذا أخشى عليه المَذَلَّةَ ساعة الموت، وحينها أَنَّى له البراءةُ من الذنب، وإعلان التوب؟

فَالكِبْرُ داءٌ خطير، وشرٌ مُستطِير، فَهَنِيئًا لك، ثم هنيئًا لك؛ إن اطَّلَعَ اللهُ على قلبك، ولم يَجِد ذَرةً مِن كبرٍ عندك!

أورد المنذري في ترغيبه وترهيبه بِسَندٍ صحيحٍ من حديثِ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بعمله، سَمَّعَ الله بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ»(١)!!

رسالة الحديث:

إذا أراد العبدُ أن يُظْهِرَ للناس وجاهته ورفعته، فَرَاحَ يرفع من سِعْرِهِ ورتبتِهِ؛ لِيَعْظُمَ عندَهُم، ويعلو في أعينهم؛ أَظْهَرَ الله مساويه التي أخفاها عنهم، فَازْدَرَتْهُ أعينُهم، فَفَات مقصودُهُ منهم، فهذا لا يُثاب على مقالته، بل يزيد الناس في ذِكْرِ مَذمَّتِهِ، وصغاره وَحَقارتِهِ(٢)!!

---

(١) المنذري/ الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (٢٥)، (١/ ٧) وقال الألباني: صحيح.
(٢) الكلاباذي/ بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار (١/ ٣٢٢).

وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون



قَال الشيخ أسامة الغامدي:

دُعِيتُ إلى أحد السجون لإلقاءِ محاضرة، فألقيتها، ثم طُلِبَ مني مناصحةَ سَجِينٍ قَتَلَ أُمَّهُ - والعياذ بالله-، فَحُكِمَ عليه بالقِصَاصِ منذ سنواتٍ أربعة، ولم يَبْقَ على تنفيذه سوى ثلاثةِ أشهرٍ تقريبًا، وأخبرني الإخوةُ أَنَّهُ لا يُصَلِّي إطلاقًا، فَكَلَّمْتُهُ بِحِكْمَةٍ، وقلت له: لَعَلَّكَ صليت منفردًا فَلَمْ تُصَلِّ معنا!

قال: أنا لا أصلي، ولا أعبد الله. تعالى الله عما قال علوًا كبيرًا.

فَحَاولتُ معه بِكُلِّ الوسائل فلم أُفلِح، ثم طردني، فَخَرَجْتُ من عنده متأثرًا، فَوَجَدْتُ الإخوةَ ينتظرون النتيجة، فَقُلْتُ لمسئول اللجنة الدينية: إذا جاء موعد قصاص هذا الشخصِ فَادْعُنِي؛ حتى أَرَى كيفَ تكونُ خاتمتُهُ؟

ثم سألتُ عنه: هل هو مختلٌ عقلياً؟

فأخبروني أنه مُعافى، بل ما أُخِّرَ تنفيذُ الحكم طيلة هذه المدة إلا للتأكد من حالته.

وبعد قرابة شهرين اتصلَ بي المسئولُ وأخبرني أن غدًا موعدَ القِصاص.

وَكُنْتُ في الموعد المُحَدَّدِ حاضرًا، فاقتربت منه أَنْصَحُهُ ألا يفتُر لسانُهُ عن ذكرِ الله، وَذَكَّرْتُهُ بِحَديثِ النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخرُ كلامِهِ لا إله إلا الله دَخَلَ الجَنَّة**».

ثم قلت له مُقْتَرِحًا: ما رأيك لو قمتَ وصلَّيتَ ركعتين لله ﷻ؟

فَأَخذ يسخرُ مني، ومن كلامي، ثم سأل: متي سوف يُنَفَّذُ القِصَاصُ؟

فقال أحد الضباط: بعد صلاةِ الجمعةِ.

فقالَ: لا زالَ الوقتُ مبكراً أحضروا لي دُخَّانًا مع كأسٍ من الشاي.

ثم سبقْتُهُ إلى مكانِ القصاصِ، وقلت لأحد المسئولين: لِمَ لا تُذَكِّرُهُ بِكَلِمَةِ التوحيد؟!.

فأجابني بقوله: هذا لا تَهْتَمُّ لأجلِهِ؛ فَقَدْ قال للقَاضِي بِأَنَّهُ نصراني، ولم يقتلْ سوى إبليس!!

-يعني أمه-!!

ثم قُدِّمَ للقصاص، فَقُلتُ له: قُلْ لا اله إلا الله، فلم يَقُلْهَا، وكَرَّرْتُهَا عليه أكثر من خمسِ مراتٍ، فَلَمْ يَنْطِقْ بِشَيءٍ!!

عندها صاحَ عليهَ من حوله من الضباط: انطقْ الشهادةَ؛ فَأَخَذَ يتكلمُ وَيُتَمْتِمُ بِكَلامٍ غيرِ مفهوم، ولم أعلمْ هل نطق بِالشَّهَادَةِ أَم لا؟

ولما حانت لحظةُ خروج الرُّوح أَخَذْتُ أراقبُهُ، إلا أن شَفَتَيهِ لم تَتَحَرَّكَا بِشَيءٍ[١].

أيُّ خِتَامٍ وخُذلان هذا؟

لكنها العدالةُ الإلهِيَّةُ التي تَقْضِي بِأَنَّ الخَاتِمَةَ تأتي من جنس أعمالِ العبد، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]!

وَحُقَّ لنا أن نقول لهذا ومن على شاكلته ما أثبته ابنُ القَيِّم في تقريره القيم بِلِسَانِهِ القيم حول القاسية قلوبهم:

إنَّهم لَمَّا كَثُرَت ذنوبهم أحاطت بِقُلُوبِهم، وما ضُرِبَ عبدٌ بِعُقُوبَةٍ أعظمَ من قسوة القلب، والبعد عن الرب، بل ما خَلَقَ اللهُ النَّار إلا لإذابة القلوبِ القاسيةِ الحجريةِ، التي لا يَنْطَبِعُ الحَقُّ فيها، ولا تَقْبَلُ ما يُبَثُّ إليها، فَمَن لم يَذُبْ قلبُهُ من خشية رَبِّهِ في الصَّلاة؛ ذاب قلبُهُ غدًا في عذاب الله[٢].

لكن فقيه الشافعية ابن رسلان الرملي استدرك ناصحًا، وفي زبده هتف بك صادحًا:

فَكُن من الإيمــــان في مزيـدِ ... وَفِي صَفَـاءِ القلب ذا تجـديـدِ
بِكَثْرَةِ الصَّـــلاةِ والطـــاعاتِ ... وتــرك ما للنَّفْسِ من شَهَواتِ
فَشَهوةُ النَّفْسِ مـع الذُّنُــوبِ ... مُوجِبَتَــانِ قســوة القلـوبِ
وإِنَّ أَبْعَـدَ قلـوب النـــاسِ ... من ربنا الرحيم قَلْبٌ قَاسِ[٣]

(١) أسامة الغامدي/ كيف تغسل ميتا؟ ص (٤٠). بتصرف.
(٢) ابن القيم / الفوائد ص (٩٧،١٣٢)، الجواب الكافي ص(٣٩)، شفاء العليل ص (١٩٢).
(٣) ابن رسلان/ صفوة الزبد (متن فقهي شافعي)، المقدمة، فقرة: مقدمة في أصول الدين ص (٣٤،٣٣)، ط. دار المنهاج.

إخوتاه..

إنَّ الله تعالى أَوْصَلَ لنا الدين كُلَّه بأحكامه وتكاليفه، وكتابه المنزلِ بِوَاسِطةِ جبريلَ إلى نبينا ﷺ، إلا تكليفًا وَاحدًا، فَلَمْ يُرسِلْهُ بِوَاسِطَةِ جبريل؛ بل استقدم له مُحَمَّدًا ﷺ، ورفعه عنده فوق سبع سماوات؛ لِيَأمُرَهُ به، ويُرِيَه عجائب الآيات، إنَّهُ الصَّلاة.. الصَّلاة!!!

أحبتي في الله..

رأى النبيُّ ﷺ رجلاً توضأ، فَبَقِيَ جزءٌ من عَقِبِ قدمه لم يَصِلْهُ الماء، فَصَعَقَ الرَّجُلَ بِبَرَقِ بَيَانِهِ، وقوله: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»!! أخرجه الشيخان في صحيحيهما.

وفي موطن آخرَ، صعق ببرق وعظه ثانيةً كُلَّ كَسُولٍ فاترٍ، يُدْمِنُ الصَّلاةَ في الصفوف الأواخر، يتهاون عادةً في الصف الأولِ، فقال: «**لاَ يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الأَوَّلِ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ**»!!! أخرجه أبو داود بِسَندٍ صححه الألبانيُّ من حديثِ عائشة رضي الله عنها.

اللَّهُمَّ سَلِّم!! اللَّهُمَّ سَلِّم!! اللَّهُمَّ سَلِّم!!

رسالة الحديثين:

أفاد الحديثُ الأول أن الجزءَ الذي لم يَصِلْهُ الماء سينالُهُ طَرَفٌ من نارِ جهنم يوم القيامة، فَكَيْفَ بِمَنْ تَرَكَ الوضوءَ كليةً، ولم يَسجُد لله سجدةً؟!!

وأفاد الحديث الآخرُ أنَّ من أَدمَنَ التَّأَخُّرَ عن الصَّفِّ الأولِ؛ أَخَّرَهُ اللهُ إلى النَّارِ يوم الفَصْل، فَكيفَ بِمَن لم يَصِل المسجدَ قط، أو لا يأتيه إلا يوم الجُمُعَةِ فقط؟!

يَا هَاجِرَ الصَّلاة أو الصف الأَوَّلِ، تُبْ إلى رَبِّكَ دون أن تُبَرِّرَ أو تَتَأَوَّل، أَمَا تخشى قبيحَ الخاتمة، وشنيعَ العاقبة؟ والله لتموتَنَّ على ما عشت عليه، وبلغت إليه، فَعُدْ إِلَى مَولاك على عَجَلٍ، قبل أن تُبَاغِتَكَ المَنِيَّةُ وَيَحْضُرَكَ الأَجَلُ.

قال أحد الفضلاء:

توجَّهْنَا في رحلةٍ دعويةٍ إلى الأردن، بِصُحبَةِ عالم كويتي، وثلةٍ كريمةٍ من طلبة العلم، وشاء الله لنا أن نُصَلِّيَ الجمعة يومًا في مسجدٍ بِمَدِينةِ الزَّرْقَاءِ، وبعد تمام الصلاة أطلنا الجلوس في

المسجد، حتى لم يَبْقَ فيه سوانا، وبينما نحن كَذَلك؛ وإذْ بِقَومٍ يدخلون المسجد وهم يصيحُونَ بِفَزعٍ: أين الشيخ؟ أين الشيخ؟

فقال لهم الشيخ الكويتي: ما شأنكم؟

قالوا: يا شيخ عندنا شابٌ تُوُفِّيَ صباحَ هذا اليوم عن طريق حادثٍ مروري، ولَمَّا حفرنا قبْرَهُ فُوجِئنا بِوُجودِ ثُعبانٍ عظيمٍ في القبر، وإلى الآن لم نَسْتَطِع دَفْنَهُ، وما نَدْرِي كيف نَتَصَرَّف؟

فَقَامَ الشيخُ ومن معه إلى المقبرة، قال الراوي: نَظَرْنَا في القبر فَوَجَدْنَا فيه ثُعبانًا عَظِيمًا قد التَوَى رأسُهُ في الدَّاخِل، وذَنَبُهُ في الخَارِجِ، وعينُهُ بارزةٌ يُطَالِعُ الناس!

قال الشيخ: دعوه، واحفروا له مكانًا آخر!

يقول: فَذَهَبْنَا إلى مكانٍ آخر بعد القبر الأول بـ[٢٠٠ متر] فَحَفَرنَا وبينما نحن في نهايته إذا بالثُّعْبانِ يخرج، فقال الشيخ: انظروا القبر الأول فإذا الثعبان قد اخترق الأرض، وخرج من القبر الأول مرة أخرى!

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا سَيَخْرُجُ الثعبانُ فَمَا لنَا من حيلةٍ إلا أن نُحَاوِلَ إخراجَهُ!!

فَانْطَلَقَ بعضُ الشَّبابِ وأحضَرُوا عصيًا وأسياخًا، ثم أخرجوه من القبر، لكنَّ الثعبان لم يُفارق شفيرَ القبر، حتى أُصِيبَ الناسُ بِذُعرٍ وخوفٍ، حصل لبَعضِ الناسِ إغماءٌ من شِدَّتِهِ، بل اضطُرَّ رجالُ الأمن أن يحجزوا الناس عن الوصولِ إلى القَبرِ، إلا من العُلماء وذَوي الميِّت.

وَمَا إن جِيء بِالجَنَازةِ، وأُدخل القَبْرَ، وإذ بالثعبان يتحرك بِحَركةٍ عَظِيمةٍ أثارت الغُبَار مِن شِدَّتِهَا، ثم دَخَل مِن أسفل القبر، حتى هَرَبَ مَن فِي القَبر مِن شِدَّةِ الخَوفِ، فَلَمَّا وَصَل الثُّعبانُ للميت التوى عليهِ، مُبْتَدِئًا من رِجْلَيهِ، حتَّى وصل رأسه، ثم اشتد عليه فَحَطَمَهُ، وكنا نسمع تَحطِيمَ عظامِهِ، وما استطعنا أن نفعل شيئًا!!

ثم أمر الشيخ بِردم التراب عليه، وتمامِ دفنه، ثم ذهبنا إلى والده لِنَسأَلَهُ، فَكَانت إجَابَتُهُ: إنَّ وَلَدِي كان طَيبًا مُطِيعًا لي، لَكِنَّهُ مَا كَان يُصَلي[1].

(١) رسالة عاجلة إلى المسلمين (٤٦/ ٥٠) نقلًا عن رحلة إلى الدار الآخرة للشيخ محمود المصري ص (٩٤-٩٥).

أخي الفاتر في الصلاة..

اعلم أن من أنكر فَرَضِيَّةَ الصلاة كان خارجًا عن مِلَّةِ الإسلام بِإجماعِ المُسلمين، أما من تَرَكَهَا كَسلاً فَإِنَّهُ يقتلُ عندَ جُمهور العُلَماءِ والمُحدِّثِين بَعدَ أن يُستتاب ثلاثة أيام، فإن لم يَتُبْ قُتِلَ!!

بل أنشأ ثلةٌ من العلماء على ذلك أحكامًا وقالوا:

إنَّ تاركَ الصَّلاة لا نُزَوِّجُهُ من بَنَاتِنَا، ولا نُوَرِّثُهُ من أرضنا، وإذا مات لا نُغَسِّلُهُ، ولا نُكَفِّنُهُ، ولا نُصَلِّي عليه، ولا نَدفِنُهُ في مقابرنا، ثم لا ندعو له بِمَغفرةٍ، ولا بِعفوٍ، ولا نسأل ربنا له الجَنَّةِ، ولا أن يُنَجِّيَهُ من النار!!

بل نقل ابنُ حزم عن عمرَ بنِ الخطاب وأبي هريرة وابن مسعود وابن عباس ﭫ أن من تَرَكَ صلاةً واحدةً عمدًا حتى خرج وقتُها؛ فَإِنَّهُ يكون كافرًا مُرتدًا، وهذا ما أَيَّدَهُ ابنُ بَازٍ رحمه الله تعالى.

فماذا تنتظر حتى تُصَلِّي؟!!

هل لابد من زِلزالٍ قاتلٍ يُداهِمُ قَرْيَتَكَ حتَّى تُقَرِّرَ الصلاة؟!!

أَيُشْتَرَطُ حتى تُصَلِّيَ أن ترى رؤيةً تُفزِعُكَ في المنام؛ حتى تعود إلى الله؟!!

أَيَجِبُ أن تتعرضَ لِحَادثٍ يَكْسِرُ قدميك، أو يُصيبُكَ بِداءٍ عُضالٍ في رئتيك، حتى تَفِرَّ هاربًا من ذنبك إلى بيت الله؟!!

أخي الطيب، أختي العفيفة..

أَنْتَ أَخِي وأَنْتِ أُخْتِي، وأنا أَخُوكُما، لَسْتُما من أُمِّي التي ولدتني، ولا أنا من أبيكم الذي وُلِدتم له، لكنِّي والله أَوَدُّ لَكُما سعادةً دنيويةً، وجنةً أُخْرَويةً، ذلك أن النَّجاةَ يومَ الخلود متعلقةٌ بِتَمامِ السجود، أمَّا من أبى فَإِنَّهُ من الهالِكِين، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]!!

فَأَدْرِك نفسك، وأَطْلِق عَهدًا قاطعًا وعَقدًا صَادقًا بينك وبين ربك، أَلَّا تترك الصَّلاةَ مَا حَيِيت، ثُمَّ أَخْبِر بِهَذا القرار أَهْلَكَ ومُحِبِّيك؛ فَإِن عَاد الفُتورُ إليك؛ كُنْتَ مُتَسَلِّحًا بِالجَماعةِ،

ثمَّ عليك بِمُنَاجاةِ رَبِّكَ والضَّراعَة؛ أن يرزقك الثباتَ حتَّى المات، والهدايةَ حتى النِّهَايةِ، ولا تَكْتَرِث بِعَوائقِ ذوي الغِوَاية؛ فَإنَّكَ قَوِيٌّ بِإيمَانِك، صَادِقٌ في أقوالك، وما زالت فِطْرتُكَ سليمة، وَمَحَبَّتُكَ لله حاضرةٌ مستقيمة.



المبحث الرابع

الخَاتِمَةُ الصَّامِتَةُ



تَــرَيَّثْ قَبْــلَ أَنْ تحْكُم

مَرَّ بنَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يموتُ مِيتَةً عَادِيَّةً؛ كَأَنْ يَموت على فِرَاشه نائمًا، أو يموت جالسًا أو ماشيًا، أو بِحَادِثَةٍ مُرورِيةٍ، أو بِنَوبةٍ قَلبيةٍ، أو على أي هيئةٍ لا نستطيع جعلها خاتمةً حَسنةً بإِطْلاقٍ، ولا سَيئةً بإطْلاقٍ، فَنَحْتَكِمُ عِندئذٍ لِسَابِقِ حياته؛ لنرى حَسناتِهِ من سيئاته!

لكنَّ الأَصْلَ بِالْمُسْلمِ أن يُحْسِنَ الظنَّ بِإِخْوانِهِ، خاصةً إن كانوا من ذوي الصَّلاحِ والأمانة، وفي آي التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢].

وَلِهَذا كَان مِنَ السُّنَّةِ تغطية وجه المَيْت!

عَلَّلَ هذا الفقيهُ المالكي ابن العربي بِقَولِه:

إِنَّمَا أُمِرَ بِتَغطيةِ وجهِ الميْت؛ لأنه رُبَّمَا يتغير وجهُهُ تَغَيُّرًا وحشيًا من المرض ونحوه؛ فَيَظُنَّ من لا معرفة له ما لا يجوز من سُوءِ الظَنِّ بِهِ.

قُلْتُ:

اللهُمَّ إلا إن كانت قَرائنُ سوءِ الخاتمة جليةً ظاهرةً، وقرائنُ الخير عديمةً أو فاترة؛ فَهَذِهِ أُمُّ البَلايَا، ورأس الرزايا، وهي الجُرحُ الذي لا يَنْدَمِل، والكَسْرُ الذي لا يَنْجَبِر، وهذا ما ندعو الله تعالى لَيلَ نهار أن يَقِيَنَا إياه، وأن يكتب لنا ختامًا نرتضيه لأنفسنا ويرضاه.

على أن المرء قد يموت على خاتمةٍ نَظُنُّ سُوءَهَا، لكنَّ اللهَ تعالى يعلم حُسْنَهَا.

ذكر الشيخ صالح المغامسي أن أحد معارفه ذهب بِعَائِلَتِهِ إلى الملاهي، واستجابةً لأبنائه شاركهم في لعبةٍ رغبوها، ويظهر أن اللعبة كان لا يمارسها عادةً إلا الغلمان، وأصحاب اللهو[1]، لكنَّ الرَّجُلَ أَحَبَّ أَنْ يُدْخِلَ السُّرُورَ على أولاده، ولَمَّا شرع فيها نوى رَكْعَتي نافلة بِقَلْبِه؛ استثمارًا لوقته؛ لئلا يضيع سدى، ولا عبثًا.

---

(١) مثل لعبة الطبق الطائر التي يجلس المشاركون فيها في مقاعد مخصصة لهم، وتبدأ بالطيران في دائرة مستديرة في الهواء، فهذا الرجل من رآه رآهُ على لهو، لكنه جالس يصلي.

عندها قال الشيخ المغامسي:

لو مَات هذا على حَالِهِ؛ لَظَنَّهُ النَّاسُ قد قُبِضَ على اللَّهو، لكنَّ الذي يعلم السر وأخفى؛ يعلم أن الرجل قُبِضَ وهو في صلاةٍ بين يديه!!

سؤالٌ وجواب:

هل خلوُّ العبدِ من قرائنِ حُسْنِ الخاتمةِ يستلزم سُوءَهَا؟

والجواب:

إذا خَلَت الخاتمة من قرائن الخير والشر، كأن يموت على غَيرِ طاعةٍ، وكذا على غيرِ مَعْصِيَةٍ، بل يموت ميتة عادية، فلا هو قُبِضَ في صلاة، ولا في يوم جُمُعة، ولا هو قُبِضَ مُتلبسًا بِمَعْصِيَةٍ.

أو أن يفضي إلى ربه دون أن يتلفظ بِكَلمةِ التوحيد، لكنه لم يتكلم بِنَقِيضِهَا؛ فهؤلاء يُنظَرُ لِعُموم حَالِهم في سَالفِ أَيَّامِهم، وَبِالجُمْلةِ نَجتَهِدُ أن نَجِدَ لهم في الخَيرِ محملاً، دون أن نَعُدَّهَا خِتامًا سَيِّئًا، لكننا نَعُودُ على أنفسنا أشدَّ مقتًا، وأسرع أوبةً، وأكثر توبةً؛ علَّ الله أن يُكْرِمَنَا بِخَاتِمَةٍ حَسنة أمارتُهَا ظاهرةٌ، والمُعَوَّلُ فِي هَذا على رَحْمَةِ الله جل وعلا بِنَا، وتَفَضُّلُهُ عَلَينا.

وَقَدْ يتكلم العبدُ بِكَلامٍ خير، ثم يقبض بُعَيْدَه؛ فهذا على خيرٍ ما لم ينقضْهُ.

وبالمثال يتضح المقال:

أُدخل مريضٌ المستشفى فَتكَلَّمَ بِكَلمةِ التوحيد، ثم حصلت له غيبوبةٌ فَمَاتَ فيها، فَهَذا يَصْدُقُ عليه أنَّ آخِرَ كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله!!

فقد أورد ابن حجر في الفتح أن عبد الله بن المبارك لَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ؛ لَقَّنُوهُ الشهادتين، وأكثروا عليه، فقال لهم: إِذَا قُلْتُهَا مرةً؛ فَأَنَا على ذلك مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِكَلامٍ غيره.

تنبيه:

إن تحديد الخواتيم أَهِيَ حسنة أم سيئة؟ أمرٌ مَرَدُّهُ الأدلة الشرعية.

فمثلاً: لم تَرِد خُصُوصِيَّةٌ لِمَن مات في يوم الاثنين أو الخميس، أو قَضَى في نَهَارِ رَمضان.

اللهم إلا إن كان العبد صائمًا فيها؛ ذلك أنَّ الشريعةَ أوردت فضائل لها، منصوصًا عليها؛ فَقَد

أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديثِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «أَسْنَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى صَدْرِي، فَقَالَ:

«مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ!!

وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ!!

وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[١]!!

وما قيل هنا يقاس عليه غيرُهُ.



(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (٢٣٣٢٤)، (٣٨/ ٣٥٠) وقال الألباني: صحيح.

القَــرَائِنُ تتَكَلَّــم



إذا مَاتَ العَبْدُ مِيتَةً عادية؛ فَإِنَّنَا نَحْتَكِمُ لِسَابق حياتِهِ العمليَّةِ، فَإِن مات دون أن يَقْطَعَ عباداتِهِ التي كان يَفعَل، فهذه قرينة خيرٍ وَفَضْلٍ، فَكَيفَ لو تَأَيَّدَت بِأَمَاراتٍ تَشِي بِجَميلِ عاقبته، وحُسنِ خاتمته؟!

وقد يموتُ العبدُ على فراشه، في عَافِيَتِه أو في دَائِهِ، لكنَّ القرائن المحيطة به تجْعَلُ خاتمته من أفخرِ الخواتيم وأبهاها، وأَجَلِّهَا وَأَحْلاها!

أُنْمُوذَجَان فَرِيدَان:

١) إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل:

فَهَذا إمامُ أهل السنة والجماعة الإمام «أحمد بن حنبل» تُخْتَتَمُ حياتُهُ بِمَرضٍ دام تسعة أيام، فَلَمَّا تَسَامَعَ الناس بِمَرضِهِ أقبلوا من كل أرجاءِ بغدادَ لِزِيَارَتِهِ؛ فأبى أن يُدْخِلَ عليه إلا الفقراء، ومن في رُتْبَتِهِم، فَدَخَلُوا عليه أفواجًا، يُسَلِّمُون ويَرُدُّ بِيَدِه.

وقبل وفاته بِيومين قال بِلِسَانٍ ثقيل: ادعوا لي الصبيان، فَجَعَلُوا يَنْضَمُّونَ إليه، فَيَمْسَح على رؤوسهم..

قال ابنه صالح: أَدْخَلْتُ تحته الطَّسْت، فَرَأَيتُ بوله دمًا، فَرَاجعتُ الطبيب في ذلك.

فقال: هذا رجلٌ قد فَتَّتَ الحَزَنُ والغَمُّ جوفه!!

فلما كان يوم الجمعة [١٢ ربيع أول / ٢٤١هـ] تُوُفِّيَ وعمره [٧٧] عامًا، فَصَاحَ الناس باكين، حتى كأن الدُّنيا قد ارْتَجَّت، وبدأ الناس يتوافدون إلى مكان الجنازة، فامتلأت السكك والشوارع؛ إِذِ اجتمعت بغداد بِرِجَالِهَا ونسائِهَا، وشيوخِهَا وأشبالِهَا، وشبابِهَا وفتياتِهَا، بل حضرت جموعُ اليهود والنصارى والمجوس القاطنين بغداد؛ إجلالاً لهذا العَالِم.

وأغلق الناسُ متاجرهم ومصانعهم، وساروا في الجنازة، وتَنَقَّلَ الجسد الطاهر مرارًا على الرؤوس لِشِدَّةِ الزِّحَام، وفَتَحَ النَّاسُ بيوتَهُم ينادون من أراد الوضوء، ولم تُقَمْ صلاةُ العصر في

أيِّ مسجدٍ؛ إذ احْتَشَدَ الناس كلهم في مكان الجنازة وصلوا!!

وَلِكَثرةِ النَّاس أرسل الخليفةُ المتوكل من يمسح الموضع الذي وقف عليه الناس؛ لِمعرفةِ الأعداد المشاركة في الجنازة فوجده [٢ مليون ونصف مليون شخص]!!!

قال أبو صالح القنطري: شَهِدْتُّ مَوسِمَ الحَجِّ [٤٠ عامًا]، فما رأيت جمعًا قط مثل جنازة أبي عبد الله أحمد بن حنبل!!!

وقد قال الإمام أحمد يومًا: قُولُوا لأهل البِدَعِ: بيننا وبينكم الجَنائِز!!

قال ابن كثير: وقد صدق الله قول أحمدَ في هذا، فَإِنَّهُ كان إمامَ أهل السنة في زمنه، أما مُخَالِفُهُ ابن أبي دُؤَادٍ قاضي الدنيا؛ فإنَّهُ لما مات لم يحتفل أحدٌ بِمَوتِهِ، وما شَيَّعَهُ إلا قليلٌ من أعوان السلطان، ولله الأمرُ من قبل ومن بعد[١]!!

وَذكَرَ الذَّهَبِيُّ عن أبي عقيل أنه قال: تُوُفِّيَ شابٌ بقزوين، فَرَأَيْتُهُ في المنام، فَقُلْتُ: مَا فَعَل بِكَ رَبُّكَ؟

قال: غَفَرَ لِي، ورأيته مستعجلاً، فَسَأَلْتُهُ: فَقَال: إنَّ أهلَ السماوات قد اشتغلوا بِعَقْدِ الألوية لاستقبال أحمد بن حنبل، وأنا أريد استِقْبَالَهُ، وكان قد تُوُفِّيَ تلك الأيام[٢]!!

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية:

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية -كما ذَكَر ابنُ كَثِيرٍ- يَموتُ في سجنه بِقَلعةِ دمشق، وكان أهل دمشق لا يَعْشُرُونَ أهل بغداد حينئذ كثرةً، لكنهم اجتمعوا لِجَنَازَتِهِ اجتماعًا لو جَمَعَهُم سُلطَانٌ قاهر؛ لَمَا بَلَغُوا هذه الكثرة التي اجتمعوها في جنازته.

فَقَد صَلَّى عليه من الرجال ما يزيد على [٦٠ ألفًا]، ومن النساء [١٥ ألفًا]، وحضرها الناسُ قَاطِبة وهم يضجون بالبكاءِ والثناءِ والدعاءِ والتَّرَحُّمِ عليه[٣].

وقامت قرائن الخواتيم المجيدة في سماء دمشقَ يومها.

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٣٧٦).
(٢) الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٣٥-٣٤٥).
(٣) ابن قدامة المقدسي/ العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص (٣١٤).

فَاتَّفَقَ موتُه سَحَرَ ليلة الاثنين، ولما تسامع الناس بهذا الأمر الجسيم اجتمعوا حول القلعة، وقد أَغْلَقُوا المتاجر، وعَطَّلُوا المصالح، وأقبل الناس من كل مكانٍ إلى القلعة، فَدَخَلَهَا الأصحابُ والخَواصُّ، وهم يُثْنُونَ عليهِ ويَبْكُون!

قال ابن كثير: وكنت فيمن حضر مع شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي رحمه الله، وكشفت عن وجهِ الشيخ ونظرتُ إليه وَقَبَّلْتُهُ، وعلى رأسه عمامة، وقد علاه الشَّيبُ أكثر ممَّا فارقناه.

وجاء أخوه زين الدين، وأخبر الناس أنه خَتَمَ مع الشيخ منذ دخل القلعة ثمانين ختمة قرآنية، وَشَرَعَا في الحادية والثمانين، فانتهينا فيها إلى آخر سورة القمر، عِندَ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]!

عندئذ شرع الشيخان الصالحان: «عبد الله بن المحب»، و«عبد الله الزرعي الضرير» في إتمام الختمة –وكان الشَّيْخُ يحب قراءتهما–، فَصَدَحَا بالتلاوة من مبتدأ سورة الرحمن وما زالا في التلاوةِ حتَّى خَتَمَا القُرآن، وأنا حاضرٌ أسمع وأرى.

ولَمَّا ساروا به إلى الجامعِ الأُموي، وفيه خلائقُ لا تُحصى؛ صَرخ صارخٌ فيهم:

هكذا تكون جنائز أئمة السنة!!

فَتَباكَى النَّاسُ وضَجُّوا عندَ سماع هذا الصارخ، وأخذوا في بكاءٍ وتهليلٍ، وثناءٍ وتأسفٍ في مُخَافَتَةٍ، كُلُّ وَاحدٍ بِنَفسِهِ.

إلى أن قال ابن كثير: وبالجملة فَقَدْ كان يومًا مشهودًا، لم يُعْهَد مثلُه بِدِمَشق، ولا يمكن لأحدٍ حَصْرَ من حَضَرَ الجنازة.

وما عَلِمْتُ أحدًا من أهل العِلمِ إلا النَّفَرَ اليسير تَخَلَّفَ عن الحُضُورِ في جنازته، وهم ثلاثة أنفس: «ابن جملة، والصدر، والقفجاري» وهؤلاء الذين اشتُهِرُوا بِمُعُاداةِ ابن تيمية، فاختفوا من الناس في هذا اليوم؛ خوفًا على أنفسهم، بِحَيثُ إنهم علموا متى خرجوا قُتِلُوا وأَهْلَكَهُمُ النَّاسُ[1]!!

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ١٥٧-١٦٠)، بتصرف.

فانظُر كيف سَجَنَ ابنُ تيمية يوم موته مَنْ سَجَنُوهُ!!

رسالة الخبرين:

إن الإمامين لم يَقْضِيَا –مثلاً– في سجودٍ أو شَهَادةٍ، إلا أن الله تعالى جَلَّلَ ختامهما بألوانٍ من العبادة؛ بِمَا يَشِي بِفَضْلِهِمَا، وعظيم قَدْرِهِمَا.

فَقَدْ مات الأحمدان «أحمد بن حنبل» و«أحمد بن تيمية» إمَامَين كَمَا عاشا، عالمين عاملين عابدين داعيين زاهدين ورعين محسنين كما كانا!!

مات أحمد بن حنبل وقد خَلَّفَ مَذهبًا فقهيًا، وَمُسْندًا حديثيًا يمثلان للأمة تراثًا عِلْمِيًّا هَائِلاً، ولم يَمُتْ حتى تَغَيَّرَ دَمُهُ من خشيتِهِ لِرَبِّهِ، وانعقدت القلوبُ على وُدِّهِ وَحُبِّهِ.

ومات أحمدُ بن تيمية بعد أن وَرَّثَنَا مدرسةً تفسيريةً فقهيةً عَقَدِيَّةً سُلوكِيَّةً كاملةً، ومنهجية اجتهادية شاملةً، ولم يمت حتى أكرمَهُ رَبُّهُ بِجِهَادٍ في سبيلِهِ، عَبْرَ خَلوةٍ معه، كتب فيها جُلَّ مصنفاتِه، وأَعَزَّ مؤلفاتِهِ، وكثرت فيها ختماتُهُ، ثم أَمْسَكَ اللهُ روحَهُ في الثُّلُثِ الأخيرِ من اللَّيْلِ؛ لِيَبْقَى علمًا مُبَرَّزًا من أهل العلمِ والخَيرِيَّةِ والفَضْلِ.



اسْتِثْنَاءات أَسْرَارُهَا ثمِينَة

قد يَحْيَا العبدُ على عباداتٍ بِعَينِهَا، ثم يُقْبَضُ على نقِيضِهَا، كَأَنْ يعيشَ عَالِمًا ويَقْضِي شَهِيدًا، أو يَحْيَا مُجَاهِدًا ويَمُوتَ ساجدًا في صَلاتِه، أو قَعِيدًا على فِرَاشِهِ!

وإنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ شيئًا سُدَى، ولا يُمْضِي أمرًا عبثًا، وإنما يفعل هذا لِحِكَمٍ باهرةٍ، عُقُولُنَا عنها قاصرة، إلا من آتاه الله بصيرةً نَائِرَةً؛ فإنه يرى بها في سماءِ القدَرِ حِكَمًا زَاهِرَةً، وأسرارًا زاخرةً، وَلِهَذَا كان من يُؤْتَ الحكمةَ؛ فَقَدْ أُوتِيَ خيراتٍ مُتَكَاثِرَة!

خاتمة خالد بن الوليد رضي الله عنه أُنْمُوذَجًا:

كان خالدُ بن الوليد رضي الله عنه مُجاهدًا صِنْدِيدًا، لَمَعَ نجمُهُ في كل المشاهد، لِيَكُونَ بحقٍ أشجعَ مُجَاهِدٍ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم سَمَّاه «سيفَ الله المسلول»؛ لِحُسنِ بلائِهِ، وقد طلب خالدٌ الشهادة في ميدانها، لكنها لم تُقَدَّرْ لَهُ، ومات أخيرًا على فراشه، وساعتها قال كلمتَهُ:

«لقد شَهِدْتُ مائة زَحْفٍ أو زُهاءَها، وما في جَسَدِي موضعُ شِبْرٍ إلا وفيه ضربةٌ بِسَيفٍ، أو طعنةٌ بِرُمحٍ، أو رَميةٌ بِسَهْمٍ، وهأنذا أموتُ على فراشي كما يموتُ البَعِيرُ، فلا نامت أعين الجبناء»!

أما عن وقوع خاتمته على خِلاف مَعِيشَتِهِ؛ فَإليك أَسْرارًا ثلاثة:

(١) سُمِّيَ خالدٌ بِسَيفِ الله المسلول، وسيفُ الله لا يُكسَر، فَناسَب ألا يَمُوتَ فِي مَعْرِكَةٍ.

(٢) حتى نعلم أن الفِرَارَ إلى البيوت لا يُؤَخِّرُ عُمُرًا، وأنَّ الجهاد لا يُقَدِّمُ أَجَلاً، قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فخالدٌ مات في موضعِ الأمان، لا في المَيدان.

أيُّ يومَيَّ مِنَ الموت أفرّ ... يومُ لا قُدِّر أم يومُ قُدِر

يوم لا قُدّر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحَذِر

فَإِنْ عَقِلَ العبدُ سُنَّةَ اللهِ؛ عندها يَمْتَشِقُ حُسَامَهُ، وَيَعْلُو صَهْوَةَ جَوادِهِ، بعد أن طَالَ رُقَادُهُ؛

لِيمسَحَ العَارَ عن أُمَّتِهِ، يقول لنفسه: منذ ولدت وأنا أفخر بالإسلام، فَيَا تُرَى متي سَيَفْخَرُ الإسلامُ بي؟!

(٣) حتى يكون دِلالةً على فاعلية الذَّكاءِ العسكري في حِرَاسةِ النفس بِتَوفيقِ الله جلَّ شأنه، فكَمْ ذُهِلَ أساتذةُ العسكرية من حنكة خالد رضي الله عنه في مواطنَ عدة، مع جزمهم أن سبيلَ النَّجاةِ عَدِيمٌ، وأنَّ خَالِدًا وصحبَهُ ما يَفْصِلُهُم عن الشهادة إلا لحظات، وَإِذ بِخَالِدٍ يُعْمِلُ عقلَهُ، مستعينًا بِرَبِّهِ، ويخرجُ بِجَيشِهِ سالمًا غانمًا بِفَضْلِ الله رب العالمين.

وإليكَ أمثلةً ثلاثة[1]:

الأول: خبره يوم مؤته:

تَصدَّى [٣٠٠٠] مُسْلِمٍ لِجَيش الروم الذي قوامه [٢٠٠٠٠٠]؛ فَقُتِلَ قادةُ جيشِنَا الثلاثة؛ فانفرط عِقْدُنَا؛ فَأَشرفنا على خطرٍ محقق؛ فَاعْتَلَا خالدٌ رضي الله عنه جوادَهُ، وفي ظلامِ الليل جعلَ رجال الميمنةِ في الميسرةِ، والميسرة في الميمنة، واستبدل رِجَالَ القَلْبِ بِآخرين، ثم جَعَلَ السَّاقَةَ مقدمة، والمقدمةَ ساقة!

ثم بدأ ينسحب مبقيًا الساقة فقط؛ لِتَحْمِيَ انسحابَهُ، على أن يُحْدِثُوا أصواتًا علية بما لديهم من طُبولٍ حَربِيَّةٍ، ثم يُثِيرُوا الغُبَارَ بِخَيلِهِم من خلال عَدْوِهَا السريع في دوائرَ ضيقةٍ!

فلما أصبح الصَّبَاحُ وَشَرعت المعركَةُ؛ صُدِمَ الروم بِكَمٍّ قرائن الكثرة الهائلة؛ فَرَأَوا جُنْدًا لم يروهم من قبل، مع الغبار الذي يَسُدُّ الأفق، والتكبير الذي يُدَوِّي في المكان؛ فَفَزِعوا، ذلك أنهم أُرْهِقُوا من ثلاثة آلاف خلال أيامٍ سِتَّةٍ، فَكَيفَ وَقَد جَاءَ المسلمين مَدَدٌ مذهلٌ؟

في هذه اللحظات اقتنص خالدٌ الفرصةَ؛ فَهَجَم على خُطُوطِهِم، وأَحْدَثَ فيهم مقتلةً عظيمةً، حتى قال: لقد انقطعت في يدي يومها تسعةُ أسياف، ولم تثبت إلا صفيحةٌ يمانية [2]!

إلى أن أتم خالدٌ الانسحاب، ووصل إلى المدينة سالمًا، وما زال الرومُ في خوفٍ من لحاقهم؛ لئلا يُفَاجَؤُوا بِكَمِينٍ أَعَدَّهُ خالدٌ رضي الله عنه!

(١) ذكرها سيد عفاني في كتابه صلاح الأمة (٣/ ٥٤٣-٥٦٥).
(٢) أي: سيفٌ مصنوع باليمن.

الثاني: خبره العجيب يوم فارس:

في جولةٍ حربيةٍ مع هرمز قائدِ الفرس أَرْسَلَ له خالدُ بن الوليد ﷺ رسالةً مَفَادُهَا: أَسْلِم تَسْلَم، أو اختر لنفسك وقومك الذِّمَّةَ، وإقرارَ الجِزْيَةِ، وإلا جئتك بِقَومٍ يُحِبُّونَ الموتَ كما تُحِبُّ أنتَ الحياةَ وشُربَ الخمر؛ فَأَبَى!

فمضى خالد ﷺ إليه، وظن هرمز أن خالدًا سَيَتَّجِهُ إلى مدينة «كاظمة» فَعَسْكَر فيها، وَحَفَرَ خندقًا حولها، إلا أن خالدًا جعل جيشه فِرَقًا ثلاثة، ولم يسلك طريقًا واحدًا؛ لِيُعَمِّيَ عليه، وظَلَّ على ذلك حتى آخر لحظة؛ فَتَمَزَّقَت أعصابُ هُرْمُز!

ولما أتم الفرس استعدادهم في «كاظمة» فَاجَأَهم خالدٌ واتجه إلى مدينة «الحفير» شمال «كاظمة»، فَلَمَّا علم هرمز اغتاظ جدًا، وَصَرَخَ في جُنْدِهِ أن يعودُوا بِسُرعةِ البَرقِ إلى «الحفير»، ثم يحفروا الخنادقَ حَولَهَا، ويتهيأوا لملاقاته.

فلما علم خالدٌ ﷺ بِصَنِيعِ هرمز عاد بِجَيشِهِ إلى «كاظمة»، فَتَوَتَّرت أعصاب هرمز، وعاد كَالمَجْنُونِ من فَوْرِه.

ولَمَّا بدأت المَعْرَكَةُ دعا هرمز خَالدًا للمُبَارَزَةِ، وأراد خديعَتَهُ؛ فَعَهِدَ إلى بعض جنده أن يضربوا خالدًا إن نزل عن فرسه، فلَمَّا الْتَقَاهُ هَجَمَت حَامِيتُهُ على خالدٍ؛ فَوَفَّقَ الله القعقاع بن عمرو ﷺ أن يتدارك الأمر، فَأَبَادَ الحامِيةَ كُلَّهَا، في الوقت الذي تمكن فيه خالدٌ من ذَبْحِ هرمز، فانهزم الفُرْسُ بِمَوتِ قائدهم، فَتَبِعَهُمُ المُسْلِمُونَ يَقْتُلُون وَيَأْسِرُون، وَلَمْ يَنْجُ أحدٌ منهم إلا من رَكِبَ السفن، وَلاذَ بِالفِرَار!

الثالث: حسمُ المعْرَكةِ قَبْلَ بدئها:

وَفِي جَولةٍ أخرى مع الفرس ومن شايعَهُم من العرب، وقُبَيل بَدءِ المعركة؛ تَأَمَّلَ خالدٌ قوةَ جيش عَدُوِّهِ؛ فَأَلْفَاهَا تزيدُ عنه أضعافَ قوته، فَفَكَّر في حيلةٍ يَحسِمُ المعركةَ قبل بدئها لِصَالِحِهِ، فاختار [١٠] فرسان من جنده، ثم توجه بهم بِسُرعةِ البرق لِمُنتَصَفِ جيشِ الكُفَّار، فَلَمَّا رأوه دَهِشُوا، وقالوا: ما بالُ هذه الخيل تَرْكُضُ نَحْوَنَا؟

وكان خالدٌ قد وصل إلى زعيمهم «عقة بن أبي عقة»؛ فاختطفه من بينهم، وحَمَلَهُ على فرسه

كأَنَّهُ طِفلٌ رَضِيعٌ، في أسلوبٍ مُذْهِلٍ مُفَاجِئ، فَلَمْ يتحمل القوم صدمتهم؛ فَلاذُوا بِالفِرَارِ، فَتَبِعَهُمُ المسلمون قتلاً وَأَسْرًا دُونَ أن يُسْتَشْهدَ أحدٌ من المسلمين، وفُتِحَتِ المدينةُ، وقُتِلَ «عقة» وجندُهُ، وسُبِيَتِ النِّسَاءُ والذَّرَارِي بِفَضلِ الله تعالى!

وَبِهَذَا تعلمُ فَضِيلةَ الحِنكةِ العسكرية فِي حِرَاسةِ المرء من المَخَاطِرِ، والتي لا تؤدي فاعليتها إلا بِحِفْظِ الله ﷻ ورعايته لِعِبَادِهِ، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى إذا أراد أمرًا لم تُجْدِ تصريفاتُ البشر مُجْتَمِعَةً نَفْعًا؛ فَقَدْ رُفِعَتِ الأقلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ سَلَفًا.



عِظَاتٌ وَعِبَر، فَهَلْ مِن مُعتَبِر؟

من الناس من يموت من غير عِلَّةٍ؛ كَأَنْ يُقْبَضَ نائمًا على سريره، أو جالسًا على كُرْسِيِّه.

ثم إنك لو تأملت حياتَهُ؛ لألفيتَهُ متكبرًا على إخوته وأخواته، ظالمًا لإخوانِهِ وجيرَانِهِ، آكلاً لمِيرَاثِ أرحَامِهِ، يصول ويجول، في تكَبُّرٍ وغُرُورٍ، فَخُتِمَ لَهُ بما يُظْهِرُ ضَعْفَهُ، ويَمْشِي بِهَوَانِهِ عَلَى رَبِّهِ!

فَأَينَ قُوَّتُهُ التي تَغَنَّى بها؟ وأين عظمتُهُ التي زَعَمَهَا؟! فَهَل مِن مُدَّكِر، وهل من مُعْتَبِر؟

أُنْمُوذَجٌ آخَر:

ومن النَّاسِ من يعيش جُلَّ حياتِهِ في وظيفته، من صباحِهِ إلى مَسَائِهِ، أمَّا نُصْرَةُ الإسلامِ فَلَيست في جَدْوَلِهِ، ونَفْعُ المسلمين لَيْسَ في بَرنَامجِهِ، وهكذا يُحْرَمُ أعزَّ أوقاتِهِ، إلى أن يموت أخيرًا على فراشه!

أعرف رجلاً كَان يَعْمَلُ من الساعة السادسة صباحًا حتى غُروبِ الشمس، وما إن يَصِل إلى بيته حتى يذهب للمسجد لأداء صلاةِ المغرب، ثم يتناول طعام العَشَاء، وَبَعْدَهُ يُصَلِّي العشاء، ثم ينام إلى فجر اليوم التالي، فَيَتَنَاوَلُ طعام الإفطار وَيَخْرُج إلى عمله، وهذا برنامج يومه من [٢٠] سنة!

قلت له يومًا: هل تُجالِسُ أحدًا من أصدقائك أو أَرْحَامِكَ؟

فَقَالَ: لَمْ أَزُرْ أحدًا من أرحامي منذ [١٠] سنوات، اللهم إلا إن جِئْتُ إلى البيت وَوَجَدْتُّهُم عندي!

فَقُلْتُ له: هل أنت حيٌّ تَشْعُرُ بِحَيَاتِكَ؟ هل خلقك الله لِتَعْمَلَ وتَنَامَ، ثم تعمل وتنام، وهكذا إلى سَاعَةِ مَمَاتِك؟ أَيْنَ نُصرةُ دينِكَ؟ أين رعايةُ أولادك؟

فتَعَلَّلَ بِكَثْرةِ الرَّاتِبِ، ونُدرةِ العَمَلِ المُنَاسب.

ثم رأيته بعد فترةٍ قد ترك وظيفته، فَقَالَ لي فَرِحًا: يَسَّرَ الله لي وظيفةً راتبها نصفُ الرَّاتِبِ الأول، غير أنها لا تَسْرِق من وقتي إلا [٥] ساعات فقط، فَأَنَا أفعلُ ما أريد، فالآن أُجَالِسُ

أهلَ بَيْتِي، وأُرَبِّي أولادِي، وأزورُ أَرحَامِي، وقد بَدَأْتُ أَحْضُرُ دروسَ العِلْمِ بالمَسْجِدِ، وأصلحُ المشاكلَ الحاصلةَ بين جِيراني وأهل قريتي.

فَعِنْدَهَا حَمَدْتُّ اللهَ كثيرًا؛ إذ إنَّ عقلَ أخي عاد إليه، ولو بعد غياب [٢٠] سنة!

وإن كان صَاحِبُنَا قد عاد إليه عقلُهُ؛ فَهُنَاك من لا يَعْقِلُ إلا ساعةَ موته.

يُروى أن أحد أكبر أغنياء اليهود، واسمه «روتشيلد» كان يضع سبائك الذَّهَبِ في قاعاتٍ كبيرةٍ من كثرةِ ما آتاه الله من مال، بل إنَّ الحكومةَ البريطانية كانت تقترضُ مِنْهُ كَثِيرًا فِي أَزَمَاتِهَا.

دخل يومًا في قاعة ادِّخاره الحديدية، ثم أقفلها على نفسه ناسيًا أن مِفْتَاحَهَا بِالخَارِجِ، فَرَاحَ يَصْرُخُ ويستغيثُ ولكن دون جدوى، فَجَلس كئيبًا يُوَاجِهُ الموتَ بين دُولارَاتِهِ، ومستنداته، وصكوكه[1]!!!

أما أهله؛ فَإِنَّهُم في غفلةٍ عَنه، فَقَد ظَنُّوهُ في سفرٍ طارئٍ كَعَادَتِه، فلم يكترثوا بِغِيَابِه!

أما الرجل فَمَرَّت عليه أيامٌ معدوداتٍ دون أن يَطْعَمَ طَعَامًا، أو يَشْرَبَ شَرابًا، ثم أخذ يتأملُ أموالَهُ وماذا عساها أن تنفَعَهُ؟ فَلَمَّا شعر بِقُربِ موتِهِ جَرحَ نفسَهُ، وكتب بِدَمِهِ على جِدَارِ قَاعَتِهِ، وبين أمواله:

أَغْنَى رَجَلٍ في الأرضِ؛ يموتُ من الجُوع!!

أخي في الله..

لَقَد مَلَكَ الرَّجُلُ الدُّنيَا حتى غَدَتْ بين يَدَيْهِ، لكنَّهُ لم يَمْلِكْ نفسه التي بين جَنْبَيه!

وَكَم نَجِدُ حولنا من معارفنا من يمنح الدنيا قيمةً أكبرَ من وَزْنِهَا، وأَزْيَدَ من ثمنها، فإذا ضاع منه [١٠٠] درهم؛ ارتفعت حرارَتُهُ، وعلا ضغطُهُ.

ولو طَلَبَ أحدٌ منه طرفًا من ماله؛ لَتَغيَّرَ وجهُهُ، وتَعَكَّرَ بَالُهُ، وراح يَشْكُو لك سوءَ حَالِهِ، وَقِلَّةَ مالِهِ، وكثرة نفقته، فَهَذَا مَلَكَ مَالَهُ، وَضَاعَت مِنْهُ نَفْسُهُ.

وتعظُمُ المصيبةُ لو نَمَا مالُ العبدِ بِأَسرعَ مِمَّا يَنْمُو إيمانُهُ؛ فَيَخْتَلُّ توازُنُهُ، فَمِن هُنَا نَجِدُ طغيانَ

---

(١) علي بن نايف الشحود/ الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل (٣/ ٤٢).

المال على نفس صاحبه، حتى يُرْدِيَهُ قتيلاً حسيرًا يوم موته؛ إذْ يترك مَالَهُ خَلْفَهُ كُلَّهُ، ثُمَّ يُحَاسَبُ عَلَيْهِ كُلِّهِ!

سَعَادَةُ فُقهَاءِ قَانُونِ التَّمَلُّك:

تأملت حال الذي أشغلتْهُ دُنياهُ عن أُخْراه؛ فَأَلْفَيْتُهُ يَجْهَلُ سُنَّةَ الله فيه؛ ففي مُعْتَقَدِهِ أن المالَ مَالُهُ، والوَلد ولدُه، والبدنَ بدنُه، والأرض أرضه، وغَفِلَ أنها أملاكٌ لله، لكنها في يده، وتحت تَصَرُّفِهِ، ولله دَرُّ الأعرابي الذي سُئِلَ عن قَطِيعِ إِبِلِهِ يَومًا: لِمَنْ هذه الإبل؟

فأجاب في أبلغِ قَولٍ قائلاً: «للهِ فِيْ يَدَيْ»!!

ولهذا لو مات لِذِي دُنيا حَبِيبٌ إلى قلبِهِ، كَأَبِيهِ أو أُمِّهِ، أو وَلَدِهِ أو صَاحِبِهِ؛ فَإِنَّهُ يَسْخَطُ ولا يَصْبِرُ، ولا يَرضَى ولا يَشْكُرُ؛ لأنه ظَنَّ أنَّ المَيْتَ مِلْكُهُ، وَهُوَ مَالِكُ أَمْرِهِ، فَإِذَا جاءت سكرةُ الموتِ بِالحَقِّ؛ أدركَ حينهَا أَنَّهُ لا يَمْلِكُ شيئًا!

حبيبي في الله..

مالُك لَيس لك، وولدك ليس لك، فمِلْكُكَ مَا لَك، أَمَّا مَالُكَ فَلِلمَالِك، وولدك فَلِلْخَالِقِ، جَعل يدك عليه، كَرَجُلٍ أعطاك ماله، فَإِنْ طلبَهُ أعطيتَهُ له، وعلى هذا فَلَيسَ لَكَ من مالك إلا مَا أكلت فَأفنيَت، أو لبست فَأبليت، أو تصدقت فَأبْقَيت، وليس لك من ولدِكَ إلا ما عَلَّمْتَ فَأُجِرْت، أو رَبَّيت فَانْتَفَعْت.

هبْ أنني أَعَرْتُكَ مَركبتي وطلبتُهَا بَعدَ سنتين، أَتسخطُ عليَّ، وتشتمني، أم تدعو لِي وتشكُرُنِي؟!

لكَ أن يتعلق قلبك بِهَا أمد قيامها عندك، لكنَّ التَعَلُّقَ الزائدَ عقب استردادها جهالةٌ ومنقصةٌ، وضعفُ إيمانٍ ومَثْلَبَةٌ.

إذا عرفت هذا:

فَاعْلَم -أَخَا الإسلامِ- أَنَّ من مَاتَ من أَحِبَّتِكَ؛ فَإِنَّهُ على الحقيقة ليس لَكَ، فَأَبُوكَ ليس بِمِلْكِكَ، وأُمُّكَ ليست من نَصِيبك، وَزَوْجَتُكَ لم تُسَجَّلْ بِاسْمِكَ، وولدُكَ وديعةٌ لله عندك،

فَإِنْ أَخَذَ مالكُهُمْ واحدًا منهم، فَلَكَ أن تبكي ثلاثًا حَزنًا على فِرَاقِه، ولَيْسَ سَخَطًا على قَدَرِ الله وَقَضَائِه.

بل ينبغي لِذِي اليَقِين والإيمان؛ أن يَشْكُرَ ربَّهُ أن مَنَّ عليه بِفَقِيده حينًا من الزمان، فَكَيفَ وقد وَعَدَ اللهُ الصالحين أن يَجْمَعَهُمُ غدًا في درجةٍ واحدةٍ في جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ، في مقعدِ صِدْقٍ عندَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ؟ اقرأوا إذا شئتم قولَ الله تعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]!!





المبحث الخامس

كَيْفَ تَصْنَعُ خَاتِمَتَكَ؟



عِبَادٌ صَنَعُوا خَواتِيمَهُم بِأَيْدِيهِم

بَيْنَ يَدَي عَواملِ صِنَاعَةِ الخَاتِمَةِ، إليكَ عِبادًا رَسَمُوا عَاقِبَتَهُم، وَصَنَعُوا خاتمتهم، وأَكْتَفِي بِنَمَاذِجَ ثَلاثَةٍ، إمامٌ من أعلامِ السلف، ثم رَجُلٌ، وامرأةٌ من أَخْيَارِ الخَلَف!

١) عمرُ بن الخطاب ﷺ:

كان عمرُ بن الخطاب ﷺ معروفًا بِجِهَادِهِ وعِبَادَته، وحُسنِ إمامتِهِ، وجمالِ سياسته، وكان يتمنى أنْ لَو مَات على ختامٍ يصنعُهُ بِيَدِه، ويُحِبُّ أن يلقَى اللهَ عليه!

وبدأت رحلة صناعة الخاتمة:

عن حفصةَ ﷺ قالت: سمعت عمر ﷺ يقول: **اللهُمَّ قَتلاً فِي سَبِيلِكَ، وَوَفَاةً فِي بَلَدِ نَبِيِّكَ!** قلت: وأنى يكون ذلك؟ -إشارةً إلى أن مَظَانَّ الشهادةِ خارج المدينة؛ إذْ هي وقتذاك أرضُ أمنٍ وسلام-.

قال: **يَأْتِي به الله إذا شاء، والله إنَّ الذي سَاقَ عُمر من مكةَ إلى المدينةِ، لَقَادِرٌ على أن يَسُوقَ إليهِ الشَّهادةَ في بَلَدِ نبيه ﷺ!!**

ثم إنه لَمَّا نفر من مِنَى مُؤدِيًا لِمَنَاسِكِ الحجِّ؛ كوَّم كومةً من بَطْحَاء، وألقى عليها ثوبه، ثم استلقى عليها، ورفع يديه إلى السماء، وقال: **اللهُمَّ كَبُرَت سِنِّي، وَضَعُفَت قُوَّتِي، وانتشَرَتْ رَعِيَّتِي، فَاقبضنِي إليكَ غيرَ مُضَيِّعٍ ولا مُفَرِّط!**

وجعلت أيام ذي الحِجَّةِ تَمُرُّ سريعًا، وهو يرسمُ خاتمته بيده رسمًا دقيقًا بديعًا، شعرنا به من خلال رواية أسلم ﷺ عنه بِقَولِهِ: **اللهُمَّ لا تَجعَل قَتْلِي عَلَى يَدِ عَبدٍ قَد سَجَدَ لكَ سَجدةً وَاحِدَةً؛ يُحَاجنِي بِهَا يَومَ القِيامَةِ!!!**

فلما انسلخَ الشهر حتى اصطفاه الله ﷻ وهو قائمٌ بين يديه يُصَلِّي صلاةَ الفجر التي تشهدها جموعُ الملائكة؛ إذ طعنَهُ المجوسي أبو لؤلؤة.

وهكذا أمسك الله رُوحَهُ إمامًا، كما كان إمامًا.

عابدًا في صلاةٍ كما عاش عليها.

شهيدًا مقتولاً في بلد النبي ﷺ كما رجا، بل بجوارِ منبرِ النبي ﷺ، وقبره أَزْيَد مِمَّا تَمَنَّى، بِطَعْنٍ من عبدٍ لم يسجد لله تعالى ولو سجدةً واحدة؛ لِيَمُوتَ بالميتة الماجدة، التي صَنَعَهَا لِشَخْصِه، وَرَسَمَهَا لِنَفْسِه.

٢) الشيخ مُحَمَّد الغَزَالِي:

كَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّد الغَزَالِي يَدْعُو اللهَ تَعَالَى طُوالَ عُمُرِه أَنْ يَرْزَقَهُ الوَفَاةَ فِي بَلَدِ الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وكَانَ أَهْلُ بَيتِهِ يتعجبونَ مِن دُعَائِهِ؛ لِصُعُوبَةِ تَحَقُّقِهِ، وشَاءَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُدعَى الشَّيْخُ للمُشَارَكَةِ فِي النَّدْوَةِ العلمية التي بِعِنْوَان: الإِسْلامُ والغَرْبُ التي عُقِدَت بالرياض عام ١٩٩٦م.

وَقَرَّرَ الشيخُ إجابَةَ الدَّعْوَةِ إلا أنَّ طَاقِمَ الأطباء عَزَمُوا عَلَى مَنْعِه؛ لِخُطُورَةِ حَالَتِه الصِّحيَّة، لكنَّهُ أَبَى وَأَجَابَ الدَّعْوَة، وتَكَلَّمَ في النَّدْوَةِ بِكَلامٍ نَفِيسٍ خَتَمَهُ بِقَولِهِ: نُرِيدُ أَنْ نُحَقِّقَ فِي الأَرْضِ لا إله إلا الله؛ فَأُصِيبَ بِأَزمَةٍ قلبيةٍ خَرَّ بِسَبَبِهَا ميتًا في الحال، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ مَسَاء يوم السبت ١٩ شوال ١٤١٦ هـ، الموافق ٩/ ٣/ ١٩٩٦م عن عمرٍ يناهز [٧٩ عامًا]، بعد أن صَامَ رَمَضَانَ وَقَامَهُ.

وبأمرٍ من الأمير عبد الله، وتوصيةٍ من مفتي المملكة ابن باز رحمه الله تم نَقْلُ جثمان الشيخ إلى المدينةِ النبويةِ لِيُدْفَنَ بِجِوَارِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِين؛ وهكذا تحققت أمنية الشيخ رحمه الله تعالى.

يقول الدكتور زغلول النجار:

لما حَضَر جُثمانُ الشَّيخِ فُوجِئنا بعددٍ كبيرٍ من مُحبي الشيخِ قد قَدِمُوا من عِدَّةِ بلادٍ في العَالَمِ للصلاةِ عَلَى الشَّيخِ الغزالي في المَسْجِدِ النبوي، وازدحم المسجدُ عن آخرِه، وخرجنا بالجثمانِ إلى البقيعِ ومَا زَالَ النَاسُّ بالمسجدِ من كثرتِهم.

بل قال الرجل الذي يتولى دفن الأموات بالبقيع:

إنَّ لصَاحِبِكُم هذا شَأنًا؛ فَإِنِّي كُلَّمَا شَرَعْتُ في حَفْرِ حُفرةٍ أَجِدُ أنَّ الأرضَ لا تَلِينُ مَعِي، وَبَدَأْتُ فِي التنقلِ من مكانٍ لآخر حتى لَانَت مَعِي فِي هَذَا المَكَانِ الذِّي تَرون؛ لِيُدْفَنَ بَينَ قَبْرَي المحدث نَافِع مولى عبدِ الله بنِ عُمر رضي الله عنه، والفقيه الإمام مالك بن أنس.

وهكذا بَقِيَ مُلازِمًا لأهلِ الفقهِ والحَدِيثِ حَيًا وميتًا؛ لِيَمُوتَ دَاعيةً إلى الله جلَّ وعلا، صادحًا بِكَلمةِ التَّوحِيدِ لا إله إلا الله، فِي البِلادِ التِّي أَحبَّهَا، والأرضِ التي تَمَنَّى أن يُدْفَنَ فيها، بَعْدَ أن منَّ اللهُ عليه بِصِيَامِ رمضانَ وَقِيَامِهِ، ونشرِ حِكْمَةَ الله تعالى وَرَسُولِهِ ﷺ!!

لَكِنْ لَا عَجَبَ؛ فَهَذَا مَا تَمَنَّاه لِنَفْسِهِ، وَرَسَمَهُ لَعَاقِبَتِه وَخَاتِمَتِهِ!

٣) أم وليد الناجم:

كانت أمُّ وليد امرأةً صالحةً مخلصةً مُصْلِحَةً، تنشرُ حكمة الله بِلِسَانِهَا في كل ثَغْرٍ تدخلُهُ، كالمُصَلَّيَات النسائية، ودور التحفيظ، بل جَعلَت درسًا خَصَّصَتْهُ لِجَاراتِهَا في يومٍ ثابتٍ بِمَنْزِلهَا.

ومن إخلاصها: أنها كانت تُرْسِلُ لإمام المسجدِ أموالاً بِسِرِّيَّةٍ بالغة؛ لِيُحَفِّزَ بها أشبالَ الحيِّ لأداء الصلاة، حتى إنه بعد موتها جاء يشكرُ زوجَهَا على صنيعها، قائلاً: سَتَفْتَقِدُ حلقاتُ التحفيظ داعمًا رئيسًا لها، وإذ بِزَوجِهَا يعجبُ من كلامه؛ إذْ يسمعه لأول مرةٍ، وربما فاز ولدُهُ بِجَائزةٍ كانت أمه من دفعت كُلْفَتَهَا والجميع لا يعلم.

وفي عامها الأخير بدأت تصوم يومًا وتفطر يومًا، بل إنها وفي يومٍ من خواتيم أيامها وَزَّعَت مبلغًا طائلاً على الفقراء، وبعضِ المدارس النسائية، وثلةٍ من مشاريع حفر الآبار المائية.

وأما عن وفاتها فَكَثِيرًا ما كانت تدعو ربها أن تموت في بيته الحرام، أو لحظةَ كلامِهَا مع أخواتها وهي تنصحهن باتباع الحلال، وترك الحرام، وإذا أراد الله أمرًا هَيَّأَ أسبابَهُ!

فَإِنَّ الله تعالى أكرم ولدَهَا بِوَظِيفَةٍ، فَأَبَتْ عليهِ أن يفتتح دوامه فيها إلا بعد عُمْرةٍ ترافقه فيها!

وقبل السفر بِأَيَّامٍ قليلة رأت في منامها رؤيا وصفتها بأنها «رُؤيَا خَير» وأنَّ تأويلها إذا صَدَقَ فَسَتَعْرِفُونَهَا قريبًا!

ثم جمعت جاراتها، وألقت على مسامعهن عظةً عن الموت، وأحكامِ العَزَاءِ والبدعِ فيه، ثم طَوَتْ سَجَّادَتَهَا على غيرِ عادتها، وانطلقت هي وزوجُهَا وأولادها إلى ساحةِ المطار، وقبل ارتقاء الطائرة رَفَعَت يديها تدعو الله ﷻ بما يزيد على [١٥ دقيقة]، دعت فيه لِنَفْسِهَا، وَلِزَوجِهَا، ولأولادها، والجميع يُؤَمِّنُ على دعائها!

ثم شَكرت زوجَهَا، وأنه سببٌ رئيسٌ في تيسير سُبُل دعوتها إلى الله تعالى، وَوَدَّعَتْهُ وَوَدَّعَت

أولادَهَا، ثُمَّ صَعِدَت الطائرة بِرِفْقَةِ ولدِهَا وابنتها وهي تنظرُ إلى زوجها وأولادها، وما عَلِمُوا أَنَّهَا آخرُ نظرة!!

وشاء الله أن تَصِلَ إلى المسجد الحرام في الثُّلُثِ الأخيرِ من الليل، حيثُ نُزُولُ الربِّ سبحانه، وشرعت في الطواف حول البيت العتيق سَبعًا، ثم بدأت السعي بين الصفا والمروة، وإذ بِمُؤذنِ المسجد الحرام يَصدَحُ بالأذان، فقالت لولدها وابنتها: ماذا لو نوينا الصيام؛ فاليوم الخميس، وهو من شعبان؟ فَفَعَلُوا!

ثم صعدت للصفا في فَاتِحَةِ الشوط الخامس، وأخذت تدعو بين الأذانِ والإقامَةِ، ثم سجَدَتْ فجأةً، فقال ولدُهَا: لَعَلَّهَا مرت بآيةِ سَجْدَةٍ في دعائها، فلمَّا طالت وطالت، حَرَّكَهَا وإذا بها تسقط على الأرض؛ فَذَهبَ مُسرِعًا يُحْضِرُ الطبيبَ؛ فَلَمَّا عَاينَهَا أَخْبَرَ بِوَفَاتِها[١]!

وهكذا رحلت إلى ربها ﷻ وهي في أَحَبِّ البقاعِ إليهِ، مُتَلَبِّسَةً بِمَناسِكِ العُمرة بين يديه، صائمةً عابدةً، داعيةً ذَاكِرَةً هاجدةً، فَكَان مَوْتُهَا صورةً مُطَابِقَةً لِحَيَاتِهَا، ونُسْخَةً عن الميتة التي اختارتها لِنَفْسِهَا، لنعلم أن لهذا الكون إلهًا، وأَنَّهُ يُمِيتُنَا على ما عِشْنَا عليه، وَوَصَلْنَا إليه.

القراء الكرام:

إنَّ هذا ما صَنَعَهُ أولياءُ الله لأنفسهم، فَمَا الذي صَنعْتَهُ لِنَفْسِكَ، لِحِينِ عَاقِبَتِكَ؟

ما الذي رسمتَهُ في لوحة خاتمتك؟

أخشى أن يكون رَدُّكَ: أَعْتَذِرُ؛ فَإِنِّي مَشْغُولٌ عن ذلك!!

لَكِن لا تَقْلَقْ، اقْرَأ الصَّحَائفَ الآتية بِعُمْقٍ، فَفِيهَا سَبيلُ الخَاتِمَةِ التي تَنْشُد، وَالعَاقبَةِ التِّي تَقْصِد.

(١) ذكر القصة الشيخ وكيع الكويتي بمقالٍ منشورٍ على موقع صيد الفوائد. وقد ذكرتها بتصرف.

عَوَامِلُ صِنَاعَةِ الخَوَاتِيمِ الفَاخِرَة

ههنا خَمْسَةُ عَوَامِل، فَاظْفَرْ بِهَا حَتَّى تَكُونَ من العاملين، لا من الخاملين:

الأول: إخلاص النية لله جلَّ وعلا:

رُوِيَ أنَّ الصحابةَ ﷺ لما رأوا النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ لأبي بَكْرٍ الصديق ﷺ فَضْلَهُ وَقَدْرَهُ؛ وأنه سبق في الخيريةِ غيرَهُ؛ راحوا يتأملون عبادته؛ فَوَجَدُوهُ كَثِير صلاةٍ وَصَوْمٍ ؛ فاستقر في قلوبهم أنَّ هذا ما فَوَّقَهُ عَلَيهِم، عندهَا أَسْفَرَ النبيُّ ﷺ عن سِرِّ سَبْقِهِ قائلاً لهم: **«ما سَبقَكُم أَبُو بَكْرٍ بِصَلاةٍ ولا بِصِيَامٍ، ولكن بِشَيءٍ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ»**[1]!!

إخوتاه..

واجهتني خواتيم فاخرةٌ لأعلامٍ من أُمَّتِنَا، عبر صفحات تاريخنا، فَأَجِدُ نفسي تَنْجَذِبُ إلى قراءةِ سِيَرِهُم، كَأَنِّي أسيرٌ لأخبارِهِم، حتى تَكَرَّرَ في دُروسي ومجالسي ذكرُهم، فكَثِيرًا ما تساءلتُ:

كيف ارتقى هؤلاء رتبةً تَزْحَمُ مَنْكِبَ الجَوزَاء، وتَعْلُو نجومَ السماء؟

وَبِمَ وَصَلُوا إلى أسنى المكارم، وأَمْجَدِ الخَواتم؟

وبِأَيِّ شيءٍ صاروا أعلامَ الأمة وسادَتَهَا؟

وما هي الخُطُوات التي ساروا عليها؟

فَوَجَدْتُّ -أخيرًا- أن أَلْمَعَ خصالهم؛ عظيمُ إخلاصِهِم، وَصِدْقُ سريرتهم مَعَ رَبِّهِم ﷻ!

فَإِذَا رأيت أَحَدًا جَمَّل اللهُ ذِكْرَهُ، وَوَضَعَ له القَبُولَ في خَلْقِهِ؛ فَاعْلَم أَنَّ له سِرًا فَاخِرًا؛ سَاقَهُ إلى خاتمةٍ فاخرة، وهذا ما دل عليه قول ربنا ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]

---

(١) ابن رجب الحنبلي/ جامع العلوم والحكم ص (٣٠).. وقيل: في هذا الأثر مقالٌ، وإنما هو قولٌ للإمام الحسن البصري.

رسالة الآية:

إنَّ مَنْ أَخْلَصَ لله سريرته في صلاته ونُسُكِهِ وحياتِه؛ رزقه الله مماتًا في سبيله، ولو مَاتَ على سَرِيرِه.

فَيَا من تَبْغِي الخاتمةَ السعيدةَ، والميتة السَّدِيدَةَ؛ أَخْلِص لله في حركاتك وسَكَنَاتِكَ، دون أن تجعلَ للدُّنْيَا حظًا من عباداتك، وإياك أن تَطْلُبَ لِعَمَلِكَ شَاهِدًا غيرَ الذي خَلَقَكَ وفَطَرَكَ، وإلا خُذِلْتَ ساعةَ موتك، وَهَلَكْتَ يومَ لقاءِ ربك.

أما لو سألتني عن علائم المُخْلِصين[١]؛ أَهْدَيْتُكَ ميزانًا لا يَضِلُّ، ومِعْيَارًا لا يُخْطِئُ، أَجْعَلُهُ العاملَ الثاني من مُقَوِّمَات صناعةِ الخَواتيم الفاخرةِ، وإليكَ بَيَانَهُ:

الثاني: أن يكون سِرُّكَ أفضلَ من جَهْرِك:

إن للمرءِ في عمله حالاتٍ ثلاثةً:

إمَّا أن يستويَ سِرُّهُ مع جَهْرِهِ، وإما أن يَتَفَوَّقَ سِرُّهُ على جَهْرِهِ، أو يَطْفُو جَهْرُهُ على سِرِّهِ.

فَإذا استوى سِرُّكَ وجَهْرُكَ فَهَذِهِ أمارةُ الإيمان، وإن فَاقَ سِرُّكَ جَهْرَكَ نِلْتَ رُتبةَ الإحسان، أما من كان جَهْرُهُ أفضلَ من سِرِّه؛ فهذا إيمانه منقوصٌ فاتر، وإن قَدَّمَهُ الناس فهو في الأواخر، فَالْحَق -أُخَيَّ- بِقَافلةِ المخلصين، وَبَادِر بَادِر، ثم حَاذِرْ حَاذِر

أحبتي في الله..

أخرج الإمــام أحمد في مسنــده بِسَنَدٍ صحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبْشَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، قَالُوا: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُمْ حَتَّى تَهْدِيَهُمْ كَمَا هَدَيْتَنَا»[٢].

سَمِعَ أبو الدَّرداءِ بِهَذَا الحديث، فَتَضَرَّعَ سَرِيعًا إلى الله قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوْذُ بِكَ أَنْ أَعْمَلَ

---

(١) أنصح بقراءة كتاب: «تعطير الأنفاس من حديث الإخلاص» للشيخ سيد عفاني، فإنه جيدٌ في بابه.

(٢) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٢٦٨٣)، (٢٠/ ١١٤)، وقد ضعفه الألباني أولًا، ثم رجع عن التضعيف، وصححه في السلسلة الصحيحة رقم الحديث: (٢٥٧٨).

عَملاً أُخزَى بِهِ عِنْدَ عَبْدِ الله بنِ رَوَاحَة»[١].

وَرَوَى ابنُ أبي الدُّنْيَا عنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ﵁، قَالَ: «غَزَوْنَا حَتَّى إِذَا انْتَهَيْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ إِذَا قَاصٌّ يَقُولُ: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ عُرِضَ عَلَى مَعَارِفِهِ إِذَا أَمْسَى مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلاً مِنْ آخِرِ النَّهَارِ عُرِضَ عَلَى مَعَارِفِهِ إِذَا أَصْبَحَ مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ»

فَقَالَ لَهُ أَبُو أَيُّوبَ: أَيُّهَا الْقَاصُّ، انْظُرْ مَا تَقُولُ؟

قَالَ: وَاللهِ إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ!

فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَفْضَحْنِي عِنْدَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَلَا عِنْدَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِيمَا عَمِلْتُ بَعْدَهُمَا

فَقَالَ الْقَاصُّ: وَإِنَّهُ وَاللهِ مَا كَتَبَ اللهُ وِلَايَتَهُ لِعَبْدٍ؛ إِلَّا سَتَرَ عَلَيْهِ عَوْرَتَهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ عَمَلِهِ»[٢]!!

رسالة الآثار:

لك أَحِبةٌ عرفُوا سَرِيرَتَك، يَدْعُونَ اللهَ دومًا أن يَهْدِيَك؛ لِتَحْظَى بِخِتَامٍ يُشَرِّفُهُم ويُشَرِّفُكَ!

أَتُخَيِّبُ ظَنَّهُم فِيكَ؟ أَحِبَّتُكَ يَدْعُونَ اللهَ لَكَ بِمَا تُقَصِّرُ أن تدعو بِهِ لِنَفْسِكَ، أَيَلِيقُ هَذَا بك؟ واعَجَبًا لك!

اتَّقِ الفَضِيحَةَ بِخَشيةِ الله بِالغَيبِ، لِيُخْتَمَ لك بِمَا عِشْتَ عليه عند المَوتِ؛ فَمَا عاد يُجْدِي الفُتُورُ، وما عادَ يَنْفَعُ الكَسَلُ!

ألم يستجشْك وَعْدُ المَلِك في سورة المُلْك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢]؟!

ألم تُفْزِعْك طَارِقَةُ الطَّارِقِ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩، ١٠]؟!

ألم تَهُزَّكَ زلزلةُ الزَّلْزَلَةِ إذْ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٢-٤]؟!

---

(١) ابن رجب/ أهوال القبور ص (١٥٠).. وقد أسلم أبو الدرداء ﵁ على يد عبد الله بن رواحة ﵁.

(٢) ابن أبي الدنيا/ الأولياء ص (٢١).

خَطَرٌ دَاهِمٌ:

إنَّ الأصْلَ بِذَوي التُّقَى استواءُ الظَّاهِرِ بالبَاطِنِ، أمَّا ذَوو الإحسان فَهُمُ الذِّين كَانَ عَمَلُهُم في الباطِنِ أكثرَ من عملهم في الظَّاهِرِ، فَلَو كَانَ العبدُ يصلي أمام الناس [٤ ركعات]؛ فالأصلُ أن يَحْظَى سِرُّهُ بِ [٦ ركعات]، ولو كان الناس يلحظون أنه يتلو نِصْفَ جُزءٍ من القرآن، كان ينبغي له أن يتلو جزءًا كاملاً بينه وبين الرَّحمنَ جلَّ وعَلا.

فَهذِهِ السَّرِيرَةُ الصَّالِحَةُ تَظْهَرُ بِنَفْسِهَا عند مَوتِ صَاحِبِهَا، لِيَمُوتَ تمَامًا عَلَيْهَا؛ إذ مَن عَاشَ عَلَى شيءٍ ماتَ عليه!

أما من سَعَى في تحسين عَلَنِهِ، وسِرُّهُ بَاقٍ على خَبَثِهِ، فأستأذنك في توجيهِ إشارةٍ حمراءَ له؛ علَّهَا تَردَعُهُ:

أخرج ابنُ ماجه في سننه بِسَندٍ صحيحٍ من حديث ثوبانَ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا؛ فَيَجْعَلُهَا اللهُ عز وجل هَبَاءً مَنْثُورًا!!**

قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهَّ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ.

قَالَ: **أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهَّ انْتَهَكُوهَا**»(١).

رسالة الحديث:

سار قومٌ في ساحةِ الآخرة، وأعلنوا الفرحةَ الغَامِرَةَ؛ فَالحَسَنَاتُ بِالصَّحائِفِ عَامِرةٌ، والقُرُبَاتِ عديدةٌ باهِرَةٌ، فَلَمَّا وُزِنَتْ كانت البَلِيَّةُ، وأعظمُ الرَزِيَّةِ، فقد طارت أعمالهم وانتشرت نُشُورًا، وظَهَرت فِي الأُفُقِ هَباءً مَنْثُورًا، فَإِذَا جاء من يستشفع لهم قيل له: إنهم قومٌ كانوا إذا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انتهكُوهَا، بل كانوا ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾[النساء ١٠٨]!!

---

(١) سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٢٤٥)، ص (٧٠٣)، وقال الألباني: صحيح.

اللهُمَّ سَلِّم طاعاتنا، واحفظ حسناتنا.

كَأنِّي بِالزُّبيرِ ﷺ يسمعُ الحَدِيثَ؛ فَيَقْرَعُ سَمْعَكَ نَاصِحًا:

مَنِ استطَاعَ مِنْكُم أن يكونَ له خِبءٌ من عَمَلٍ صَالحٍ فَلْيَفْعَل!

وَرَحِمَ اللهُ سُفيان الثوريَّ القائِلَ:

أنا لا أَعْتَدُّ بِمَا ظَهَر من عَمَلِي!

فإذا انتسبتَ لأهل السرِّ، وتألمتَ إن رآك فيه بشر، وجلستَ ترقب قدوم الليل؛ فلما خيَّم الظلام، نَصَبْتَ الأقدام، وناجيت رب الأنام، والناس نيام، فَثِقْ بأن خاتمتك ذَهَبِيَّةٌ، ونِهَايَتَك عَسَلِيَّةٌ؛ فَإِنَّ هذا ليلٌ لا يُحْيِيهِ إلا صادقٌ، وَقَلَّمَا سَهِرَ بِالطَّاعَةِ فيه مُنَافِقٌ!

الثالث: عِشْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ، أو عَابرُ سبيل:

وهذه جملةٌ نَفِيسَةٌ، هي خلاصةُ الوَعْظِ في الإسلام!!

لعلَّكَ تَلْحَظُ أَنَّكَ إن كُنْتَ خارج بلدتك أنك تشعرُ بِغُربَةٍ شديدةٍ، حتى تُنْجِزَ مُرادَكَ منها بِأَسرعِ وَقتٍ، وأحسنِ حال، إلا أن الطمأنينة لا تستقر بِقَلبِكَ؛ إلا عند رؤيتك مشارف بلدتك!

وما ذاك إلا أن المَرْءَ مجْبُولٌ على الحنينِ لِوَطَنِهِ الأول، ولَمَّا كانت الجَنَّةُ أرضنا الأولى فإنَّا على أرضِ الدُّنْيَا نُزُلاء؛ فَنَأْخُذ منها حاجتِنَا، ثم نَرْتَحِلُ سريعًا بِلا إقامةٍ كما يَنُصُّ قَامُوسُ الغُربَاء!!

أَمَّا إن سَأَلْتَنِي: مَا السبيلُ لِوَصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ؟

أَجَبْتُكَ بِفَهْمِ ابنِ عمر ﷺ لها؛ إذْ هو أول من سمعها؛ فَحَلَّلَهَا، ثم صَاغَ لك سبيلَ العَمَلِ بِهَا، بِقَولِهِ:

إذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وإذا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاح!!

إخوتاه..

إن من أصبح ينتظرُ موتَهُ، شاكًا في بلوغِ مَسَائِهِ، أو أمسى يرقُبُ حَتْفَهُ؛ شاكًا في طلوع صباحه؛ تَجِدْهُ بِعَزِيمَةٍ فَاعِلَةٍ باهرةٍ، وسريرةٍ فَاخِرةٍ، كَثِيرَ الطَّاعات، عديمَ السيئات، يتخلصُ من حُقوقِ العبادِ عَليه، إمَّا بأدائِهَا أو بِكِتَابَةِ وصيَّتِهِ؛ فهذا يَقْضِي مَيِّتًا على أَحْسَنِ أَحْيَانِهِ، وَفِي خَيرِ أَيَّامِهِ!!

الرابع: بَرْنَامَجٌ يَوْمِيٌّ مُقْتَرح

بَعدَ جَولَةٍ في قاموسِ الطَّاعَات؛ أُهدِي إليكَ أَلَمع القُرُبَات؛ التي تُعَدُّ وَقُودًا للخَواتِيم الصَّالِحَات، فَإن عَمِلْتَ بِهَا أَو بِجُلِّهَا كنت على خيراتٍ مُتكَاثِرَات، وإليك بيانهَا:

أولاً: الصَّلاة:

1) صلاةُ الجماعة:

أخرج البخاري ومسلمٌ في الصحيحين من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «صَلاةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»!!

لو تكلم الحديث لقال:

من صلى الفريضةَ في جماعةٍ؛ كَأَنَّمَا كَرَّرَهَا [٢٧] مرَّة!

هَبْ أنك سَتُصَلِّي العصرَ مُنْفَرِدًا، وحتى تُدْرِكَ أَجْرَ الجَمَاعَةِ كَرَّرْتَ الصلاةَ [٢٧] مرة، فتَكُونَ قَد صليت [١٠٨] ركعات، وعندئذٍ لن يَكْفِيَكَ الوقتُ من العصرِ إلى المغرب؛ لإنجازِ هذا العدد، ثم لو كَرَّرْنَا الصلوات الخمس [٢٧] مرة؛ لَمَا كَفاكَ اليومُ والليلةُ لأدائِهَا.

مِمَّا يعني أن من صلَّى الصلوات كلها في جماعةٍ؛ فَكَأَنَّهُ قَام اللَّيلَ والنَّهارَ يُصَلِّي، فَهَذا لَو مَاتَ فِي أيِّ سَاعَةٍ؛ فَكَأَنَّهُ مَات يُصَلِّي، وعليه؛ فَإِيَّاكَ وفراقَ الجماعةِ؛ لئلا تَمُوتَ بعد صلاةٍ صليتها مُنْفَرِدًا.

2) صلاةُ الفجر:

أخرج المنذريُّ في ترغيبه وترهيبه من حديث سمرة بن جُنْدَبٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الصُّبحَ فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ عز وجل»[1].

رسالة الحديث:

إنَّ الله جلَّ وعلا يحفظُ عَبْدَهُ في ذِمَّتِهِ ما صَلَّى الفَجْرَ في جماعةٍ، فَإِنْ مَاتَ من يومه؛ مات على الطَّاعة؛ لأنه مَحْرُوسٌ من رَبِّهِ، وَاثِقٌ في وَعْدِهِ.

---

(١) المنذري / الترغيب والترهيب (١/ ١٦٥)، ورقم الحديث: (٦٠٩)، وحسنه الألباني.

ولَمَّا كان من شَأْنِ الحَسنةِ أن تَجُرَّ أختها، والأُخْتُ تأتي بِأُخْرَى؛ كان من صلَّى الفَجْرَ غالبًا ذا يومٍ ذَهَبِيٍّ؛ إذ تَطِيبُ نَفسُهُ بِطَاعَةِ رَبِّهِ؛ فَإن لَقِيَ اللهَ كان مُكثِرًا من الخَيرِ فِي يَومِهِ.

قرأت في سيرةِ الشهيد المهندس أمجد عبد ربه فياض -نحسبه كذلك ولا نزكيه على ربه- أَنَّهُ كَان يَنَام كثيرًا في المسجدِ؛ لئلا تفوتَهُ يومًا!

ثُمَّ نظرتُ في خاتمته؛ فَأَلْفَيْتُهُ قد لَقِيَ ربَّهُ شهيدًا، بل كان بَطَلَ عمليةٍ قتاليةٍ مع اليهودِ الصَّهَاينةِ، وقد صَلَّى يومَ شهادته الفَجْرَ في جَمَاعَةٍ؛ لِيَلْقَى اللهَ عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْه.

3) قيامُ الليل:

أخرج أبو داود في سننه بِسَندٍ صحيحٍ من حديثِ عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ»(١).

رسالة الحديث:

إنَّ مَنْ قَامَ اللَّيلَ بقراءةِ [١٠] آياتٍ لم يُكتَب من أهلِ الغَفْلَةِ، أما من طَلَعَ عليه الصَّبَاحُ دُونها؛ فَقَد استقَرَّت الغَفْلَةُ فِي قَلْبِه!

فَإن ابتغيتَ خاتمةً حسنةً؛ فَقُم من اللَّيلِ ولو ركعتينِ بَعد العِشَاءِ بِآيَاتٍ عَشَرة؛ لئلا تَمُوتَ عَلَى غَفْلَةٍ، فَتَخدِشَ الغَفْلَةُ سلامةَ خاتِمَتِك، وجميلَ عاقِبَتِك.

حبيبي في الله..

إن اللهَ جلَّ وعلا شَوَّقَ نَبِيَّهُ ﷺ لِنَيلِ المَقَامِ المَحْمُود -مَقَامِ الشَّفَاعَةِ الكُبرى- بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩]

فَأَنْتَ ترى أن الله تعالى جعلَ ضريبةَ مقام الشَّفاعةِ الكُبرى أن يَتَهَجَّدَ نبيُّنا ﷺ من الليلِ، وقد سمعت الشيخ الدكتور يُونُس الأسطل يَقُول:

إذا أَرَدْتَّ أن تَكُونَ وَرِيثَ النَّبِيِّ ﷺ، وتأخذ نصيبًا من الشفاعةِ لِغَيرك يوم القِيامَةِ، وتكون

(١) سنن أبي داود، رقم الحديث: (١٣٩٨) ص (٢١٨)، وقال الألباني: صحيح.

بَينَ النَّاسِ شَامَةً؛ فَلْتكُنْ من أَصْحَابِ التَّهَجُّدِ، وقِلَّةِ المرقد، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَة، والله أعلم!!

هذا فضلاً عَمَّا في قيامِ الليلِ من وفرة الخَلوةِ وعبادة السرِّ، وحصول ألوانٍ من الطَّاعةِ؛ كَالصَّلاةِ، والتلاوة، والتوبةِ، ومحاسبةِ النفسِ، والمُنَاجَاةِ، والبُكاءِ، والضَّرَاعةِ!

وَلِهَذَا كان قيامُ الليلِ من أعلامِ العِبَادَةِ، وألمعِ مُسَبِّبَاتِ اللذَّةِ والسعادةِ، وَلَولَا جَهْلُ الأكثرين بِحَلاوةِ هذهِ اللذَّةِ، وعِظَمِ قَدْرِها؛ لَتَجَالَدُوا عليها بِالسُّيُوف، ولكن حُفَّت بحِجَابٍ من المكارهِ، وحُجِبوا عنها بأسوارٍ مِنَ الجَهلِ؛ لِيَخْتَصَّ اللهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم.

ثانيًا: الأذكارُ:

1) قراءة آية الكرسي عقب كل صلاة:

أخرج المنذري في ترغيبه وترهيبه بِسَنَدٍ صحيح من حديثِ أَبِي أُمَامَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**»[١].

وَرِسَالَةُ الحديثِ ظَاهِرةٌ، وما أَظُنُّ أحدًا يبلُغُهُ هذا الحديث -وقد آتاه الله قلبًا يَقِظًا- يَتْرُكُ العَمَلَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِن أَجَلِّ البَشَائِر، فَهَنِيئًا به لِكُلِّ مستغفرٍ ذاكرٍ، لِجَنَابِ التوحيد شاكرٍ!!

قال ابنُ القيم: وبلغني عن شيخنا أبي العَبَّاسِ ابنِ تيمية قدَّس الله روحه أنه قال: ما تركتُها عُقيبَ كُلِّ صلاة[٢].

بل إني أَطْمَعُ من أخي القارئ درجةً إِضَافِيَّةً؛ تُدْرِكُ مَفَادَهَا من خلال القِصَّةِ التالية:

جاء الفقراءُ إلى النبي ﷺ يَشْتَكُونَهُ الأغنياء المُتَصدِّقِين الذين ذَهَبُوا بِالدَّرجات العُلَا، والنَّعِيم المُقِيم، فَدَلَّهُم النبي ﷺ على ما يَفْضُلُ عملَهُم بِقَولِهِ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ: تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»[٣].

---

(١) النسائي / السنن الكبرى، رقم الحديث: (٩٨٤٨)، (٩/ ٤٤)، وقال الألباني: صحيح، عند حكمه على أحاديث الترغيب والترهيب.
(٢) ابن القيم/ زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٠٤).
(٣) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٨٤٣)، (١/ ١٨٨).

وَمُرادُنَا من الحديث؛ ذَلِكُمُ السَّبْقُ الذي نَبْتَغِيهِ ساعةَ الخاتمة؛ فَإِنَّ من كان فِي الخَيرِ سَبَّاقًا؛ رَزَقَهُ اللهُ خِتامًا فَاخِرًا لِحَياتِهِ مِصْدَاقًا، فَقَد مَضَت سُنَّةُ الله تعالى أنَّ من عَاش على شَيءٍ مَاتَ عليه.

2) أذكار الصباح والمساء:

إنَّ الأذكارَ المَأْثُورَةَ كَثِيرةٌ، فَإِن شُغِلْتَ عنها؛ فَإِيَّاكَ أن تَتْرُكَ ثلاثةً منها، إليكَ ذِكْرَهَا:

أخرج أحمد في مسنده بِسَنَدٍ صحيحٍ من حديثِ أَبْزَى رضي الله عنه أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»[١]!

وأخرج أبو داود في سننه بِسَنَدٍ حسن من حديثِ أبي بكرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»، يعيدها ثلاث مرات!

قَالَ عَبَّاسٌ رضي الله عنهما وَتَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**»[٢].

وأخرج النسائي في سننه بِسَنَدٍ صَحِيحٍ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»[٣].

قَالَ جُبَيْرٌ: وَهُوَ الْخَسْفُ.

رسالة الأحاديث الثلاثة:

أَفَادَ الحديثُ الأولُ إعلانًا منك أنَّ التَّوحيدَ ثَابِتٌ في قَلْبِكَ، وشَرعَ الله رَاسِخٌ في لُبِّكَ، ولا يَخفَى عليك أنَّ التوحيدَ أَجَلُّ الأعمالِ، وأحسنُ الأقوالِ، بل هو للخواتمِ خيرُ زادٍ، يحمِلُهُ العِبادُ.

وَأَسْفَرَ الحديثُ الثاني عن براءتك من الكُفرِ، وطلبك المُعافاة في البَدَنِ والسمعِ والبَصَرِ.

(١) مسند أحمد، رقم الحديث: (١٥٣٦٠)، (٢٤/ ٧٧). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٥٠٩٠)، ص (٧٦٢)، وقال الألباني: حسن الإسناد.
(٣) سنن النسائي، رقم الحديث: (٥٥٢٩)، ص (٨٣٣)، وقال الألباني: صحيح.

فَأَنْتَ بِهَذا تَرجُو اللهَ أن يُخَلِّصَكَ من آثامِ السَّمْعِ؛ كَسَماعِ الغيبةِ والخَنا، واستماعِ الغِنا، وكَذا من مَعاصِي البصر؛ كَالنَّظَرِ إلى المُتَبَرِّجَات، ومَظَانِّ المعاصي والمُنكَرات.

وَكَشَفَ الثالثُ عن تَضَرُّعِ العبدِ لِرَبِّهِ أن يُنَجِّيَهُ من العُقُوبات التي تُودِي بِحَياتِهِ؛ كَالخَسْفِ، والزَّلزلَةُ، ونحوُها تُقاسُ عليه.

وَبِهَذَا لا يكترثُ العَبْدُ في أيِّ يَومٍ يموت، مَا دَامَ يُوَحِّدُ الحيَّ الذي لا يموت، ويسألُهُ النَّجاةَ من المعاصي والشُّرُور، ومن كان هذا حالَهُ عَبَرَ جِسْرَ الوُصُولِ؛ إلى خِتَامٍ مُوَفَّقٍ مَبرُورٍ، بِعَونِ العَزِيزِ الغَفُور.

3) وردُ الصلاةِ على النبي ﷺ:

أخرج النسائي في سننه بِسَندٍ صحيح من حديثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ»**[1]!!

فَلَو صَلَّيْتَ على نبيك ﷺ في اليوم [٥٠] مرة؛ صَلَّى اللهُ عليْكَ [٥٠٠] مَرَّة، وَحَطَّ عَنْكَ [٥٠٠] خطيئة، وَرَفَعَكَ [٥٠٠ درجة]!!

قلتُ:

إنَّ الصَّلاةَ مِنَ الله ثَناءٌ وَرَحْمةٌ، فَإذَا أثنَى اللهُ علَى عَبْدِه؛ وَفَّقَهُ وَرَحِمَهُ، بل إني لأحسبُ أن اللهَ جلَّ وعلا لا يُوَفِّقُ عَبدًا للصلاة على النبي [٥٠] مرَّةً مثلاً؛ لِيُصَلِّيَ عليه [٥٠٠] مرة؛ إلا وهو يريد أن يَرْحَمَهُ، ويُوصِلَهُ إلى جَنَّتِهِ، عَبْرَ خاتمةٍ حسنةٍ طَيِّبَةٍ.

وَرُبَّ سَائِلٍ يسأل:

إنَّ قَولِي: «اللهُمَّ صلِّ على مُحَمَّدٍ» [٥٠] مرَّة، قضيةٌ سهلةٌ مُيَسَّرَةٌ، قد لا تحتاج إلا لدقيقتين اثنتين، فَكَيف كانت بهذه القيمةِ العلية، والدَّرجاتِ الزكية الرضية؟

(١) سنن النسائي، رقم الحديث: (١٢٩٧)، ص (٢١١)، وقال الألباني: صحيحٌ.. وفي رواية الترغيب والترهيب زيادة: مخلصًا من قلبه.

والجَوَابُ:

إنَّ الله جلَّ وَعَلا لا يُوَفِّقُ لِهَذَا الشَّرفِ ذَا خِتَامٍ مَشِينٍ، فَعَلَى يُسْرِهَا وسُهولَتِهَا؛ كَمْ من الناس يقولُها؟ نَقِّبْ حولك في البشرية لِتَرى كَمْ من العباد مُلتزمٌ بها؟

ألم أقل لك: إنَّ القضيةَ قضيةُ توفيقٍ وَحِرمانٍ، لا قضيةُ مَعْرِفَةٍ وَبَيَانٍ؟!!

4) عمدة الأذكار:

إليكَ حديثًا يُزكيك، ولو شُغِلتَ عن كثيرِ الذِّكْرِ؛ فَإِنَّهُ يَكفيك!

فَمَن أرادَ خِتامًا ذهبيًّا، ومماتًا عَسَلِيًّا؛ فَلْيَكُن من أهله، وإلا كان محرومًا، أو مُطْبِقًا في جَهْلِه.

أخرج الترمذي في سننه عن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[١]!!

ولكن ما علاقة هذا الحديث بِالخَاتِمَةِ الذهبية؟

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛**

١) كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ!

٢) وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ!

٣) وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ!

٤) وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ!

٥) وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[٢]!!

رسالة الحديث:

إنَّ من قَالَهُ بلغَ أفضلَ مقاماته، فإنْ مات لَقِيَ اللهَ على أحسن حالاته؛ لِمَا مضت سُنَّتُنَا عليه؛

---

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٣٥٨٥)، ص (٨١٤،٨١٥)، وقال الألباني: حسن.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٣٢٩٣)، (٢/١٢٦).

أنَّ من عاش على شيءٍ مات عليه.

وما أظن أن رجلاً يَخْتَصُّهُ اللهُ بِوِقَايةٍ من الشَّيطانِ، وَتَفوُّقٍ على الأَنَام؛ إلا وربُّنا جَلَّ جَلالُهُ سَيُكْرِمُهُ بِخِتَامٍ ذهبيٍّ يَسُرُّ النَّاظِرين، ويُقِرُّ عيونَ المؤمنين، جعلني الله تعالى وإياك منهم، قُلْ: آمين!!

5) الورد القرآني اليومي:

تجوَّلتُ في قاموس الخواتيم الحُسْنَى؛ فَوَجَدْتُّ أنَّ لأصحابها مَعَ القُرآن شَأنًا، سواء كانوا من العلماء والدُّعَاةِ والعُبَّادِ والمُجَاهِدين، أو من عُمُومِ الصَّالِحين.

فَهَذا الخَليفَةُ الرَّاشد عثمان بن عفان ﷺ يقضي شهيدًا والمصحفُ بين يَدَيْهِ يتلُو سُورةَ البقرة.

وهذا القارئ عبد العزيز عيون السود شيخ مقارئ دمشق يموت ساجدًا في صلاةٍ تلا فيها طَرفًا من كتاب الله تعالى، ونظيرُهُ في خاتمتِهِ الشيخ الداعية عبد الحميد كشك رحمهما الله تعالى.

وهذا الشيخ المجاهد عبد الله عَزَّام قَلَّمَا رُئِيَ إلا والمصحفُ بِيَدِهِ، وقد رحل إلى الله فِي يومٍ اسْتَهَلَّهُ بِتَعليمِ أهلهِ سورةَ الكهف؛ لِيَقْضِيَ بعدهَا شهيدًا ساجدًا!

وغيرهم مثلهم، فسر على منوالهم.

معاشر الفضلاء:

إنَّ العبدَ المُوَفَّقَ الذي يَخُصُّهُ ربُّهُ بِخَاتِمَةٍ قُرآنيةٍ يَطِيبُ بها قلبه؛ لو بحثت في حَيَاتِهِ؛ لألفيتَ أنَّ لهُ أذكارًا وأورادًا، ووجدته عَلَيْهَا مُعتادًا.

أمَّا من هَجَرَ كتابَ رَبِّهِ إلا من تلاوةٍ عابرةٍ -مثلاً- في دقائقَ عشرة من مطلع الشهر؛ فَكَيفَ يرجُو أن يَمُوتَ تاليًا للقرآن في تلك الدقائق العَشْرِ؟!

أخي..

إنَّ المحرومَ مَن عَرفَ مَسلكَ الوُصول؛ وَحَصلَ عَليهِ أَتَمَّ حُصُول؛ ثُمَّ أَدبَر وَتَولَّى، وَجَمعَ فَأَوعَى!!

ثالثًا: وِرْدُ النيَّات[1]:

إنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ بِنِيَّتِهِ ما لا يبلغُ بِعَمَلِهِ!!

لافتةٌ إيمانيةٌ تربويةٌ رفعَهَا فقيهُ الأمةِ عبدُ الله بن المبارك.

بل إن «مَنْ لا حِسْبَةَ[2] لَهُ، فَلا عَمَل لَهُ»

لافتةٌ أخرى خطَّهَا صدِّيقُ الأُمَّةِ أبُو بكر ﷺ، وَلِهَذه اللافتة وَتِلك؛ أَقْتَرِحُ عليك ألمعَ النِّيَّات التي يَنْبَغِي أن يَسْتَحْضِرَهَا العبدُ عندَ كُلِّ صباحٍ وَمَسَاءٍ، وهَاكَ هِيَ:

❖ اللهُمَّ إني أَشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، أَنْوِي الحياةَ عليهَا، والثَّبَاتَ عليْهَا، والوَفَاةَ عليهَا، فَلا تُمِتْنِي اللهُ إلا عَلَيْهَا.

❖ اللهُمَّ إني عَقَدْتُّ العَزْمَ أن تكون صلاتي ونُسُكِي ومَحياي ومَمَاتِي في سبيلك، بِإخلاصٍ في النية، وصدقٍ في الطَّوِيَّة.

❖ اللهم إني أنوي فِعْلَ كُلِّ فَريضةٍ عَلَيَّ وَوَاجِبٍ، وما استطعت من المستحبِّ.

❖ اللهُمَّ إني جَازِمٌ في ترك المُحَرَّمات، وما استطعت من المَكْرُوهَات، فَوَفِّقْنِي فِيمَا نَويت، غيرَ مُفَرِّطٍ ولا مُضَيِّعٍ.

رابعًا: حُسْنُ الظَنِّ بالله:

أخرج مسلمٌ في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبلَ مَوْتِه بثلاثَةِ أيّام يقولُ: «**لاَ يَمُوتَنّ أحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله ﷻ**»[3].

وأخرج الترمذي وابن ماجه في سننيهما بِسَنَدٍ حسنٍ من حديث أَنسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ»؟

قَالَ: أَرْجُو اللهَ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي.

---

(١) هذه من جملة المستحبات التي تتفق ومقاصدَ الشرع، لكنني لم أجد أدلة أثرية تنص على هذا، إلا شيئًا من أقوال بعض الصالحين، وتتأيد بحديث الصحيحين: «وإنما لكل امرئٍ ما نوى» وقصة قاتل المائة نفس؛ إذ لما تاب وخرج مهاجرًا إلى بلد الصالحين ومات في منتصف الطريق؛ غفر الله له لما عقد في نيته.

(٢) أي: احتساب الأعمال بالنوايا الصالحة.

(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٧٤١٢)، (٨/ ١٦٥).

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[١].

رسالة الحديثين:

ينبغي للعَبْدِ الطَّامِعِ في خاتمةٍ طَيِّبَةٍ؛ أن يُحْسِنَ الظنَّ بِرَبِّهِ، ويسيءَ الظَّنَّ بِنَفْسِه؛ لِيَبقَى خائفًا من ذنبِهِ، رَاجيًا رحمةَ ربِّه.

والذي يرجُو ربَّهُ؛ ليس من اتكأ على مغفرةِ ربِّهِ، دُونَ تَعَبٍ أو جَهْدٍ يبذُلُهُ، ولهذا كان راجِي الرَّحمة هو من عَظُمَت بِالأعمال الصَّالِحَةِ عِنَايَتُهُ؛ كَالإيمان به، والهِجرةِ له، والجهاد في سبيلِهِ، اقرأ إن شئت قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة:٢١٨].

فَهَذَا إنْ مَاتَ في أيِّ ساعَةٍ؛ مَاتَ من أهلِ الطَّاعَةِ.

خامسًا: الانتهاء من متعلقات العباد:

إنَّ من أَلمع عوائقِ الرَّحيلِ إلى الله حُقوقَ عبادِ الله، فَكَم مِن عبدٍ خَافَ لِقَاءَ ربِّهِ؟؛ لأَنَّهُ مُقَصِّرٌ مع خلقِهِ، قد استدان من هذا، واغتابَ هذا، وَهَجَرَ هذا، وقلبُهُ حاقدٌ على هذا، فَلِكَي تصنعَ خاتمةً فاخرةً؛ فَلا بُدَّ أن نتعاون سويًا في إنجازِ أمورٍ أربعة:

(1) سداد الدين، وحفظ الأمانات:

أخرج مسلمٌ في صحيحه من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»[٢].

رسالة الحديث:

إن الشهيد الذي يُغْفَرُ له مع أولِ دَفْقَةٍ من دَمِهِ، ويُجَارُ من عذاب القبر، ويأمنُ من الفَزَعِ الأكبرِ، ويُشَفَّعُ في سبعينِ من أقاربه، وَيُزَوَّجُ اثنتين وسبعين حُورِيَّةً؛ سَيُغْفَرُ له كل ذَنْبٍ إلا

(١) سنن الترمذي، رقم الحديث: (٩٨٣)، ص (٢٣٤)، سنن ابن ماجه، رقم الحديث: (٤٢٦١)، ص (٧٠٦)، وقال الألباني: حسن.
(٢) صحيح مسلم، رقم الحديث: (٤٩٩١)، (٦/٣٨).

الدَّين، فَهَذا حَالُ الشَّهيد؛ فَماذا نَقُولُ نَحْنُ؟ وَبِمَ نُعبِّر؟

ولهذا أَدِينُ الله جلَّ وعلا، وأنصحُكَ ألا تستدين إلا مُضْطَرًا غايةَ الاضطرار، فَلَكَم جَالستُ شَبابًا -لأجْلِ الدَّيْن- خَافُوا لقاء الجبار ﷻ، واليوم هُم غَارِقُون في الدُّنْيَا جِدًّا، وما عَادَ التَّفْكِيرُ في الرَّحيل وَارِدًا!

إخوتاه..

ينبغي لكل من بَلَغَهُ هذا الحديثُ الرَّعيبُ أن يُبَادِرَ فورًا بِكِتَابةِ وصيته الماليَّةِ؛ فَتكْتُبُ ما لك، وَمَا عليك، والأماناتِ التي بِحَوزَتِك، فَلَو مِتَّ؛ أراحك أهلُكَ بِقَضَاءِ دَيْنِكَ، وردِّ الأمانات التي عندك، وحَذَار من التقاعس عن ذلك؛ فإن الموتَ قَرِيبٌ!

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته — يومًا على آلةٍ حـدباءَ محمـول

ألا وكما شيعت يومًا جنـازةً — فأنت كمـا شيعتهم ستشيـع

وَلِبَالغَ الحرص النبوي عليك؛ لم يُتْرُكْكَ نبيُّكَ ﷺ حتى وعظك بِقَولِهِ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»(١).

ويعلم الله أني ما رأيت أمرًا اجتمع الناس على تركه، مع عظيم حاجتهم في القُبُورِ له؛ مثل ترك كِتَابَةِ الوَصِيَّة، وكَأننا في حياةٍ دنيويةٍ خالدةٍ سرمَدِيَّةٍ!

كيفَ تَكْتُبُ وَصيَّتَك؟

تكتب: هذا ما أوصَي به «فلان بن فلان» وهو بِكَاملِ الأهليَّةِ الشرعيَّةِ، وهو يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب، وأن الله يبعث من في القبور، وأنَّ كُلَّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه..

ثم تذكر صاحب الدَّيْنِ، وقيمةَ الدَّينِ إن كان نَقدًا، وَتَفْصِيلَهُ إن كان عَينًا.

وكذا تفعل بِأَصْحَابِ الأمانات؛ فَتكْتُبُ اسمَهُ، وَقَدْرَ أمانته إن كانت نقدية، وتفصيلَها إن كانت عَيْنِيَّةً، ثم تقول:

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

هذه تفاصيل حقوقِ النَّاسِ المالية والعَيْنِيَّةِ، فَبَادِرُوا بِقَضائها من مَالِي، أو تَعَهَّدُوا بِتَسديدِهَا، ولا تدفعوني إلى القبر وَأنا مَدِينٌ، أو لأحدٍ حقٌ في ذِمَّتِي[١].

(2) التكفير عن الغيبة:

الغيبةُ فَاكِهَةُ اللئام، وَهِيَ الصِّدْقُ الحَرام، وَقَد مَرَّ بِكَ خَطَرُهَا الذي يُزَلْزِلُ قلبَك، وَتَهْتَزُّ بِهِ نفسُكَ[٢].

ومَكْمَنُ خطرها أنها حقٌّ من حقوقِ الناس، ولا يكفي لها المَتَابُ لِرَبِّ النَّاس، وبهذا قد تَخذِلُكَ ساعةَ الموت، فتشوشُ عليك حُسْنَ الخاتمة وجمالَهَا، لكن إليك خطواتٍ تُعينك على الخلاصِ من إثمها:

١) من سقط في وَحَلِهَا؛ فَلْيُسابقِ الزَّمنَ يَسْتَسْمِحُ أَخاه، اللهم إلا إن علم أنه يؤذيه بالخبر؛ فليستغفر له بالغيب؛ ليظلَّ سليم الصدر.

٢) فإن صَوَّرَ له الشيطانُ الاستسماح جَبلاً يَشُقُّ تَعَدِّيه، وأبى التَّغَافُرَ مع أخيه؛ فَعَلَيهِ أن يعودَ للمجلس الذي اغتابَهُ فيه، ويصدحَ بِمَحاسِنِهِ، ويسترَ عيوبَهُ وباطن مساويه.

٣) ثم لِيـرَكع ركعتين، يَسْتَغْفِرُ فيهمـا لِصَاحِبِه، ويدعو له بِقَـدْرٍ يظنُّ أَنَّهُ كَفَّر ذَنْبَهُ، وَلْيَسأل ربَّهُ أن يتقبل ذلك مِنْهُ، وَكُلَّمَا سَنَحت له فرصةٌ للدِّفَاعِ عن صاحبه؛ فَلا يَقعد، ولا يتردد.

(3) صلة الرحم، وخاصة الوالدين.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ**[٣] **مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ**»[٤].

وفي رواية: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتمْ: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**

(١) هشام العارف / اقرأ ثم اكتب وصيتك ص (٤١).
وما ذكرته قابلٌ للتعديل حسب ما يبتغيه الموصي، والمقصود: مراعاة مضمون السنة ما أمكن؛ لحفظ حقوق الناس والورثة من الضياع والادعاء.
(٢) مر الحديث عنها في باب «من عاش على المعصية مات عليها» فصل: أظهر الله خبثهم ساعة موتهم.
(٣) شُجْنَةٌ أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق؛ ذلك أنها في الأصل شعبة من غصن من أغصان الشجر.
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٩٨٨)، (٣/ ١٣٦).

﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٢-٢٤][1]!!

رسالة الحديث:

إنَّ من قَطع رَحِمَهُ؛ قَطعَهُ رَبُّهُ؛ ذلك أنه مُفْسِدٌ في الأرض، مَلعُونٌ من الربِّ، أَصَمَّ اللهُ أُذُنَه عن سماع الحق، وأعمى بصره عن رؤيةِ الهدى.

ومضت سُنَّةُ الله تعالى أن يموت المَوصُولُ بالله في حَيَاتِهِ؛ مَوصولاً به أيضًا عند مماتِهِ، وأن يموتَ المَقْطُوعُ عن الله في حياته؛ مقطوعًا عنه عندَ مَمَاتِهِ، ألا فَلْيَشْتَرِ قاطعُ أرحامه خاتمةً فاخرةً بِهَجْرِ هَجْرِهم، وَدَيمومةِ الاتصالِ بهم.

وقد سُئِلَ الشيخ الدكتور نزار ريان يومًا: ما سِرُّ توفيق الله لك في العلمِ والعمل، والدعوةِ والجهاد؟

فَأَجاب بِقَولِهِ: تأملت في سبيلٍ يُوصِلُني لِرَبِّي؛ فألفيتُه في صلةِ الرَّحِم، وَوَصْلِ الصفِّ في الصلاة؛ فَمن وَصَلَهُمَا وَصَلَهُ الله، ومن قَطَعَهُمَا؛ قَطَعَهُ الله؛ فَوَصَلْتُهُمَا فَشَعرتُ أَنَّ الله وَصَلَنِي بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ وكرَمِه!!

ثم نَظَرْتُ في خَاتِمَتِهِ؛ فَإِذَا هُو قد قَضَى عَالِمًا داعيةً مُجَاهِدًا شهيدًا، ولا نُزَكِّيهِ عَلَى اللهِ جلَّ وعلا.

(4) العفو عن الناس، والإحسان إليهم، والرحمة بهم:

أخرج أبو داود في سننه بِسَندٍ صحيحٍ من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ**»[2]!!

هذا وعيدٌ نبويٌّ فَحْوَاه: أَنَّ من هَجَر أخاهُ؛ مُرَشَّحٌ لِخَاتمةِ شرٍّ وَعَار، يَدْخُلُ بها النَّارَ، فَحَسَنٌ بك أن تُعْلِنَ عفوك، وسلامةَ صدرك؛ فإن من عفَا عن غيره؛ عفا الله عنه وَحَبَاهُ، ورفع قدره وأعَزَّهُ واجتباه[3].

---

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث: (٥٩٨٧)، (٣/ ١٣٥)، صحيح مسلم، رقم الحديث: (٦٦٨٢)، (٨/ ٧).
(٢) سنن أبي داود، رقم الحديث: (٤٩١٤)، ص (٧٣٧)، وقال الألباني: صحيح.
(٣) يراجع في هذا موضوع: أطايب الأنفاس في عز العافين عن الناس من كتاب: سراج الغرباء إلى منازل السعداء، للمؤلف ص (٢٦٣).

أخي..

أَيليقُ بِكَ أن ترجو خِتَامًا حسنًا، ثم تُقْفِلَهُ بِنفسِك، والمِفْتَاحُ بِيَدِكَ؟

قَدِّم الثمن أولاً لِيُكْرِمَكَ رَبُّكَ، وإلا فَمِنَ السفاهَةِ أن تَطْلُبَ من الله عفوًا عنكَ؛ ثم تأبى العفو عَن غَيرِكَ، لَكِنَّهُ التَّوفِيقُ وربِّي؛ فَإِنَّ من طَمِعَ في خاتمةٍ عَسَلِيَّةٍ؛ رأيتُهُ يتبرع بِكُلِّ حَظٍّ ماديٍّ ونفسيٍّ مقابل ما عند الله تعالى، ومن عَرَفَ أُجورَ الأعمال؛ هَانت عليهِ فِي كُلِّ الأحوال، ومَن لاح له فَجْرُ الأَجْرِ؛ هَان عليه ظَلامُ التَّكليف!

وقد قال الله جلَّ وعلا لأبي بكر ﵁ في شأن مسطح بن أثاثة ﵁: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]!!



الخامس: الختام الذي تُحبُّ أن تُقَابِلَ ربَّكَ عليه

وهذا بندٌ هام، ويَحْتَاجُ إلى رَوِيَّةٍ وتفكيرٍ وَإمْعَان.

أَمْسِك قَلَمَك، وَأَخْرِج لَوحةً عِندَك، ثُمَّ ارسم المَشهدَ الختامِيَّ الذي تُحِبُّ أن تَمُوتَ عليه، وتلقَى اللهَ عليْهِ.

وجزى الله خيرًا الشيخ خالد أبو شادي الذي أبى إلا أن يجعل لرِيَشتهِ مساهمةً في تمامِ لوحة خاتمتك، وصورة عاقبتك، فقال لك:

إذا وَضَعْتَ نُصْبَ عينيك الخاتمةَ التي تريدُهَا، ودعوت الله أن يَتوَفَّاكَ عليها، فابذل الآن حياتك في سبيلِهَا، حتى تَمْلِكَ عقْلَكَ، وتَأْسِرَ رُوحَكَ، فَعِنْدَهَا تَرَقَّب ميتتك كما خططتها لنفسك، وما هي إلا مسألة وقت، فَلَقَد عَلِمْتَ أنَّ الموتَ ليس منك بِبَعِيدٍ، بل هو أقرب إليك من حبلِ الوريد.

• فَإن أَرَدْتَّ الموتَ داعِيًا، وأن يبعثك داعيًا؛ فَاسْلُك طَرِيقَ الدُّعَاةِ من قَبْلِكَ، وَلْتَمْلِكَ عليك الدعوةُ شِغَاف قَلبِكَ، وتحتلَّ أولى أولوياتك، بل تُطَلِّقُ في سبيلها أعذارَك كافة، لأنك تَخْطِبُ وُدَّ الآخِرَةِ.

• وإن وددت الموت ذَاكِرًا؛ فكُن للتوحيد شَاكِرًا، ثم لتجعل لك أذكارًا وأورادًا، وَكُنْ عليها مُعتادًا، ولا تتركها أبدًا، وَلْيلْهَجَ لسانُكَ بِالقُرآن دومًا، في الصباح والمساء تاليًا وحافظًا وقائمًا.

• وإن رغبت أن تقْضِيَ مُرابطًا سَعِيدًا، مُجَاهِدًا شَهِيدًا؛ فَعِشْ سِيرةَ الشُّهَداء، واقرأ أخبار المُجَاهدين، وَكُن مَعَ المُرابطين الصَّادِقِين، وَحَدِّثْ نفسَك بِالحُور المنتظرة لك على شوق، وقَدِّمِ المَهْرَ عاجلاً بلا خوفٍ ولا عَوْق[1] أ.هـ.

• وإن أحببت أن تموت قائمًا عابدًا، راكعًا ساجدًا؛ فَأَعِنِّي على نَفْسِكَ بِكَثرةِ السجود، وطول الهُجُود.

---

(١) خالد أبو شادي/ مقال بعنوان: صناعة الخاتمة، بتصرف وزيادة.. عوق: أي: جُبْن.

• أما إن طَمَحْتَ أن يُمْسِكَ الله رُوحَكَ صائمًا؛ فَعَليك بِصِيَامِ الاثنين والخميس، وَكُلِّ يومٍ فاضلٍ نفيسٍ؛ كالأيام البيض ويوم عَرفة، وعاشوراء وعشر ذي الحِجَّة.

• وإن رَجَوتَ الموت في لحظةِ إجابة، ويوم جُمُعَة؛ فَالزم آخر ساعةٍ من اليوم، واهجر شواغلك فيها والنَّوم؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ مُجابٌ ما دام فيك نَفَس، إلى أن تغرب الشَّمس.

• وكذا إن قَصَدْتَّ الوفاةَ حاجًا أو مُعتمرًا؛ فاعقد العزم على فِعْلِهِمَا، ولا يَفُتْكَ جُلوس فَجْرِ كلِّ يَومٍ في المسجد حتى تطلع الشمس؛ فَإِنَّ لك بِذلك أَجْرَ حَجَّةٍ وعُمرةٍ تامَّةٍ، وقد يَقْبِضُكَ اللهُ في هَذِه الساعة، وأنت على هذه الطاعة.

• أما إن ابتغيت المَمَات في دَرْسِ عِلْمٍ؛ فَاجْثُ بِرُكبتيكَ عند العُلَمَاء، واحْمل حبَّ العِلْمِ بقلبك صباحَ مساء، وَكُلَّمَا سَمِعتَ بِمَجْلِسِ علمٍ كُنت في أول صفٍّ، لك جولاتٌ في الصحيحينِ والسُّنَنِ والمسانيد والمُصَنَّفِ، فضلاً عن صَولاتٍ وسهراتٍ في العُلوم الشرعيةِ، والنَّافعِ من الفُنُونِ النظرية.

ذكاءٌ وأي ذكاء:

• وإن أردت أن تموت مؤمنًا عَابدًا مُجاهِدًا ساجِدًا داعيًا عالمًا فهَذَا خاصٌ بِذَوي الفَضَائِلِ، الفَوارسِ الرَّوَاحِلِ؛ كَمَن يَنْوِي قيامَ اللَّيلِ فِي ثُغُورِ الرِّبَاطِ والجِهَاد، وَكِتابُ العِلْمِ بِيَدِهِ، يُوَجِّهُ إخوانَهُ، وذِكْرُ الله على لسانِهِ، مُتأهبًا للقاء العَدُّو، بِكُلِّ جُرأة وَعَدْو!!

فَهَذا إن مات شهيدًا قَضَى بالميتةِ التي أرادها، والخاتمةِ التي قَصَدَهَا، وإن عاد إلى بيته؛ عَاد بِأَجرِ العابدِ القائم، الداعيةِ العَالِمِ، المُرابطِ المجاهد، الذاكر الحَامِد، فَهَذَا للمَجْدِ تَسَلَّقَ، وفي أعلى الجنة تَأَلَّقَ، فَكُنْ مثلهم وإلا فَقَلِّدِ القومَ، وإياك والنَّوْم.

وأخيرًا يعود خالد أبو شادي هاتفًا بكم، صادحًا فيكم:

إنَّ الطَّرِيقَ مُمَهَّدَةٌ، والسبيلَ واضحةٌ، يسيرةٌ جدًا على من يسَّره الله عليه.

أما من لا زال رَازِحًا تحت قيود المَادَّةِ، مُغترًا بِبَرِيقِ الدُّنيا، غافلاً عن حَرْثِ الآخرة؛ فَالطَّرِيقُ عليه شَاقَّةٌ، وإنَّ الجَنَّةَ لا تَفْتَحُ بابَهَا إلا لِعَينٍ لها عاشقة[1]!!

(١) خالد أبو شادي / مقال صناعة الخاتمة، بتصرف.



وَأَخِيرًا وَبعدَ أن أَيقنْتُ أنَّ حالةَ المرءِ عِنْدَ مماتِهِ هِيَ مُلَخَّص مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، وَأَنَّ عَمَلَهُ في السرِّ وَالعَلَنِ هو الرِّيشةُ التي تُرْسَمُ بِهِا صُورَةُ مَشْهَدِ وَفَاتِه؛ أَصْدحُ فِي سَمعِكَ شَفقةَ الرَّفِيقِ عَلَى الرَّفِيق:

أَلَم يَأْنِ لَكَ أَنْ تَرْسُمَ مَشْهَدَ خاتمتِكَ؟ لِتَشْرَعَ في صِناعَتِهِ بِنَفْسِك؟ لَقَد زَكَمَتِ الخَواتِيْمُ الطَّالِحَةُ أُنوفَنَا، وعَكَّرَتْ صَفْوَ حَياتِنَا؛ فآن لنا أن نَرْسُمَ لوحةَ مماتنا مِن خِلالِ رَسْمِ لَوحةِ أعمالِنَا في سرِّنَا وعلانيتنا!

أما تعلمُ أنَّ الموتَ يَسْعَى في تبديدِ شملك؟ أما تخاف أن تُخذَلَ عند مَوتِكَ علَى قبيحِ فعلِكَ في سِرِّكَ وعلنك؟ أين يقظتُكَ وتدبيرُ عقلِكَ؟ إنْ كان لحمُكَ سَيُمَزَّقُ عند موتك فَلْيكُنْ في المَعْرَكَةِ! وإن كانت روحُكَ ستَخْرُجُ وأنت في حالةِ ذلَّةٍ فلتخرج في ظِلالِ سجدةٍ مُبارَكَةٍ!

إنَّ مَن شُغِلَ في الدنيا بالدَّنَايَا؛ عُرِضَت خَاتمتُهُ في سَاحَةِ الدَّنَايا! فَأَينَ الأَنَفَةُ من دارِ الأذايا؟ أَتَرتَجِي خِتَامًا فَاخِرًا دُون بَذْلِ العُدَّةِ قبل المنايا؟ وتجويدِ السرائر والخفايا؟

أترتجي مماتًا زَاهرًا باهرًا قبل التوبةِ من الخَطَايا والآثام؟ كالنظرِ إلى الحَرام، واستماع الحرام، وأكل الحرام، وهل ينفعُكُ النَّدمُ يوم جني ما غَرَسْتَهُ؟ وَقَدْ أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسَيْتَهُ!!

أخي..

العمرُ في إمحاقٍ، وقد فَازَ بِحُسْنِ الختام الرِّفَاقُ، وربما طَرَقُوا الفردوسَ وَصَعُبَ اللَّحَاقُ، فإن ابتغيت رتبتهم فَفِرَّ إلى الله كأنك في أَعْتَى سِبَاقٍ، والوَقْتُ قد ضَاقَ، وَيحك لو أنَّ هِمَّتَكَ فترت،

أَما تَشْتَاق؟!!

خذ مني تلك النصائح؛ ليختم لك بختامٍ فاخرٍ صالح:

- إنَّ مِفْتَاحَ الوُصول: كُن في الدُّنْيا كَأَنَّك غَريبٌ؛ بَل عَابِرُ سَبِيل!
- أكثرُ الناسِ سَعادةً سَاعَةَ الخِتَام؛ أكثرهم ذِكْرًا له في سَائِرِ الأَيَّامِ!
- اجعلْ لك خبيئةً من عملٍ صالحٍ بينكَ وبينَ رَبِّكَ؛ يَظْهَرُ خَيرُهَا عندَ مَوتِك!
- إيَّاك أن تَفْتَحَ مَلَفَّكَ السَّيِّءَ مع الله لأيِّ أَحَد، بل اسْتُرْهُ، وأتبعْه بالحسنة تِلْوَ الحسنة حتى تَلْقَى الواحدَ الأحد!
- تَبَرَّأْ من كُلِّ ذَنْبٍ؛ فما رأينا أفسدَ منه للقَلْب، بل هُوَ أقبحُ شيءٍ على العَبد؛ ذلك أنه لا يُوجَدُ بين الله ﷻ وبين أحدٍ من عبادهِ صهرٌ ولا قرابةٌ ولا نسبٌ، فَتَبَرَّأْ فورًا من شَرِّكَ؛ لئلا تخذل بختامٍ لا ترتضيه لِنَفْسِكَ، ولا يرضاهُ لَكَ محبُّوكَ وأهلُكَ!
- سِر في النَّاس ليلاً ونهَارًا حتَّى تَعْثُرَ على صَدِيقٍ صادقٍ، يدلك على الخَالِقِ ﷻ، وإلا فاحمل لِواءَ الغُربَة، ولا يُبَطِّئَنَّكَ عن مَسلَكِ الغُربَاءِ قلةُ السَّالِكين، أَو يَغُرَّنكَ كثرةُ الهالكين؛ فإنَّ النَّاجين قلة، والغُربَاء قِلَّةُ القِلَّةِ، ولهؤلاء صدح ابن مسعود رضي الله عنه قائلاً:

الجُمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَق، وَلَو كُنْتَ وَحْدَكَ!

فَأنتَ الجماعةُ -أخي- ولو كُنتَ وَحْدَكَ، وإن لم يكن في ساحةِ الغُربَةِ غَيرُكَ، فَاقْبِضْ على دِينك قبضَكَ على الجمْرِ، ثابتًا رَاسِخًا حتَّى تلقَى رَبَّ البَشَر، والْزَمْ مِيثَاقَ الطَّاعَةِ؛ فَقَد اقتربَت السَّاعَةُ، ومَا بَينَكَ وَبينهَا إلا صبرُ سَاعَة!

- أَعْتى أَسلحةِ الشَّيطانِ التي يحاولُ بها طعنَ إيمانِ الإنسَان؛ المالُ، واللِّسَانُ، وشهوةُ النِّسْوَان، فَمَن طَعَنَ الشَّيطانَ عند الوسوسةِ بهَا في مَقْتَلٍ، وأَثْبَتَ له أَنَّهُ رَجُلٌ رَجُل؛ قَوِيت فُرصَةُ ربحِهِ في صفقةِ السكنِ في الفردوسِ الأَعْلَى مِنَ الجنَّةِ!

أخي وحبيبي في الله..

سَطَرْتُ إليكَ كِتَابِي هذَا ليتدبَّرَهُ عقلُك، فيرسلَهُ لِقَلْبك؛ فَيَفِيْضَ دعوةً على لسانك، وعملاً على جوارحك، ولا سبيل لهذا إلا بقراءته عَلَى مَهَل، ثُمَّ العمل بما فيه، فإنَّهُ كَأكثر الكتب لا تَتَفَتَّقُ معانيه، إلا لمن يُعَانِيه!!

وإني لَأتبتَّلُ إلى ربي بِكُلِّ تَضَرُّعٍ وخُضوعٍ، وتواضعٍ وخُشوعٍ أن يرزقَني وإيَّاكَ قَبُولاً حَسنًا، وَخِتَامًا حَسنًا، وَوَعدًا حَسَنًا، ومآلاً حسنًا، ومَنزلاً في أَعْلَى الجنة تحتَ عَرْشِ الرَّحمن، إنَّ ربي رَحِيمٌ ودودٌ مَنَّان.

وأُنْبِيكَ -أُخَيَّ- أني قَدْ حَدَّدْتُ خَاتمتي، وَرَسَمتُ لوحةَ عَاقِبَتي، فَلا تَبخَلْ عَلَيَّ بِدَعوةٍ تُخلِصُ فيها؛ أن يمنَّ اللهُ عليَّ بها، ويجْعَلَني من أَهْلِهَا، فو الله إني لَمُشْتَاقٌ مشتاقٌ إليها، وأخشى أن أُحْرَم منها، لَكِنَّ فَضْلَ ربِّي أكبرُ مِنْهَا، فاللهم أكرمني بها... اللهم أكرمني بها.. اللهم أكرمني بها.

قل آمين.. آمين..

اللهم رَبَّنَا نَجِّنَا من سُوء الخاتمة، والخُذلان عندَ العَاقِبَةِ.

اللهم أحسن عاقبتَنَا في الأمُورِ كلِّهَا، وأَجِرْنَا من خِزْيِ الدُّنيَا وعَذَابِ الآخِرة.

اللهم ربنَّا سَلِّم إيماننا، ولا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هَدَيْتَنَا، واحْفَظ علينَا التزَامَنَا حتى نَلقَاكَ مُوَحِّدِين، مُسلِمين، قَانتِين، لَيْسَ للنَّارِ فِينَا نَصيبٌ، بل للجَنَّةِ منَّا كُلُّ نَصِيبٍ.

اللهُمَّ إنَّا نستودِعُكَ توحيدَنَا لك العامرَ في قلوبنا، فَرُدَّهُ علينا ساعة موتنا؛ لِتَكُونَ آخرُ كلماتنا: «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله»، فَإنَّا قد عَلِمنَا أنَّ الودائِعَ لا تَضِيعُ عندك، وَأَنَّكَ أرحمُ بنا من أنفسنا بِأَنْفُسِنَا.

ربَّنا إننَّا آمنَّا بِكَ، وأسلَمْنَا لَكَ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

اللهُمَّ أحينا مُسلمين، وتَوَفَّنَا مُسْلِمين، وَألحقْنَا بالصَّالحين، غير خَزَايا وَلا مَفْتُونين.

اللهُمَّ إن كُنْتَ تَعلم أنَّ طُولَ حياتِنَا ضُرٌّ لنا، وزيادةٌ في آثامنا، وكثرةٌ في جرائمنا، فإنَّا نسألك بِكُلِّ تَبَتُّلٍ وَخُضُوعٍ، وإلحاحٍ وخُشُوعٍ، أن تَقْبِضَنَا إليك غير مُضَيِّعِين ولا مُفَرِّطِين، فَأَحْيِنَا ما كَانت الحياةُ خيرًا لنا، وَأَمِتْنَا ما كان المَمَاتُ خَيرًا لنا؛ فَموتٌ بِكَرامةِ الإيمان، خَيرٌ من عيشةٍ يُعصى فيها الخالقُ المَنَّان.

اللهُمَّ إنا نَسْأَلُكَ إيمانًا لا يرتَدُّ، ونَعِيمًا لا ينفد، ومرافقةَ النبي ﷺ في أَعْلَى جَنَّةِ الخُلْد.

يَا رَب.. يَا رَب.. يَا رَب.. يَا رَب

تَمَّ الكتابُ بِحَمْدِ الله ﷻ وَمَنِّهِ وَكَرَمِهِ

ليلة الأربعاء [٢٨] من ذي الحجة، لعام [١٤٣٣ هـ]، الموافق [١٣/ ١١/ ٢٠١٢م]

سَائِلاً اللهَ ﷻ أنْ يُكْرِمَنِي بِسِرٍّ يَفُوْقُ العَلانِيَةَ عُبُودِيَّةً وَإِخْلَاصًا وَجُودًا

وَأَنْ يَجْعَلَ ثَمرةَ كتابي هَذَا.. عَمَلاً مَقْبُولاً، وَأَثَرًا مَحْمُوْدًا

هَذَا، وَصَلِّ اللهُم وَسَلِّم وبارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا المُصْطَفَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِيْن، وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين.

المَرَاجِـــــــع

اســـم الكتـــاب	الـمـؤلف
أولاً: القرآن الكريم وعلومه	
القرآن الكريم	
تفسير الطبري	الإمام الطبري
تفسير ابن كثير	الإمام ابن كثير
في ظلال القرآن	سيد قطب
تفسير الشعراوي	الشيخ الشعراوي
التفسير القيم	ابن القيم
تيسر الكريم الرحمن	السعدي
صفوة التفاسير	الصابوني
ثانيًا: السنة النبوية وعلومها	
صحيح البخاري	الإمام البخاري
صحيح مسلم	الإمام مسلم
سنن أبي داود وقد حكم على أحاديثها الشيخ الألباني رحمه اللّه	أبو داود
سنن الترمذي	الإمام الترمذي
سنن النسائي	الإمام النسائي
سنن ابن ماجه	الإمام ابن ماجه
مسند أحمد	الإمام أحمد
المستدرك على الصحيحين	الحاكم
مصنف ابن أبي شيبة	ابن أبي شيبة
مجمع الزوائد	الهيثمي
جامع الأحاديث	السيوطي
الأدب المفرد	الإمام البخاري
السلسلة الصحيحة	الشيخ الألباني
الترغيب والترهيب	الإمام المنذري
صحيح الترغيب والترهيب	الشيخ الألباني
ظلال الجنة	الشيخ الألباني

الأولياء	ابن أبي الدنيا
فتح الباري	ابن حجر العسقلاني
شرح صحيح البخاري	ابن بطال
فيض القدير	المناوي
شرح بلوغ المرام	ابن عثيمين
جامع العلوم والحكم	ابن رجب الحنبلي
زاد المعاد في هدي خير العباد	ابن قيم الجوزية
مختصر سيرة الرسول ﷺ	محمد بن عبد الوهاب
السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون	علي بن برهان الدين الحلبي
بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار	الكلاباذي

ثالثًا: الأخلاق والرقائق

الفوائد	ابن قيم الجوزية
طريق الهجرتين	ابن قيم الجوزية
الجواب الكافي	ابن قيم الجوزية
روضة المحبين	ابن قيم الجوزية
صيد الخاطر	ابن الجوزي
المدهش	ابن الجوزي
الدرر البهية في المواعظ الجوزية	محمد شومان
صلاح الأمة في علو الهمة	د. سيد عفاني
صفقات رابحة	د. خالد أبو شادي
قصص القرآن	سعد يوسف أبو عزيز
أهوال القبور	ابن رجب الحنبلي
استمتع بحياتك	محمد العريفي
المستخلص في تزكية الأنفس	سعيد حوى
سراج الغرباء إلى منازل السعداء	محمد بن محمد الأسطل

رابعًا: السير والتراجم والطبقات

البداية والنهاية	ابن كثير
سير أعلام النبلاء	الذهبي
معرفة الصحابة	أبو نعيم
العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية	ابن قدامة المقدسي
أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره	الصلابي
عبد الله عزام رجل دعوة ومدرسة جهاد	حسني جرار
شيخي الذي عرفت	محمود عزام

تراجم علماء دمشق في القرن أل (١٤)	محمد مطيع الحافظ
صفحات مشرقة من حياة الشيخ ابن عثيمين	حمود بن عبد اللّه المطر
شذى الرياحين في سيرة واستشهاد أحمد ياسين	سيد عفاني
خامسًا: اللغة والأدب والشعر	
تهذيب اللغة	الأزهري
ملحة الإعراب	الحريري
وحي القلم	الرافعي
مقامات القرني	الدكتور عائض القرني
سادسًا: كتب أخرى	
المغني	ابن قدامة
شفاء العليل	ابن قيم الجوزية
نظم «صفوة الزبد»	ابن رسلان الشافعي
كيف تغسل ميتًا؟	أسامة الغامدي
الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل	علي بن نايف الشحود
كلمات من النار	عبد اللّه عزام
نفخة البعث	محمد حسان
اقرأ ثم اكتب وصيتك	هشام العارف
سابعًا: المجلات والمحاضرات والمقالات	
اللقاء الشهري، فتاوى فقهية	ابن عثيمين
مقال بعنوان: علوٌ في الحياة وفي الممات	عبد العظيم بدران
مقال بعنوان: صناعة الخاتمة	خالد أبو شادي
مقال بعنوان: «داعية معروفة تلفظ أنفاسها وهي على جبل الصفا»	وكيع الكويتي
دروس ومحاضرات الشيخ صالح المغامسي	صالح المغامسي
دروس ومحاضرات الشيخ محمد حسان	محمد حسان
خطبة صوتية بعنوان: «أهل الخشية»	محمد بقنة

فَهْرَسُ المَوْضُوعَات

